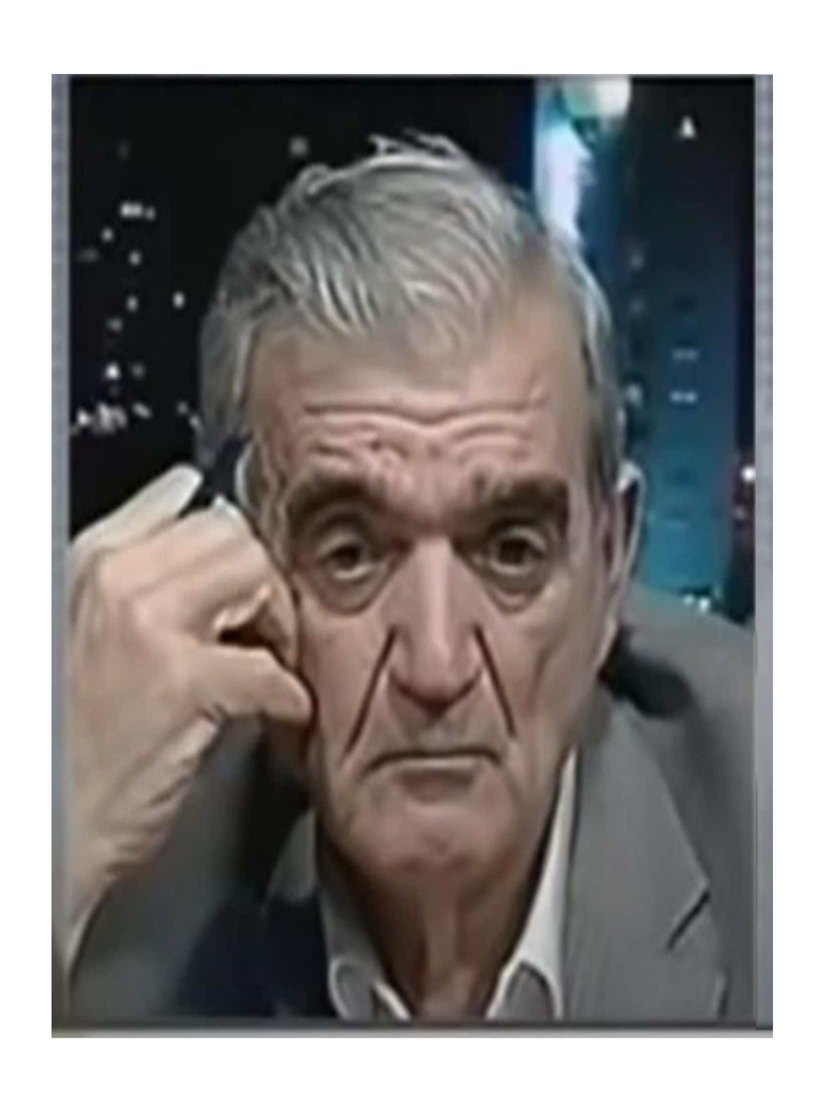


مقالات

د. سهيل زكار

المحتويات

كتاب الطبقات

- تأليف : خليفة بن خياط
- تحقيق : سهيل زكار
- نشر : وزارة الثقافة بدمشق — القسم الاول ١٩٦٧

إن المعلومات المتوفرة للباحث الحديث عن خليفة بن خياط وحياته ضعيفة جداً . ويظهر أنه اقتصر في تلقي العلم على بلده البصرة ، حتى أنه — فيما يبدو — لم يدخل بغداد قط . وكان جده من رجال الحديث الثقات عند البخاري وابن أبي حاتم الرازي .

صنف ابن خياط — فيما ذكر ابن النديم — أربعة كتب هي : (كتاب التاريخ) و (كتاب طبقات القراء) و (كتاب تاريخ الزمنى والعرجان والمرضى والعميان) و (كتاب أجزاء القرآن وأعشاره وأسباعه وآياته) .

وقد عمد سهيل زكار — معيد في قسم التاريخ بجامعة دمشق — الى تحقيق (كتاب الطبقات) المحفوظة مخطوطته في المكتبة الظاهرية والذي يعتقد أنه هو (كتاب طبقات القراء) ، وهو من أقدم ماوصل إلينا من كتب الطبقات ، فابن خياط معاصر لابن سعد الذي

وصلتنا طبقاته ناقصة ، وفيها سقط كثير.

يضم الكتاب تراجم حوالي ٣٣٧٥ من الصحابة والتابعين وتابعيهم رجالاً ونساء وقد تكررت تراجم بعضهم ولا سيما الصحابة .

وقد بدأ المؤلف كتابه بالتحدث عن الرسول (ص) ثم اخذ يترجم للصحابة ، حتى اذا تحدث عن الامصار ترجم لصحابة كل مصر ثم لتابعيه .

واما الصحابيات فأفرد لهن باباً خاصاً في آخر الكتاب .

وقد روى المخطوطة عنه تلميذه موسى بن زكريا التستري ، على النحو التالي :

(... حدثنا خليفة قال : حدثني حاتم بن مسلم ، عن ابي معشر ، عن محمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز ، واسماعيل بن رافع ، قال : قال رسول الله — ﷺ — : « انسبوني » ، ثم قال: « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد » ...) .

وقد رتب ابن خياط الصحابة حسب انسابهم وقرابتهم من الرسول ثم تحدث عن التابعين وفق انسابهم أيضاً .

ويفيد نهج ابن خياط — في تقسيم الطبقات حسب القبائل — في معرفة قبائل كل مصر من الأمصار ، اي في معرفة حركة انتشار القبائل العربية وتوزيعها جملة وتفصيلاً . ذلك أن ابن خياط يترجم لرجاله ، ليس فقط حسب قبائلهم الكبيرة وانما حسب اصغر الأفخاذ والفصائل .

ومن عادته ان يذكر نسب المترجم كاملا حتى اعلى اجداده ، وبهذا يصبح الكتاب — بالاضافة الى كونه كتاب طبقات — كتاب أنساب . وابن خياط — كما وصفه المؤرخون — محدث مؤرخ نسابة .

وهـــذا المنهج يفيد ايضاً في دراسة تاريخ بني امية ، اذ كان للعصبية فيه

شأن كبير، وعندما يعرف المؤرخ قبائل كل اقليم في الدولة يستطيع التوصل الى حل كثير من المعضلات ، ويقف على التيارات السياسية وأسرار الحوادث .

ويظهر ان ابن خياط كان يحرص ألا يفوته ذكر أية قبيلة من القبائل النازلة في الأمصار، حتى التي لم يعرف فيها محدثون . فكان اذا ما ذكر واحدة من هذه القبائل قال : « ليس فيها احد » . يعني من حملة الآثار .

ومن عادة ابن خياط ، حين يترجم للصحابي ، أن يشير الى الأحاديث التي رواها هذا الصحابي .

والغالب على تراجم ابن خياط لرجاله انها مقتضبة ، فهو يذكر اسم المترجم ونسبه ونسب أمه ، وسنة وفاته ومكانها ، واحاديثه ، دون الالمام بشيء عن حياته ، وتكاد تراجمه للتابعين تكون مجرد تعداد لهم في طبقاتهم .

وان اهتمام ابن خياط بذكر امهات رجاله وانسابهن ، يفيد في التعرف على الصلات بين القبائل ، لأن التزاوج بين قبيلتين يعني في معظم الأحيان وجود تعاون بينهما .

ويؤرخ الكتاب دخول المرأة الأجنبية البيت العربي ، وبدء حلول الأمة مكان الحرة ، وكيف تدرج هذا وازداد .

اصدرت وزارة الثقافة في القطر العربي السوري القسم الاول من هذا الكتاب ويضم طبقات المدينة واليمن والكوفة وطبقات البصرة عدا الطبقة الثانية عشرة التي سيبدأ بها القسم الثاني الذي يرصد الطبقات في الامصار الاخرى .

ظ . ع .



الجزء الثاني — المجلد الخامس والأربعون

مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق
« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

نيسان « ابريل » سنة ١٩٧٠ م — المحرم سنة ١٣٩٠ هـ

متى تدخل المصطلحات العلمية

في حيز الاستعمال[1]

من الحقائق الواضحة التي يلمحها المرء في الحياة العلمية في الوطن العربي ، أن بين علماء هذا الوطن ومتعلميه رغبة صادقة في الاستغناء عن استعمال الأسماء والمصطلحات الأجنبية والعوض عنها بما يماثلها باللغة العربية .

وعلى أساس من هذه الرغبة الأصيلة المتمكنة المتجددة ، بذلت الجهود الكثيرة منذ فجر النهضة في معظم البلاد العربية ، وكان للكنانة ـ حرسها الله ـ قصب السبق منذ قرن ونيف ، أعني منذ أتخذت العربية فيها لغة الحكومة الرسمية . وقد أنشأت المدارس التي تعلم العلوم والفنون بلغة الضاد في مراحل التعليم الثلاث واضطلعت مدرسة أبي زعبل (القصر العيني بعد ذلك) بتعليم

(١) الكلمة التي ألقيت في مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة (الدورة السادسة والثلاثين)

نقد وتقويم

لكتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان

الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٥٦ — ١٠٨٦ م

تحقيق الدكتور علي سويم — أنقره ١٩٦٨ م —.

عندما يقوم المرء بدراسة تاريخ أوربة والعالم الإسلامي خلال العصور الوسطى يلحظ أن القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان من أهم المراحل في هذه العصور ، إن لم يكن أهمها ، ذلك لأن الأحداث التي تمت فيه تجاوزت في خطورتها أحداث القرون الفائتة حتى شكلت نقاط تحول في حياة المجتمعات الأوربية والإسلامية .

في هذا العصر قام النورمان بنشاطهم الذي مكنهم من السيطرة على صقلية وانكلترة وعلى جزء كبير من أرض القارة الأوربية ذاتها ، وفيه ازدادت ضراوة حركة الاسترداد النصراني في الأندلس ، وظهرت حركة المرابطين في المغرب وقامت بنشاطها المؤثر في حين هاجر بنو سليم وهلال إلى إفريقية وحولوا أرض الشمال الافريقي إلى أرض عربية .

فاذا ما التفتنا إلى أرض الشرق الإسلامي والإمبراطورية الرومانية الشرقية وجدنا التركمان يهاجرون والسلاجقة يغزون بعد سيطرتهم عليها . إن انتصار السلاجقة قد أحدث تغييرات هائلة شملت أعماق الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية ، ومس التكوين البشري لمسلمي الشرق وبدأ بتحويل بيزنطه إلى بلد تركي . ويمكن أن نقرن هجرة التركمان من حيث الأهمية وبعد التأثير بالهجرة العربية التي رافقت الفتوحات الإسلامية الكبرى .

ولم يكن السلاجقة أول من حكم الشرق الإسلامي من الأتراك ، ولكنهم كانوا أول من قدم هذا الشرق كسادة لا كعبيد من أسواق النخاسة ، لذلك ملكوا قدرة التغيير الفاعلة .

وإنني لست هنا في صدد دراسة تاريخ السلاجقة وسيطرتهم على المشرق الإسلامي ، وكان بودي التنبيه إلى بعض النقاط الهامة التي نجمت عن هذه السيطرة لتكون مقدمة لنقد نص أرخ لها ، ولكن ضيق المكان يحول دون ذلك .

لقد كتب بعض مؤرخي الشام وغيرهم الذين عاصروا السلاجقة عما تم في بلادهم من أحداث خلال فترة مدّ السيطرة السلجوقية ، ولكن من سوء الحظ ، إن معظم كتابات الشاميين قد فقدت ، ومع هذا فمن حسن الحظ أن المجلدات العشرة الباقية من كتاب بغية الطلب لابن العديم تحوي جزءاً كبيراً مما دونه هؤلاء الشاميون ، ولكن على صعيد المشرق الإسلامي كله يعتبر غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن الصابىء المتوفى عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م أهم من أرخ الأحداث التي تمت زمن هجرة التركمان وانتصار السلاجقة . فغرس النعمة كان من أهم رجالات بغداد البارزين وقد اطلع على تفصيلات عصره ووثائقه وسجل ذلك في تاريخ ضمنه أحداث السنين التي انصرمت بين ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م — ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وجعله كالذيل لتاريخ أبيه .

ومن سوء الحظ أيضاً أن يكون هذا الكتاب في حكم المفقود ، ولكن من حسن الحظ أيضاً أن يكون سبط ابن الجوزي يوسف بن قزاوغلي صاحب مرآة الزمان الذي كتب كتابه هذا أكثر من مرة ، قد ضمن في إحدى المرات تاريخ غرس النعمة مجلديه الثاني عشر والثالث عشر .

ولقد استفاد كثير من المعاصرين المهتمين بالتاريخ الإسلامي من تاريخ غرس النعمة هذا كما رواه سبط ابن الجوزي ، ومع ذلك لم يقدم أحد منهم على نشره لصعوبة النص وسوء حالة النسخ المخطوطة ولكن أقدم في العام الماضي الدكتور علي سويم ، المدرس في جامعة أنقره على نشر جزء كبير من هذا التاريخ ، مما يتصل ، حسب اعتقاده وتقديره ، بالأحداث المتعلقة بالسلاجقة ، ولقد اعتمد في نشرته هذه على أربع نسخ مخطوطة ، واحدة محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم — ١٠٥٦ — والبقية في استانبول ، واحدة

في مكتبة أحمد الثالث تحت رقم — ٢٩٠٧ — والأخريان في متحف الآثار الإسلامية تحت رقم ٢١٣٤ و ٢١٤١ .

ولقد قدم الدكتور سويم إليّ مشكوراً نسخة من منشورته هذه ، فعلمت بها أن الكتاب أصبح في متناول القراء والباحثين وتلامذة التاريخ الإسلامي ، وأنا واحد منهم مهتم بدراسة التاريخ السلجوقي في بلاد الشام ،فرأيت من واجبي أن أبين الرأي في طبيعة وقيمة عمل الدكتور سويم .

لقد أخفق الدكتور سويم في تقديم ثمرة علمية طال انتظارها ، فهو لايملك الحق — بصفته محققاً — أن يقول بأن هذا النص يتعلق بالسلاجقة لأنه يتضمن اسم أحد رجالاتهم . ويبدو لي أن الدكتور سويم قام بعمله وهو واقع تحت تأثير الطرق الفنية الحديثة في ترتيب الوثائق التاريخية وتنسيقها وتبويبها حسب الموضوعات ، وإذا صح تصوري هذا فان مثل هذا العمل يدل على فقر في المعرفة التاريخية ، ذلك أن كتابات المؤرخين العرب وغيرهم لا يجوز أن تعالج وتبوب بالطرق الوثائقية .

لقد ترك لنا المؤرخون نصوصاً ينبغي نشرها كما كتبوها لا على الصورة التي نود لو كتبوها عليها .

واجب المحقق تقديم نص صحيح مضبوط ولا يجوز له فيه التصرف من مثل إضافة العناوين أو اجتزاء بعض الأجزاء أو حشو بعض المادة ، لأن مثل هذه الأعمال لا تمت إلى الأمانة العلمية بسبب .

الباحث وحده في كتاب أو بحث مستقل يمكنه أن يتحمل تبعة القول بأن هذا الحدث له علاقة بتلك الجماعة أو ليس له علاقة ، ومثل هذا القول معرض دائماً للنقض أو الاعتراض .

لقد كان العالم الإسلامي وحدة متفاعلة برغم وجود التجزئة السياسية ، وتاريخ غرس النعمة متصل كله بالسلاجقة ، وهو في الوقت ذاته يمت إلى الفاطميين في مصر وإلى بلاد الشام وبقية أجزاء الشرق الإسلامي أيضاً بسبب

ولنضرب على هذا مثلاً بحملة السلطان ألب أرسلان التي قادها حتى أسوار حلب عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م . إن سبب قيام هـذه الحملة متصل بالحالة السياسية التي كانت قائمة آنذاك في القاهرة ومحاولات ناصر الدولة الحمداني للسيطرة على مقاليد الأمور هناك ، ولكن الدكتور سويم تغافل عن محاولات ناصر الدولة هذه ، واختار هو نفسه النص الذي ذكر ماجرى للحملة أثناء سيرها ، وليت شعري كيف يمكن دراسة حدث دون معرفة أسبابه ؟

لم يقم الدكتور سويم بضبط أي علم من الأعلام الوارد ذكرها في النص وبخاصة التركية منها ، على كونه تركياً متخصصاً باللغات ، وعلى أن عمله في ضبط النص وأعلامه هو واجبه الأول كمحقق ، وأعتقد أن معظم القراء سيحارون كيف يلفظون : تتش ، تكش ، بزان ، قطلمش ، أرتق . . . .

إنه لم يتبع في الكتاب قاعدة معينة بالنسبة للياء والألف المقصورة ومن الغريب أيضاً أنه أهمل ما يجب إعجامه وأعجم ما ينبغي إهماله : فهمذان مثلاً كتبت بالدال المهملة بينما جمادى طبعت بالمعجمة . وليس هذا في الحق كل شي ، كما أنه ليس بالمهم ، ولكن المهم هو أن الدكتور سويم عجز عن قراءة النص كما ورد في الأصل قراءة صحيحة ، فأنتج بذلك نصاً تبعثرت خلاله الأخطاء وجاءت جمله في كثير من الأحيان لا تمت إلى العربية بصلة ، وليس لها أي معنى مفهوم .

ولقد حصلت على مصورة لكل من مخطوطة باريس وأحمد الثالث ، وقمت بمقابلة نصيها بالنص الذي نشره الدكتور سويم فاستطعت تقويم معظمه ، ولقد استعنت بعدد من المصادر الأخرى منها : بغية الطلب وزبدة الحلب لابن العديم ، وتاريخ العظيمي ، واتعاظ الحنفا للمقريزي ، وأخبار مصر لابن ميسر . والجدول المرفق يتضمن بعض أهم الأخطاء الواردة في منشورة الدكتور سويم

مع ما أراه من الصواب ، ولا يتضمن هذا الجدول جميع أخطاء النص لأن ذلك يعني إعادة تحقيق النص ونشره من جديد . وأنا أعتقد بأن هناك ضرورة ملحة لنشر النص الكامل لتاريخ غرس النعمة كما رواه سبط ابن الجوزي ، وأرجو الله أن يوفقني في المستقبل للقيام بذلك .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب (١)
١	٤	وزُعم	زَعم
٣	٧	يخرج	نخرج
٣	١٠	تاجا مرصعا	وتاجا مرصّعا
٣	١١	منبثا فيها	مثبتا فيها
٤	٩	البلاد العلياء	البلاد العليا
٤	١٤	فوقع مقلد العرب	فدفع مقلد العرب
٤	١٥	أولادهم أصحابهم	أولادهم وأصحابهم
٤	٢٠	وأنه على تفرقيه في العرب	وأنه على تفريقه في العرب
٥	٤	خليل أمير المؤمنين وخالصة أبي محمد .	خليل أمير المؤمنين وخالصته أبي محمد .
٥	٥	مصطفى الدولة خصيصها	مصطفى الدولة وخصيصها
٥	١٢	وثلث زوارق	وثلاث زوارق
٦	٢١	وأنتم ترجمون على الدولة	وأنتم ترجفون على الدولة
٧	٣	وسئت السمعة	وساءت السمعة
٨	١٥	فاذهب إلى الديون	فاذهب إلى الديوان
٩	٣	وأعفاها من الفز	واعفائها من الفز
٩	١٠	ومعاذ الله أن يشق عصى أو يمد وعداً ولا يفي به .	ومعاذ الله أن نشق عصاً أو نمد وعداً ولا نفي به .

(١) معتمداً على أصلَيْ باريس وأحمد الثالث إلاّ ما أضيف فوضع بين حاصرتين ،

١٠	٣ و ٤	فلم أعل بدي وأتم حيلي بمن يبدل الأموال ويوسعني في الأعمال واغلظ الرسل.	فلم أغل يدي ، وأنت خلي، ممن يبذل الأموال ويوسعني في الأعمال وأغلظ للرسل.
١٠	١٨	وخلعه جميلة لقريش وقريش بمركب ذهب .	وخلعة جميلة لقريش وفرس بمركب ذهب .
١٢	٦	وحمل إليها الأموال	وحمل إليها الأموال
١٤	٥	خلعه أبيه من مصر	خلعة آتية (أو آتته) من مصر
١٥	١٠	طرطور أحمر بودع وأخذ من الرجلة درام	وطرطور أحمر بودع، وأخذ من رحله درام
١٥	١٩	جسرا على الراب الأول	جسرا على الزاب الأول
١٦	٣	نية غزاة الروم وكان معه خلق كثير فتفوس به عن من ابراهيم بنال .	بنية غزاة الروم وكان معه خلق كثير فتموض به عن إبراهيم ينال .
١٦	٢٠	وإني أجود معي ألف غلام	وإني أجرد معي ألف غلام
١٧	١٠	ويعود إلى ما كنا عليه	ويعود إلى ما كان عليه
١٧	١٥	وسألوا إبعاد ابن ورّام	وسألوا إنفاذ ابن ورّام
١٧	١٩	أنعم عليّ السلطان ببقاء نفسي	أنعم عليّ السلطان بإبقاء نفسي
١٧	٢٢	وتقرر ما في أيديهم	وتقرير ما في أيديهم
١٨	١	فلو أمنوا بعده هذا الجيش	فلو آمنوا بعزة هذا الجيش
١٩	١	وتوثق منه وطابت قلوبهم	وتوثقوا منه وطابت قلوبهم
١٩	٤	فشنفت الجماعة	فشفعت الجماعة
١٩	١٩	قد سبقت على السبعين	قد نيفت على السبعين
١٩	٢٢	وكان الأمير ياقوتي بسبب السلطان .	وكان الأمير ياقوتي نسيب السلطان .

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٠	٩	وقرب من حلل العرب	ولما قرب من حلل العرب
٢٠	١٨	ولا قبل له هدية وردها	[فامتنع] ولا قبل له هدية وردَّها
٢٢	١١	عطية بن الرؤقلية صاحب حلب .	عطية بن الزُّوقلية [أخي] صاحب حلب .
٢٢	١٤	وسار إلى سنجار	وسار [السلطان] إلى سنجار
٢٢	١٩	ونقضت أحشابها ودرست آثارها وقيل إن القتلى .	ونقضت أخشابها ودرست آثارها وقيل إن القتل .
٢٣	١٨	وأقام السلطان قلعة تكريت إنسانا .	وأقام السلطان في قلعة تكريت إنسانا .
٢٤	٤	والجنائب والمهادية	والجنائب والعمارية
٢٤	١٥	مالم يبق معه احتشام	مالم يبق معه احتشام
٢٥	٧	وعمة مثلثة مذهبة	وعمامة مثلثة مذهبة
٢٦	١	ثم أذن أمير المؤمنين تفاض عليه	ثم أن أمير المؤمنين أفاض عليه
٢٧	١٩	ثم يشكوه فقال : لما سلمت إليه الجبل .	ثم شرع يشكوه فقال: لما سلمت إليه الجبل .
٢٩	٩	اينا نجيك الذي خلعه السلطان بقلعة .	اينا نجيك الذي خلَّفه السلطان بقلعة .
٢٩	٢٠	في يوم أربعاء	في يوم الأربعاء
٣٠	١٩	لا تُوقِّف	لأتوقف
٣١	١٨و١٩	فتملكها وتأخذ من همدان ما بها خزائن السلطان .	فيملكها ويأخذ من همدان ما بها من خزائن السلطان .
٣١	٢٤	واستوثق	واستوثقوا
٣٢	٤	فمنع	فمنعها
٣٣	٢٠	إلى بغداد وأيضاً	إلى بغداد أيضاً

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤	٥	فبرزت الرسول	فزبرت الرسول
٣٤	٦	من عبث العرقية	من عبث العراقية
٣٤	١٠	رئيس الرؤساء واستقر الرأي مع الخليفة عبور .	برئيس الرؤساء واستقر الرأي مع الخليفة على عبور
٣٤	٢٠	وسبّح النساء والأطفال	وضج النساء والأطفال
٣٦	٢ و ٣	وما فعلوا ويستحثونه على إلحاقهم وأقاموا مع كامرو إلى وقت المساء ثم حمله .	وما فعلوه ويستحثونه على لحاقهم وأقاموا مع كامرو إلى وقت المساء ثم حملوه .
٣٦	٦	وجهه بما بكره وحصل في جملته غير متهم على وحدة .	وجاهره بما يكره وحصل في جملته غير متهم على واحدة منها.
٣٧	٩	رحلة	رحله
٣٩	٨	وعلى رأسه اللؤلؤ	وعلى رأسه اللواء
٤٢	٨	أعداء	أعدائي
٤٢	٢٠و٢١و٢٢	وعبر في طيار أعلام المصريين ونحن بين يديه أبو منصور ابن بكران حاجب الخليفة على رأسه في البحر .	وعبر في طيار الخليفة وعلى الطيار أعلام المصريين فصانئي الميدو نحن بين يديه أبو منصور ابن بكران حاجب الخليفة على رأسه في النحر .
٤٣	١٨	فبعث البساسيري	فبعث للبساسيري
٤٤	٦	وفاتت	وفاتت
٤٥	٦	أبو الأعز	أبو الأغر
٤٥	١٣	خاطب للبساسيري	وخاطب البساسيري
٤٥	١٤	فلم يقع إجابة	فلم تقع إجابة
٤٥	١٦	حتى	حين

[الصفحة]	[السطر]	[الخطأ]	[الصواب]
٤٦	١٤	إلى	إليّ
٤٦	١٩ و ٢٠	اجتمعوا من فيها	اجتمعوا مع من فيها
٤٧	١٣	يبدر	يبدو
٤٧	١٧	يُرجاله	برجاله
٤٨	١	إقامة	وإقامة
٤٨	١٤	يخلصهم من الحصار ويكون بعدوهم .	تخلصهم من الحصار ويكون تعددهم .
٤٨	١٥	ولا تُمكّن	ولا تمكن أو ولا تكن
٥٠	١٨	لها	لما
٥١	٤	ومال أرسلان خاتون	ومال إلى أرسلان خاتون
٥١	٢٠	وتستكتب لمن تأمنه وتحقق الدماء وتحفظ .	وتستكتب لمن تأمنه وتحقن الدماء وتحفظ .
٥٢	٢٣	ولا يحمل عليه	ولا يحمد عليه
٥٣	١٤	من القلمة	في القلمة
٥٣	٢١	ليلا يشعثها	لئلا يشعثها
٥٤	٢	ثلاثمائه ألف	ثلاثة آلاف
٥٤	٢٢	ونهب أموالاً	ونهب أموالها أو أموال [أهلها]
٥٥	٣	فظن عليه	فطمن عليه
٥٥	١٧	ولا تطأ	ولا يطأ
٥٦	١	المعظم الملك الشرق	المعظم ملك الشرق
٥٦	٩	استقل	ليستقلّ
٥٦	١٥	لم يوافق	لم يوفق
٥٧	١٨	يطيمه	يطمعه
٥٧	١٩	قرية	قربه

٥٨	٧	وغرقهم	وغرقوهم
٥٨	١٠	دار تساوي	دار ، كل دار تساوي
٥٩	٤ و ٥	تخرج وتقصد بلد بدر بن مهلهل وتكون .	تخرج وتقصد بلد بدر بن مهلهل وتكون .
٥٩	٩	وأنا على وجل أمر الخليفة	وأنا وجل على الخليفة
٥٩	٢٠	ومعهم النجاتي عليها السرادق الكبير	ومعهم النجائب عليها السرادق الكبير
٥٩	٢٢	ثلثه	وثلاثة
٦١	١	ثم شفع	ثم تبع
٦١	١٢	تصلح الحرب	تصلح للحرب
٦١	١٣	فإذا أخرج بنفسه	فإذا خرج بنفسه
٦٢	١٠	وأنفس	وأنس
٦٢	١٧	هذه المدة يخدمه	هذه المدة [وهو] يخدمه
٦٣	١	وزح الجفاء	وبرح الجفاء
٦٣	١٠	وألقى	وألقى
٦٣	١١	أغر الظالم	وعز الظالم
٦٣	١٢	بل تغز	بك نعز
٦٤	١٠	سرا من باب منيع	سرايا بن منيع
٦٥	١٨و١٩	بنا كرم	نبا كرم
٦٦	١	السلطان سامع مطيع لأوامره ومراسيمه إلا أن البدرية.	للسلطان سامع مطيع لأوامره ومراسيمه إلا أن للبدوية .
٦٦	١٨	ويشاغلوا	وتشاغلوا
٦٧	٦	الثلثة	الثلاثاء
٦٧	١١	المحصور	المحظور

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٩	٧	بها الشرف	بهاء الشرف
٦٩	١٩	تب	بت
٧٠	٣	فقلبها وفعل ما فعل فقتل أقبح قتلة ويقال إنه .	فقلبها وفعل ما فعل فقتل أقبح قتلة ويقال إنهم .
٧٣	٩	المكذبين	الكذبين
٧٣	١٤	واستعجبت	واستعجمت
٧٤	١٦	وتمادوا	وتنادوا
٧٥	٣ و ٤	وتهددهم وبأن	تهددهم وبان
٧٦	١٧	عين السلطان	عن السلطان
٧٨	٢	وصلنا	وصلوا
٧٨	٢١	متولي	لتولي
٧٩	٣	إن لم	إذ لم
٧٩	٦	متقيضا	متقبضا ؟
٨٠	١٨	لا يطلبها	لا يطلبا
٨٠	٢٢	الوهم	الوهن
٨٣	١٦	فارعة	فارغة
٨٣	١٧	البيت	البنت
٨٤	٥	فإذ المقتول	فإذا بمقتول
٨٥	٣	منهم	منه
٨٥	١٢	بمن يأنس به ويجب أن نعود إليه ونكون .	ممن يأنس به ويجب أن تعود إليه وتكون .
٨٥	١٧	عميد الملك العراق إلى السلطان	عميد الملك إلى السلطان
٨٦	٤ و ٥	المتهم بخمارتكين فحضر	المتهم بخمارتكين فحضر
٨٦	١٤	وخنق	وضيق

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٦	١٨و١٩	وعاد إلى السلطان	وعاد به إلى السلطان
٨٧	٢	ومصادراتهم	ومصادرتهم
٨٧	١٧	وكانت	وكاتب
٨٨	١٢	فتوقع من	فتوقف عن
٨٨	١٤	للقاضي	لقاضي
٨٨	١٦	وخروج	وخرج
٨٨	١٩	على ركابية	على الركابية
٨٨	٢٢	أظهرت	ظهرت
٩٠	٣	اقبض	قبض
٩٠	٨	دار المملكه الكرم	دار مملكه الكرم
٩٠	١٦	ولما سفك الدماء من أصحابه	وسفك الدماء في أصحابه
٩٠	١٧	لما مات	ومات
٩١	١٠	ماأخرنا إلا ليصل ابن صاعد ويسمع .	ماأخرنا إلا ليصل ابن صاعد ونسمع .
٩٣	١٣	واستدعيت عميد	استدعيت وعميد
٩٣	١٥	فلما رأى	فلما رآني
٩٣	١٨	ما شرف فرجية	ما شرف به ، فرجية
٩٥	٧	ابن الحلبان حمله من أداه	ابن الحلبان في جملة من آذاه
٩٧	١١	وقرطه	وقرظه
٩٨	١٠	لفراح	لبراح
٩٨	١٤	لا يخرج من بغداد مع ركن الدين ولا ينتقل .	لا تخرج من بغداد مع ركن الدين ولا تنتقل .
٩٩	١٦	ساكنه	شاكية
٩٩	١٩	وألزمها ويتبعها	وألزمها ولم يتبعها

٩٩	٢٠	وكان من فعل	وكان كل هذا من فعل
١٠١	٨	فاتباعه	فابتاعه
١٠١	١٤	غير أنه اقتراحات	غير أنه اقترح اقتراحات
١٠١	٢١	وكان يجدد	وكانت تجددت
١٠١	٢٢	ومقدار عسكر الذين	ومقدار عسكره الذين
١٠٢	١٤	الفرات عاد	الفرات وعاد
١٠٢	١٥	أصحاب أطراف	أصحاب الأطراف
١٠٢	١٨	بتجدد واستدعام	تجدد واستدعاؤهم
١٠٤	٧	ورام أعذار	ورام إنحدار
١٠٨	١٧	والآمالكم	وآمالكم
١٠٩	٢٠	الوالي	الوالي
١١٠	١٨	واستجاس	واستجار
١١٠	١٩	إلى ساوة معه	إلى ساوة ومعه
١١٠	٢١	فجسّره	فجسر
١١٦	١	زائرا	زائدا
١١٦	٤—٧	إبداعا للصنائع عندالأكفاء وأبدأ للواضع بأعباء الإخلاص الناهضين والاستكفاء ولما احتويت عليه هذه الخلال وأوفيت وحميت منهل الطاعة من القذى وأصفت وأعذب في المدى وأبديت وأبدت وخرت .	إبداعاً للصنائع عند الأكفاء وإنداء للمواضع بأعباء الأخلاص الناهضين بالاستكفاء . ولما احتويت على هذه الخلال وأوفيت وحميت منهل الطاعة من القذى وأصفيت وأعذبت في المدى وأبديت وأبدت وحزت .
١١٦	٨	ما لم يدركه به أمل	ما لم يدركه أمل

١١٦	٩	وحصك بما تملك به نواسى	وخصك بما تملك به نواسي
١١٧	٥	يتحرصون	ويتخرصون
١١٧	٨	نظام الملك إلى نخجوان	نظام الملك انتقل إلى نخجوان
١١٨	١١	ولم يحل	ولم يقل
١١٨	١٢	وأشاهده هذه فاجتهدت	وأشاهده فاجتهدت
١١٨	١٢	وحدث	وحدّثت
١١٨	٢٣	مناسفة	منافسة
١١٩	٢	كرمان لما خلت	كرمان ولما خلت
١١٩	٦	فأعلم	فعلم
١١٩	١٢	مزّق عن الطاعةواصطرح	مرق عن الطاعة واطرح
١١٩	١٣	عابدا	عائذا
١١٩	١٣	بما يدرك	فما يدرك
١١٩	١٧	يبلغه	يلقه
١٢١	٩	مظهرا فلما قصد	مظهرا قصد
١٢٢	٨	لهم	له
١٢٢	١٢	البسترخس	البترخس
١٢٢	١٥و١٦	احتقنه من الهيات ونبط	احتفنه من الهيات ونيط
١٢٤	١٥	وكان يشعره	وكان يشعر ومن شعره
١٢٤	١٦	مُسْتَحْلٌ	مُسْتَحلي
١٢٤	٢٠	والشامة	والشامت
١٢٤	٢٣	نبأ	بناء
١٢٧	٢	كانت قدور	كانت [في] قدور
١٢٧	٣	غزاء	الغزاة
١٢٧	٥	وانقضدت	وانقضت

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٧	١٠	صفر خرجت	صفر وخرجت
١٢٧	١٤	(و) ولدها	ولده
١٢٨	٢٢	فيختنق	فليختنق
١٣٠	٤	الذي عليه	التي عليه
١٣١	٨	زور أحرضه	زوراً خرصه
١٣٢	١٩	اقترضها	اقترضتها
١٣٣	٢	معهم	معه
١٣٣	٥	فنسير إليه ونقاتله	فتسير إليه وتقاتله
١٣٣	٦	ومعه بني	ومعه من بني
١٣٣	١٠	وأصلح المال	وأصلح الحال
١٣٣	١٠	كل وحد	كل واحد
١٣٣	١٨	من المال	عن المال
١٣٤	٥	الخليفة كان	الخليفة وكان
١٣٥	٩	عن التهاو[ن] أن	عن آتها وأن
١٣٥	١١	عنهم	عنه
١٣٥	١٢	تجب وترجع	يجب ويرجع
١٣٥	١٣	وغيضا	وغيظا
١٣٦	٢٠	وانبساط	وانبسط
١٣٧	٥	إليه	إليهم
١٣٨	١٦	بصبيح خمسمائة ألف دينار وراسل من في القلة .	بصحيح خمسمائة ألف دينار وراسل من في القلمة .
١٣٨	٢٠	إلا" خراقي"	إلا إنحرافي ـ أو خلافي
١٣٩	١٨	جشار	حيار
١٤٠	١٥	بالمطاولة وله فيا	بالمطاولة فيا

١٤٢	١	وبينك ويضرب إلا	وبينك إلا
١٤٢	٢	لا إليّ	لا لا
١٤٢	٤	وغير	وغيره
١٤٢	١٣	بني كلاب	بني كلب
١٤٣	١٢	فعسكره	فعسكر
١٤٤	٣	من حازين(؟) إلى بلادالروم	متحازين إلى البلادالتي للروم
١٤٤	٧	قرره	قرده
١٤٤	٨	خاصه	خاصته
١٤٤	١٩	المراقبين عسكر	المراقبين من عسكر
١٤٥	١١و١٢	وطلبتُ حراستي وحراسة	وطلبتَ جرايتي وجراية
١٤٦	١٩	وحزبه	وحربه
١٥٠	٤	وبلادي	وبلائي
١٥٣	١٤	نمان	لمان
١٥٤	١٦	أولا إلى	أولاً أولاً إلى
١٥٦	٧	قبيح	بقبيح
١٦٠	١٥	طري	طرأ
١٦٣	١١	ألموت	الموت
١٦٤	٦	كانوا	وكانوا
١٦٤	٢١	الناس	اياز
١٦٥	٢	الناس	اياز
١٦٥	٣	أطمعتهم	أطمعتيهم
١٦٦	٢١	وبي	ربتي
١٦٧	١٩	بأنه	لأنه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٨	١٣	وأخذ	وأحد
١٦٨	١٨	فتركاها	فتركاهما
١٦٨	٢٠	وبعث إلى كرمان يستدعي خيلاً فجاءته .	وبعثا إلى كرمان يستدعيان خيلا فجاءتهما .
١٦٨	٢١	إليه الموكلون به وأعلموه	وجاء إليهما الموكلون بهما وأعلموهما
١٦٨	٢٢	وجعلها في بيت مظلم وأغلق	وجعلاهما في بيت مظلم وأغلقا
١٧٠	١٦	علمته ذهبا واسلم لعمله	عملته ذهبا واسلم لعملته
١٧٢	٥	بني كلاب	بني كلب
١٧٢	١٨	وهو على السبب	وهو كان السبب
١٧٣	١٢	خرجت	جرحت
١٧٣	٢٠	منزما على رقبته	منهزما على رقبته
١٧٤	١٣	الذي به	الذي بعث به
١٧٨	٩و١٠	وأخذهما خفارة	وأخذ سور خفارة
١٧٨	٢٠	من يقتضي استعمال ذلك وابعادي عن الخدمة ونصري .	ما يقتضي استعمال ذلك وابعادي عن الخدمة ونظري .
١٨١	١١	مقطع (له) حلوان	فقطع حلوان
١٨٣	١٢	ما ينعمكم	ما يسمكم
١٨٥	١٤	صورها	سورها
١٨٦	١٣	منهم	منه
١٨٧	٨	بابن القشيري	بأن ابن القشيري
١٨٨	١٤	يُعرف	نعرف
١٨٨	١٥	يُرى	نرى
١٨٨	١٦	إلا غضا	الإغضاء

١٨٩	١٠و١١	لهم وسماع وتعبير فن راجك	لهو وسماع وتعبير فن زاحمك
١٩٢	١٧	ومذ عنقه	ومدّ عنقه
١٩٢	١٩	يُغلى	تَلَق
١٩٢	٢٠	ولو	ولقد
١٩٤	٥و٦	يخبر الانسان على الانتقام	يجبر الإنسان على الانتقال
١٩٤	١٤	يضاد	نضاد
١٩٦	٧	فثأر	فثار
١٩٦	١٤	وتقل	وتقلوا
١٩٧	٦	إليه ورقة بخطه لكل أجل كتاب : وقد أوعدناك إلى والدتك لما سلف ، فبعث	فبعث إليه ورقة بخطه لكل أجل كتاب : وقد أعدناك إلى والديك لما سلف ،
١٩٧	٢٠	إلى الشام	إلا الشام
١٩٨	١٢	فاحتاج	فاجتاح
١٩٩	٥	من كل راجل	ومن كل راجل
١٩٩	١٨	عودتُ	غدوتُ
٢٠٢	١	بتعزيته عزى	بتغريقه غرقت
٢٠٢	٧	أكثربتهم	أكربتهم
٢٠٢	٢١	بابنته	بأخته
٢٠٣	٢	أموالا	أموالي
٢٠٥	١٢	وتلاحقوا	وتلاحق
٢٠٦	١٧	بقتال	لقتال
٢١٠	٥	وُعلت	وعلت
٢١١	١٠	رُفع	رَفع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢١٢	٩	أقلب به	أقلب بها
٢١٣	١٥	الملكة ما	الملكة
٢١٣	١٧	إذا	فإذا
٢١٤	٧	عشرة الآلاف	العشرة الآلاف
٢١٦	٦	عزاز والأثارب فسلماها فأفرج عنهاوعوضها الحانوتة.	اعزاز والأثارب فسلماها فأفرج عنهاوعوضها الحانوتة.
٢١٧	١٩	الجمه بقين	الجمعة لخمس بقين
٢١٨	١٩	وليعصيك	ويعصيك
٢٢٠	٢	تنتقل	تنتقل
٢٢٢	١١	أبنى	بناء
٢٢٢	١٥	فأعاد	أعاد
٢٢٢	٢١	فقبض	وقبض
٢٢٣	٧	يرضاه	يرضاهم
٢٢٥	٨	وآباءك	وأباك
٢٢٦	٥	(و)	(من)
٢٢٧	٦	ليلا	لئلا
٢٢٨	٢٠	لا تغلق	لا تغلق
٢٣٠	١٥	فأرسل إلى ابراهيم	فأرسل ابراهيم
٢٣٢	١٢	الأمراء وفى	الأمر أوفى
٢٣٢	١٦	بعده	بعد
٢٣٣	١٣و١٤	إهانة كثير	هوانا كثيرا
٢٣٤	٦	مدح	مدحه
٢٣٥	٢	محبيين	محبين

٢٣٥	٨	سفين	عفرين
٢٣٧	٣	فكتب إليه	فكتب إلى
٢٣٨	٢٢	هيئته لم يكن	هيئة لم تكن
٢٤٠	١٨	الرملة	الرمل
٢٤٠	٢٣	عميد	العميد
٢٤١	١٧	عقرقوف	عقرقوف
٢٤٢	٢	إلا من ولى مثل	الأمن ولا مثل
٢٤٣	١١	البرية	بالبرية
٢٤٤	٢	سته أيام	سنة وأيام
٢٤٤	٢١	لأمير بالفارسية :	للأمير أمير ـ بالفارسية ـ: أو لكل أمير أمير ـ بالفارسية ـ.
٢٤٥	٧	السيدة	السدة
٢٤٦	٤	السرداق	السرادق
٢٤٨	١٥	مع من سلامة	مع سلامة
٢٤٨	١٧	يستدعيه	تستدعيه
٢٤٩	١و٢	بدوابه بغلة	بذوآبة وبغله
٢٤٩	٦	وزلت	وزل
٢٤٩	١٣	مصمة	مصمت
٢٤٩	١٩	تأوي	تأدى
٢٥٠	١١	موافقك	موافقك
٢٥٠	١٦	وجاهة	ووجاهة
٢٥١	١٨	الخادم في	خادم في
٢٥٢	١	ولدك الب أرسلان التقوى	ولدك إلى الب أرسلان التقوي

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥٣	٧	إيثاره إيثار	إيثاره وإيثار
٢٥٣	١٧	ولا ترتكد	ولا ترتكب
٢٥٤	١	المسير	للمسير
٢٥٥	٥	عوض	عرض
٢٥٥	٦	لاتقاربهولاتواريهولاتوازيه وتشبه ولا تضاهيه .	لا يقاربه ولا يوازيه ولا يشبه ولا يضاهيه .
٢٥٥	١٩	باضافة	بإفاضة

الدكتور سهيل زكار




المعرفة
العدد «١٥٤» كانون الأول ١٩٧٤
عدد خاص
أبو الفداء : د. عبد الرحمن حميدة
عبرة من عصر أبي الفداء : د. قسطنطين زريق
منهج أبي الفداء في البحث : د. حسن الساعاتي
المؤرخ أبو الفداء ونزعته العلمية : د. كامل عياد
أبو الفداء وتعليل التاريخ : د. عمر فروخ
الآفاق الجغرافية عند أبي الفداء : مصطفى الحاج ابراهيم
مذكرات أبي الفداء : د. نقولا زيادة
حماة في عصر أبي الفداء : إحسان العظم
شخصية أبي الفداء : وليد قنباز



حماة وقيام المملكة الايوبية فيها :

بعد ان تم للعرب في بداية القرن الاول للهجرة / السابع للميلاد ، فتح بلاد الشام وتحريرها من حكم الامبراطورية البيزنطية ، قاموا بتقسيم هذه البلاد الى اربعة اقسام عسكرية ادارية ، دعي كل واحد منها باسم جند ، وهي : جند فلسطين ، جند الاردن ، جند دمشق ، جند حمص . وقد شمل جند حمص وسط بلاد الشام مع قسمها الشمالي .

ومع توقف التوسع داخل الاراضي البيزنطية وتوضح منطقة للحدود بين بلاد الشام وبيزنطة ومع استمرار الاعمال العسكرية العربية ـ البيزنطية ازدادت اهمية المنطقة الشمالية من بلاد الشام ، وكانت مدينة قنسرين اهم مدن هذه المنطقة وتلاها في الاهمية مدينة حلب .

وفي النصف الثاني للقرن الاول للهجرة ، في اواخر عهد معاوية بن ابي سفيان ثم زمن حكم ابنه يزيد ، اتجهت الخلافة الاموية نحو تقسيم جند حمص الى قسمين ، بحيث تفرد شمالي بلاد الشام في جند خاص ، وتم هذا ايام يزيد بن معاوية ، الذى كان من جملة ما احدثه اقامة جند جديد عرف باسم جند قنسرين .

وكانت بلاد الشام قبل الفتح العربي ، تعج بالقبائل العربية ، التي انحدر غالبيتها من اصل يماني ، وكانت قبائل طيء وتنوخ أبرز قبائل شمالي بلاد الشام ومنطقة الجزيرة ، يستخلص من الكتابات السريانية للقرن السادس فما بعد ومن المصادر العربية لأخبار فتوحات بلاد الشمال ان عناصر هذه القبائل كانت في القرن السابع قد فقدت معظم طباعها البدوية ، ومالت نحو حياة الاستقرار في مناطق خاصة الحقت بمدن الشمال ودعي كل منها باسم « حاضر » .

وبعد استتمام حركة الفتح العربي ، قامت قبائل كثيرة بالهجرة من شبه الجزيرة العربية نحو البلاد المفتوحة ، ولقد سلكت القبائل التي هاجرت من شمالي الجزيرة طريق وادي الفرات وصعد بعضها شمالا نحو اقليم الجزيرة ، ثم تحول غربا نحو شمال بلاد الشام .

واستطاعت القبائل الجديدة ان تستقر في مناطق هجرتها الجديدة ، وان تنال لنفسها السيطرة والسيادة دونما مزاحمة من القبائل القديمة .

وكان لهذه الهجرة آثاراً كبيرة على التركيب البشري والقبلي لشمالي بلاد الشام ، كما لها نتائج على مستقبل شمالي بلاد الشام السياسي والاجتماعي والحضاري ، وظهرت اول هذه النتائج في تميز شمالي بلاد الشام ودفع الخلافة الأموية نحو جعله جنداً خاصاً . ومع الأيام ازداد تميز هذا الشمال ، وبنفس الوقت برز بين القبائل التي هاجرت إليه قبيلة كلاب ، واخذ بعض زعماء هذه القبيلة يرنو ببصره نحو السيطرة على جميع اجزاء بلاد الشام ، وتحقيق السيادة والامارة على جميع قبائل عرب الشام ، ولقد برز هذا بعد وفاة يزيد بن معاوية ، ووضح اثناء الصراع من اجل الخلافة بعده ، خاصة في معركة مرج راهط سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م ، ففي هذه المعركة قاتل زفر بن الحارث الكلابي تسانده

قبائل الشمال القيسية الأصل ، ضـد مروان بن الحكم الذي سانده قبيلة كلب وسواها من قبائل اليمن ، وهزم زفر بن الحارث في هـذه المعركة ، وفر نحو الشمال ثم شرقاً حيث اعتصم في مدينة قرقيسيا (البصيرة حالياً في سورية) وامتنع لفترة من الزمن عـن الاعتراف بالخليفة الأموي الجديد .

لقد كان لمعركة مرج راهط نتائج كبيرة على تاريخ بلاد الشام بعدها ،فقدأزالت هذه المعركة تقسيمات الأجناد من الناحية السياسية ، وحولت الشام الى دارين يفصل بينهما خط وهمي يمر قرب الرستن على العاصي ويمضي شرقاً داخل بادية الشام ، وصارت الدار الشمالية دياراً لكلاب والجنوبية لكلب .

واستمر الصراع بين كلب وكلاب ، ونتج عن هذا الاستمرار توضح الانقسـام السياسي الذي حل ببلاد الشام ، وكان لذلك نتائج كبيرة الغاية على مستقبل عدد من المدن الشامية البارزة ، فلقد تأثرت حمص بشكل كبير ، وبدأت تفقد أهميتها تدريجياً ، كذلك تأثرت مدينة قنسرين ، فأخذت تتقهقر ، وازدادت أهمية حلب ، وتقدمت هذه المدينة لتحتل مكان الصدارة بين مدن الشام ، وذلك على حساب كل من قنسرين وانطاكيـة ، وأصبحت حلب عاصمة ديار الشمال ، ومركزاً للصراع مع الجنوب ، وفي نفس الوقت عظمت أهمية مدينة دمشق ،وأصبحت مركز الجنوب الرئيسية – بالاضافة لكونهاعاصمة الخلافة الأموية – ومع الأيام بـدأ الصراع بين كلب وكلاب يتحول الى صراع جنوب بلاد الشام وشمالها ، أو بين حلب ودمشق ، وتوضح هذا بعد زوال الدولة الامويـة بفترة من الزمن .

ذلك ان الدولة العباسية ، التي اتخذت من العراق مركزاً لها ، انشغلت كلياً بمشاكل شرقي دار الخلافة ، واولت الاقسام الغربية القليل من العناية . لذلك تطور في منطقـة الحدود مع بيزنطة نظام دفاعي ، وكان هذا التطور من الامور التي ساهمت في ازدياد اهمية مدينة حلب . وبداية لتحولها الى مركز سياسي شبه مستقل .

وبعد مصرع الخليفة المتوكل على الله العباسي ، واستيلاء الجند على مقاليد الامور في مركز الدولة العباسية ، اخذت اجزاء كثيرة واقعة على اطراف هذه الدولة ، خاصة في الغرب ، بالانفصال ، وتكوين دول شبه مستقلة ، وانتقلت عدوى الانفصـال من قسم الى آخر كل ذلك في الوقت الذي ازدادت فيه امـور عاصمة العباسيين اضطراباً وضعفاً ، وكان من بين المراكز التي انفصلت والاقاليم التي استقلت اقليم مصر .

ومارست دول مصر الاسلامية المستقلة بعد قيامها سياسة خارجية محددة تجاه بلاد الشام ، ونبعت هذه السياسة من طبيعة تركيب مصر الجغرافية . كما انها استفادت من تجارب تاريخ العلاقات بين مصر القديمة وبلاد الشام ، فمصر التي هي عبارة عن سهل ليس له حدود ذات موانع طبيعية تحميه ، غزيت دائماً عن طريق بلاد الشام ، لذلك قامت سياسة هذا البلد القديمة على احتلال بلاد الشام للتصدي لكل هجوم طارىء خارج اراضي مصر ، ولقد ترافق هذا الاحتلال في كثير من الاحيان مع مطامح الحكام ورغباتهم في التوسع ، كما انه دفع نحو التوسع الامبراطوري .

وكان الذي حدث بعد قيام دولة مصر الاسلامية ان هذه الدولة نجحت في احتلال بلاد الشام ، انما اخفقت في الاحتفاظ بالقسم الشمالي من هذه البلاد ، وكان من اهم اسباب الاخفاق : بعد الشمال عن مصر ، ووجود قبيلة كلاب التي حرصت على المحافظة على استقلالها في ديارها ، ثم سياسة الامبراطورية البيزنطية التي ابتغت ان لا تكون حدودها المباشرة مع دولة اسلامية قوية ، بل أرادت ان يكون بينها دولة صغيرة حاجزة ، وهكذا حافظت على استقلالها ، واخذ الكلابيون يحاولون اقامة دولة مستقلة فيها . لكن طبيعة تركيب قبيلتهم ثم وجود الدولة الحمدانية في الموصل حرمهم من ذلك ، وساعد على قيام الدولة الحمدانية ، في حلب ، وهكذا غدت مدينة حلب مركزاً لدولة صغيرة تحكم شمال بلاد الشام ، وتتطلع الى احتلال الجنوب ، وفي نفس الوقت بذلت دول مصر الاسلامية المستقلة قصارى جهدها للاحتفاظ بجنوب بلاد الشام وسعت دائماً لاحتلال الشمال ، وعلى هذا الاساس استمر النزاع بين حلب ودمشق ، وتوضح هذا بشكل ملحوظ في القرنين الرابع والخامس / هـ / العاشر والحادي عشر / م / .

وأثناء هذا الصراع ازداد اضمحلال مدينة حمص ، وساعد على ذلك تعرضها في القرن العاشر لغزوات بيزنطية التي هدمتها . ودمرت منطقتها اكثر نحو الانحدار والاضمحلال وصارت منطقة حماة ارض الصراع بين دمشق وحلب وساعد هذا الصراع على دفع حماة وتقدمها ، ولما لم يوصل الصراع بين حلب ودمشق الى نتائج حاسمة دائمة لصالح أحد الطرفين ، فقد استفادت منطقة حماة من ذلك ، وبدأت تتحول منذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من حقل للصراع الى منطقة عازلة بين القوتين المتصارعتين ، وتطورت مدينة حماة من بلدة صغيرة كانت تابعة لجند حمص ، وبدأت تتحول الى مدينة من أبرز مدن الشام وأكبرها .

ومما زاد من أهمية مدينة حماة وساعد على بروزها موقعها الستراتيجي الهام ، واحاطتها بعدد من المراكز الحصنية مثل : شيزر ، وكفر طاب ، وغيرهما ، ثم لمرور نهر العاصي بها وسقايته لسهولها ، مما وفر لها موارد اقتصادية تدفع بذوي المطامع للاستيلاء عليها ، وتستطيع تحمل نفقات دولة مستقلة ذات ادارة وجند وبلاط خاص بها .

وبعد ما دخلت جموع الصليبيين بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد لم تستطيع هذه الجموع الاستيلاء على مدينة حماة ، كما ان حصن شيزر كان قد نجا من احتلالهم أيضاً ، وتمركز الصليبيون غير بعيد عن حماة ، وصارت أحد مراكز مقاومة الاحتلال الصليبي .

وفي الوقت الذي رفع فيه الخطر الصليبي من شأن مدينة حماة ، وجد خطر آخر من شأنها أيضاً، وجاءهذا من تمركز قوى الدعوة الاسماعيلية الجديدة . الحشيشية . في عدد من القلاع والحصون والمراكز الواقعة في غربي حماة ، ولقد وجه الاسماعيليون نشاطهم ضد السلطات السنية للسلطة السلجوقية ، ثم ضد ورثتها من بعدها، وصارت حماة نتيجة لذلك أبرز مراكز رصد النشاط الاسماعيلي والتصدي لخاطره .

ومن المعروف أن بلاد الشام قد تعرضت في النصف الثاني للقرن الحادي عشر للميلاد لهجرة التركمان التي ترافقت مع قيام السلطنة السلجوقية ، ولقد أثر انسياح التركمان على الوضع السياسي والبشري والقبلي والاجتماعي والحضاري والاقتصادي والديني لبلاد الشام وأطراف الفرات ، والتوجه جنوباً ، واستقر الكثير من القبائل العربية في المناطق الواقعة الى الشرق من مدينة حماه ، وكانت هذه القبائل في حركة دائمة وفي صراع داخلي وخارجي متواصل ومؤثر في نفس الوقت ، ورفع وجودالقبائل من شأن حماة . حيث أصبحت سوقاً لوارداتهم وصادراتهم .

واستدعى هذا وجود سلطات قوية في حماه لتحد من نشاط القبائل ولترصد تحركاتها وهكذا توفر مع الايام لحماه جهاز إداري خاص ، وتهيأت جميع الظروف لقيام دولة مستقلة بها .

واستمرت الحال هكذا الى ان قامت الامبراطورية الايوبية التي اسسها صلاح الدين الأيوبي واقامها على تركة دولة الاتابكة ، ولم ترث امبراطورية صلاح الدين املاك الاتابكة فقط بل ورثت اسس حكمهم التي نبعت من نظام السلطنة السلجوقية التي كانت

عبارة عن اتحاد دويلات كل واحدة منها تحكم من قبل امير عشيرة تركمانية ، او قائد قوة عسكرية ، وكان قد تطور في عهد السلطنة السلجوقية نظام الاقطاع العسكري ، وعندما قامت دولة صلاح الدين أخذت بأنظمة السلاجقة وطبقتها .

وكانت امبراطورية صلاح الدين في ايامه عبارة عن اتحاد يضم عددا من الدول المتفاوتة الاحجام ، وبعد وفاة صلاح الدين استمر الوضع ذاته ، انما مع فارق هو : توضح ما كانت بوادره قد ظهرت في أواخر ايام صلاح الدين ، فقد بدا آنذاك واضحا للعيان ضعف هذا النظام وكثرة معائبه ، فقد تصارع اصحاب الدول بين بعضهم البعض وضد السلطنة المركزية التي اتخذت من القاهرة قاعدة لها ، واستمر النزاع بين دمشق وحلب ، وبعد زوال الحكم الايوبي وقيام حكم المماليك لم يتغير هذا النمط ، ذلك ان دولة المماليك التي اتخذت من مصر قاعدة لها ، بذلت قصارى جهدها للمحافظة على حكمها لبلاد الشام

وكان لقيام غزوات المغول ، وتأسيس حكم الايلخانيين وغزواتهم المستمرة اثر كبير في استمرار اهمية مدينة حماة وتقدمها .

وكان من جملة الدول الايوبية التي قامت زمن صلاح الدين دولة حماة ، فقد اقطع صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب حماة ، وذلك اثناء عمله في سبيل تصفية الدولة الاتابكية وفي سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م زاده على حماة المعرة ، وكفر طاب ومنبج ، وميا فارقين وحمل تقي الدين عمر هذا لقب المظفر ، وصارت مرتبته مرتبة ملك ، وفي سنة ٥٨٧ هـ - ١١٩١ م توفي الملك المظفر هذا ، وكان صلاح الدين ما يزال حيا ، وعقب وفاته ورثه ابنه محمد بلقب الملك المنصور ، وارسل الملك المنصور الى صلاح الدين يخبره بوفاة ابيه ، ويعلمه بقيامه مكانه وراثة ، فرفض صلاح الدين الاعتراف به لكنه ما لبث ان تراجع وقرر الملك المنصور حماة ، وسلمية ، والمعرة ، ومنبج ، وقلعة نجم . وجلب هذا الاعتراف الرسمي من السلطان — الامبراطور الى الوجود شرعيا دولة حماة الايوبية ، وحولها من اقطاعية عسكرية الى مملكة وراثية .

ومع الايام أخذت هذه المملكة تتخلى عن ممتلكاتها في الجزيرة وغيرها مقابل ممتلكات قريبة من مدينة حماه ، وتورط ملوك هذه الدولة في منازعات افراد البيت

الأيوبي أحياناً ، ووقفوا موقف الحياد احياناً اخرى، حيث شغلوا دور الوسيط المهادن بين المتنازعين ، وقد منح هذا الدور ملوك حماه احتراماً خاصاً ، ووهبهم مكاناً علياً بين الحكام الايوبيين ، ويبدو ان ملوك حماه استطاعوا ان يقيموا علاقات تهادن مع جيرانهم الحشيشية في المغرب ومع امراء القبائل البدوية في الشرق لذلك نعمت دولتهم بالاستقرار ، مما ساعد مملكتهم على الرفاه والتقدم .

وبعدما زالت السلطنة الايوبية في مصر ،ولحقتها دويلات بني ايوب في شمال بلاد الشام وجنوبها ، استمرت مملكة حماه الايوبية وبقيت حية ، ولعل مرد ذلك الى النزاع بين حلب ودمشق ثم لنشاط قبائل البدو العربية ، خاصة الفئات المنحدرة من قبيلة طيء وتحالفاتها ، وكانت هذه القبائل تفضل التعامل مع ملك مستقل في حماه من ان تتعامل مع نائب تابع للسلطنة ولعل السلطة رغبت لسبب نفسه استمرار وجود مملكة في حماة تستطيع بطاقاتها الذاتية التعامل مع قبائل البدو ، وتتمكن من كف عاديتهم بطرائقها الخاصة ، والاخذ بمثل هذا المنهج امر معروف في تاريخ بلاد الشام قبل الاسلام وبعده .

ويمكن ان يضاف الى هذا ماسبق الاشارة اليه وهو غزوات المغول الايلخانيين مع نشاط المماليك ضد ارمينية ،فقد كانت حماة قاعدة هامة من قواعد رصد المغول والتصدي لهم ، كما انها كانت محطة هامة للقوات التي كانت تذهب ضد ارمينيه .

الأمــير :

ان مصدرنا الاساسي بالنسبة لحياة ابي الفداء هو ماتناثر من أخبار ، ذكرها عرضا في أثنايا القسم الاخير من كتابه في التاريخ الموسوم بالمختصر في اخبار البشر ، ففي جمادي الاولى لسنة ٦٧٢ هـ / تشرين ثاني ١١٧٣ م ولد أبو الفداء اسماعيل بن علي ابن محمود في مدينة دمشق ، ذلك ان اهل من الاسرة الايوبية لمدينة حماه جاؤوا دمشق في تلك السنة جافلين بسبب تواتر اخبار تحرك حملة مغولية كبيرة نحو بلاد الشام .

لكن يبدو ان هذه الاسرة لم تقم طويلا في دمشق ، بل عادت ادراجها الى حماه بعد زوال الخطر المغولي، وليس لدينا في المصادر المتوفرة مايروي لنا شيئا من اخبار طفولة ابي الفداء انما يبدو ـ قياسا ـ انه تلقى منذ طفولته المبكرة ماكان يتلقاه ابناء طبقته في عصره من ثقافة عربية اسلامية عامة ، وتدريبات عسكرية وخبرة سياسية.

ويشير أبو الفداء إلى أن عمه الملك المنصور أحمد صاحب حماه توفي سنة ٦٨٣هـ – ١٢٨٤م مخلفاً ابنه المظفر محمود ، وعند تنصيب هذا الملك الجديد تسلم اعترافاً من السلطان المملوكي في القاهرة وأرفق هذا الاعتراف بعدد من التشاريف – الخلع – وكان أبو الفداء من جملة أمراء البيت المالك الذين لبسوا تشاريف السلطان .

لقد كان أبو الفداء كما يبدو ثاني ثلاثة ذكور ولدوا لأبيه الملك الأفضل ،وهم بالاضافة إليه : بدر الدين حسن الذي كان أكبر منه بثلاث سنين . ثم أسد الدين عمر .

وكان الملك الأفضل هذا شبه شريك لابن أخيه الملك المظفر في ملك حماه ، وقد توفي الملك الأفضل سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م ، وفي أيام حياة الملك الأفضل وبعد وفاته كان أبو الفداء أبرز أبناء أبيه ، لذلك كان ينوب عن والده ويقوم ببعض المهام عوضاً عنه ، وعلى سبيل المثال نجده يذهب في السنة التي توفي بها والده الى مقابلة السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون ، ويقدم له بعض الهدايا باسم أبيه ، وبعد وفاة الملك الافضل التحق أبو الفداء بخدمة ابن عمه الملك المظفر وبدأ يحتل المكانة التي كانت لابيه في المملكة، ذلك أنه بعد وفاة أبيه مباشرة أعطاه الملك المظفر امرة طبلخاناه واربعين فارساً .

وبعد ما أصبح مؤرخنا واحداً من كبار ضباط جيش حماه الايوبي أخذ يشارك في جميع الاعمال القتالية التي كان يقوم بها هذا الجيش منفرداً او مشاركاً ضمن جيوش السلطنة المملوكية . ففي سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م كان ضمن الحملة المملوكية ضد ارمينية – سيس – وأثناء وجود هذه الحملة في ارمينية أصيب ابن عمه الملك المظفر بمرض ولم يكن بصحبته طبيبه ، فقام أبو الفداء بمعالجته « فشفاه الله تعالى واعادة الى العافية » وتشير هذه الحادثة الى أن الطب كان من جملة المعارف التي درسها أبو الفداء وأجاد معرفتها ، وتحوي مصادرنا اشارات أخرى مشابهة فيها ان ابا الفداء كان في الطب طبيباً، كما اجاد معارف فنون أخرى ، ذلك ان ثقافته كانت ثقافة موسوعية راقية، ورقيها دليل على ان الحضارة العربية زمن ابي الفداء كانت حضارة مازال تدب فيها الحياة ، لذا كانت ذات ابعاد كثيرة وجوانب مبدعة ، تسيطر عليها أصول العقلية العربية وتتحكم بها .

وفي سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م شارك أبو الفداء في أعمال السلطنة المملوكية العسكرية واستعداداتها الحربية بغية التصدي لحملة مغولية كانت متوقعة ، وفي السنة هذه

بالذات أصيب مع ابن عمه المظفر بمرض حاد نجا هو منه بعد أن كاد ان يؤدي به ،لكن الملك المظفر كان أقل حظاً منه ، ويحدثنا أبوالفداء بخبر ما وقع قائلا : « وفي هذه السنة أعني ثمان وتسعين وستمائة ... توفي صاحب حماة السلطان الملك المظفر تقي الدين محمود. وكان مرضه حمى محرقة ، وكان سبب ذلك ، مع فراغ العمر انه كان غاوياً برمي البندق واتفق له فيه صروعات حسنة ، فأراد أن يرمي النسر من طيور الواجب ، فقصد جبل علاروز ، وهو جبل مطل على قسطون ، وكان ذلك في شدة الحر ، وقتل حماراً وتركه على موضع بذلك الجبل ، وعمل في أغصان الشجر كوخاً ، وكان يجلس في الكوخ ، وأنا معه ، ومملوك له ، ومن يشاهده في رمي البندق، وكان يدخل الى الكوخ في السحر ويظل فيه الى الظهر ولا يتكلم انتظاراً لنزول النسر على جيفة الحمار ، وكنا نشم نتن تلك الجيفة ، واتفق نزول النسر في تلك الحالة ، ولم يقدر له رمية ، ثم عدنا إلى حماه فابتدأ بنا المرض ، وبلغت الموت ، وفي مدة مرضي مرض الملك المظفر وعادني وهو قد ابتدأ به المرض، ثم بعد بضع عشر يوماً توفي».

وكان لوفاة الملك المظفر المفاجئة هـذه نتائج كبيرة على مستقبل مملكة حماه الايوبية بعده ، ذلك انه كان شاباً لم يبلغ الثانية والاربعين من عمره ، ويبدو انه لم يكن له ولد يستطيع وراثته ، وكانت السلطنة المملوكية تعاني من عدد من ازمات الصراع على السلطة بين عدد من الامراء . وكان هناك حاجة الى بعض الشواغر الوظيفية العالية لتملأ ببعض قادة المماليك ترضية واسكاتاً ، وكانت وفاة الملك المظفر وشغور عرش حماه فرصة اغتنمتها السلطنة ، وقد ساعد السلطنة ومكنها من النجاح هو ان افراد البيت الأيوبي لم يتفقوا على ترشيح واحد منهم كي يملأ عرش حماة .

وقامت السلطنة بتعيين نائب لها يحكم مملكة حماه، وبعد مدة ابدلته بآخر ،واستمرت تفعل هذا قرابة اثنتي عشرة سنة ، ولقد امضى ابو الفداء هذه المدة كلها في حماه ولم يترك حماه الا حينما كان يذهب في مهمة من المهام ، او حين كان يمضي لزيارات قصيرة لدمشق ، وحينما ذهب في سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م الى الاراضي المقدسة لتأدية فريضة الحج ، ومما هو جدير بالملاحظة انه عرج في طريق عودته من حجه على فلسطين فزار القدس والخليل .

صار ابو الفداء في هذه الفترة ابرز شخصيات حماة ، واخذ يسعى لاستلام مقاليد

الامور فيها ، واحياء حكم اسرته المندثر ، وقد اتصل بالسلطنة اكثر من مرة ، فوعد خيراً ، وفي سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٨ م اضطر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الى ترك القاهرة والقدوم الى الكرك حيث أخذ يعد العدة لاستعادة عرشه ، وفي سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩ م جاء الناصر الى مدينة دمشق فالتحق به ابو الفداء . وسافر في ركبه مسانداً الى القاهرة ، وبعد ما استعاد الناصر عرشه ، كاد أبو الفداء أن يستعيد مملكة آبائه لولا تدخل احد المماليك الكبار واسمه أسندمر الذي طالب بنيابة حماه لنفسه ، وسبب هذا وقوع النزاع بينه وبين أبي الفداء لذلك استقر الاخير في مدينة دمشق ولم يذهب الى حماه .

وفي السنة التالية ٧١٠ هـ/١٣١٠ م سافر الأمير عيسى بن مهنا ، امير عرب الشام وقبائلها الى القاهرة، وهناك اجتمع بالسلطان الناصر وطلب منه تعيين ابي الفداء لحكم حماه فاستجاب السلطان .

الملك

في الثامن عشر من جمادى الأولى لسنة ٧١٠ هـ/ ١٣ تشرين اول ١٣١٠ جاء الى أبي الفداء مرسوم سلطاني بتعيينه نائباً للسلطنة ليقوم بحكم مملكة حماه ، وبعدمضي اكثر من شهر وبعد زوال بعض العقبات، دخل أبو الفداء مدينة حماه وتسلم زمام الامور فيها بلقب الملك الصالح عماد الدين ، وبعد ان استقر قليلاً في منصبه الجديد جهز نفسه وتوجه نحو القاهرة حيث قابل السلطان وقدم بعض الهدايا ، وقد لاقى في القاهرة ترحيباً واستقبالا حسناً،واهتم أبو الفداء بتمتين علاقاته بالسلطان المملوكي فقام بزيارته مرة ثانية سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م وعاد بعد أن مكث قليلاً الى مقر حكمه وهو يحمل رتبة جديدة ولقباً جديداً أيضاً ، فقد فوض اليه السلطان حكم حماه ملكاً لانيابة ولقبه بالملك المؤيد « وحكمه في حماه يفعل فيها مايختار من اقطاع وولاية من غير مراجعة ، وأذن له أن يخطب له بحماه واعمالها على ما كان عليه الملك المنصور » .

ليس في حياة ابي الفداء وحكمه لمملكة حماه ما يثير الانتباه من حوادث هامة ، حيث ان المملكة كانت امورها مستقرة ، وقد تمتع أبو الفداء بحب أهل حماه ، وكان هو حاكماً هادئاً يتسم بالعدل ويبدو انه لم يتسم بالشره وحب المال والمظهر ، فقد كان رجل ثقافة وعلم اكثر منه رجل احتراف للسياسة والحكم ، واستطاع ابو الفداء أن يقيم علاقة طيبة ومايدة مع السلطنة في القاهرة ، وكان يحظى باحترام السلطان ومحبته ، وقد زار

أبو الفداء القاهرة أكثر من مرة قابل خلالها السلطان وقدم له الهدايا ، هذا ونحن لانملك معلومات اكيدة تتعلق بدفع اية ضرائب حولية للسلطنة ، وقد قام أبو الفداء أثناءفترة حكمه بتأدية فريضة الحج مرتين ، قام بالمرة الأخيرة سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م بها برفقة السلطان ، وبعد الانتهاء من الحج عاد مع السلطان الى القاهرة وهناك قام الاخير بمنح أبي الفداء رتبة جديدة هي رتبة السلطنة . ويخبرنا المقريزي عن ذلك بقوله : «وتوجه مع السلطان للحج ، فلما عاد عظم في عين السلطان لما رآه من آدابه وفضائله وعلومه ، واركبه في يوم الخميس سابع عشر من المحرم سنة عشرين وسبعمائة بشعار السلطنة » .

وبعد ما نال أبو الفداء المرتبة الجديدة صار يخاطب في المراسلات الرسميةمخاطبة خاصة من قبل السلطان المملوكي ومن قبل نواب السلطنة في بلاد الشام ، وزار أبو الفداء مصر بعد تسلطنه ثلاثة مرات كانت آخرها سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م ، وفي السنة التالية ٧٢٨ هـ /١٣٢٨ م فقد والدته ، وبعد ذلك بأربع سنوات توفي ابو الفداء في حماه سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، وذلك بعد مرض ألم به ، وقد دفن بعد وفاته في مسجد كان شيده سنة ٧٢٧ هـ ، وهذا المسجد ما زال قائماً في حماه ، ويعرف باسم مسجد الحيات .

المؤرخ

عرفت بلاد الشام نهضة علمية وثقافية رائعة ، وتوضحت هذه النهضة منذ القرن العاشر وتمثلت هذه النهضة في اعمال عدد من اعلام الفكر من شعراء وادباء ورجال لغة ، وفقهاء وفلاسفة ، كما تمثلت بكتابات عدد من المؤرخين . وكانت معرة النعمان من أبرز مراكز النشاط الفكري في بلاد الشام ، وفي المعرة ظهر عدد كبير من المؤرخين من أشهرهم : أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب ، وابن زريق يحيى بن علي التنوخي ، وكان ابن المهذب من تلامذة ابي العلاء ، كما توفي ابن زريق في العشرسنين الأولى للقرن الثاني عشر للميلاد .

وقد كتب ابن المهذب تاريخاً للاسلام وقف معظمه لأخبار بلاد الشام ، كما كتب ابن زريق تاريخاً وقف معظمه لأخبار سلاجقة بلاد الشام والحملة الصليبية الاولى .

وقد أحاط بمعرة النعمان عدد من المراكز الثقافية ، لعل من أشهرها بلدة كفر طاب ، وقد عاش في هذه البلدة وحكمها الاسرة المنقذية ، وفي اواخر القرن الحادي

عشر للميلاد ملكت هذه الاسرة حصن شيزر ، وقد ظهر بين أفراد هذه الاسرة عدد من الامراء العلماء،وقامت في شيزر حركة ثقافية رائعة تأثرت بمعرة النعمان وحلب وغيرهما، ومن اشهر امراء الاسرة المنقذية الذين كتبوا في التاريخ ، الاخوة الثلاثة ، اسامة بن مرشد ، وعلي بن مرشد ، ومنقذ بن مرشد . وقد كتب منقذ تاريخاً جعله ذيلا لتاريخ ابن المهذب ، كما كتب علي بن مرشد كتاباً في التاريخ عرف به : أما اسامة الذي كان أوسع اخوانه شهرة ، فقد كان أيضاً اكثرهم انتاجاً في ميدان التاريخ والأدب .

وبعد مادخل الصليبيون بلاد الشام لأول مره ، استولوا – فيما استولوا عليه – على معرة النعمان وهدموها ، وشردوا اهلها ، وقتلوا معظمهم ، كما استولوا على كفر طاب وجعلوها تعاني نفس مصير معرة النعمان، ودفع هذا اعداداً كبيرة من اهالي البلدتين الى الهجرة الى مدينة حماة والاستقرار فيها ، وقبيل قيام الامبراطورية الايوبية بسنوات قليلة تهدمت شيزر بفعل زلزال عنيف ، وسبب هذا ذهاب عدد من سكانها الى حماه .

وهكذا تجمع في حماه عدد من العلماء والكتاب كما تجمع بها بعض المكتبات الغنية ، وعندما قامت الدولة الايوبية في حماه ، كانت هناك بوادر للنهضة العلمية فيها ، وقد احتضن ملوك حماة هذه النهضة وساعدوا على دفعها نحو الامام .

وظهر في حماه زمن الدولة الايوبية عدد كبير من العلماء كتبوا في فنون مختلفة، كان من بينهم جملة من المؤرخين منهم ابن ابي الدم ابراهيم بن عبد الله ، ابي واصل الحموي محمد بن سالم ، ومحمد الحموي ، وكتب ابن ابي الدم تاريخاً للاسلام يعرف عادة باسم التاريخ المظفري(وقد وقفت على عدد من النسخ الخطية له ، كما وقفت على ترجمة فارسية له) وكتب ابن واصل كتاب « مفروج الكروب في اخبار بني ايوب» ، وقد شرع في طباعة هذا الكتاب منذ سنين مديدة في القاهرة ، كما كتب محمد الحموي تاريخاً عرف بالتاريخ المنصوري ، وقد نشر هذا الكتاب بالتصوير في الاتحاد السوفياتي .

لقد تأثر افراد من البيت الأيوبي الحاكم في حماه بالحركة الثقافيه في مدينتهم ، كما تجمع لديهم مكتبات كبيرة ، ولاشك ان ابا الفداء كان امراء البيت الايوبي ثقافة ومعرفة، وكانت ثقافته ثقافة موسوعية شملت فنوناً عديدة مثل الطب ، وعلم الهيئة والفقه ، والأدب ، والجغرافيا والتاريخ ، وقد كتب ابو الفداء وصنف في معظم الفنون نثراً وشعراً .

ولعل اهم ما انتجه ابو الفداء كان في ميدان الجغرافيا والتاريخ ، واسم كتابه في الجغرافيا : تقويم البلدان ، وقد لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة منذ فترات مبكرة في اوربه ، وعلى الاخص في فرنسا وروسيا .

ويروى بأنه كتب في التاريخ كتاباً في تاريخ حماه،نحن لانملك عنه أية معلومات في الوقت الحاضر ، وكتاباً دعاه باسم « المختصر في اخبار البشر » وقد وصلنا هذا الكتاب وطبع اكثر من مرة وفي اكثر من مكان ، انما طبعات غير علمية صحفت نصه الى حد التشويه ، مما يجعل الحاجة ماسة لتحقيق الكتاب من جديد ونشره بشكل علمي دقيق .

ولقد اوضح ابو الفداء في مقدمة كتابه دوافعه الى تأليفه وغاياته منه ، كما اثبت اسماء اهم المصادر التي عاد اليها بالتأليف . وجاء ذلك بقوله : انه سنح لي ان اورد في كتابي هذا شيئاً من التواريخ القديمة والاسلامية ، يكون تذكرة يغنيني عن مراجعة الكتب المطولة . ثم ذكر اسماء مصادره ، ومعظم هذه المصادر قد وصلتنا ، ومن اهمها كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير الجزري ، وقد اعتمد ابو الفداء على هذا الكتاب اعتماداً شبه كامل ، ونحا نحوه في ترتيب رواية الحوادث ترتيباً حولياً .

وقد توقف ابن الاثير في كتابه عند حوادث سنة ٦٢٨ هـ ، وكما كان ابن الاثير قد صنع عند تأليف كتابه الكامل في التاريخ ، حيث اخذ كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري فاختصر ماجاء به من اخبار ، ثم اخذ يكمل رواية احداث تاريخ الاسلام حتى ايامه ، كذلك فعل ابو الفداء ، حيث اختصر مادة ابن الاثير ، ثم اكمل رواية حوادث تاريخ الاسلام حتى سنه ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م . وكما حدث مع ابن الاثير حين دون حوادث مابعد الطبري ، حيث اهتم بشكل رئيسي باخبار موطنه في منطقة الجزيرة والموصل ، كذلك فعل ابو الفداء حيث نجده يولي اخبار بلاد الشام وخاصة مملكة حماه عناية خاصة .

هذا وكما كان الحال بالنسبة لابن الاثير حين اكتشفت مصادره الاولى ، خاصة كتاب الطبري منها ، لم ينقص ذلك من قيمة كتابه ولا من قيمة المادة التي اختارها من كتاب الطبري لأن لذوق الاختيار اهمية خاصة،كما ان طريقة الاختيار ذات فائدة كبيرة في التعرف الى ابن الاثير المؤرخ وما تمتع به من حس تاريخي ونقدي ، هذا الشيء ذاته ينطبق على عمل أبي الفداء .

ويبدو لنا أبو الفداء من ثنايا كتابه ، مصنفاً عادياً ، غلبت عليه صفة الجمع والتدوين الامين ، ليس له فلسفة خاصة ، أو نظرة خاصة نحو حوادث التاريخ العام ، والتاريخ الاسلامي بشكل خاص ، كل ذلك على الرغم من انه كان رجل سياسة وحكم ، وصاحب خبرة عسكرية، وله ثقافة واسعة ، ثم ان العصر الذي عاش فيه كان عصر فلسفة عربية للتاريخ ونظرة مقومة .

ان هذا لاينفي حقيقة هامة هي ان كتاب أبي الفداء مصدر أساسي من مصادر التاريخ الاسلامي ، خاصة فيما يختص بالعصر الايوبي والمملوكي ، ويحتاج هذا الكتاب الى تحقيق علمي حديث ونشر يليق ومكانته ومكانة مؤلفه .

المعرفة

العـدد ١٥٥ كانون الثاني ١٩٧٥



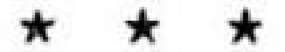
مقدمة

عندما يقوم الانسان بالقاء نظرة خاصة على مصور جغرافي معاصر للوطن العربي يجد أن هذا المصور يحوي رقعة واحدة شاسعة من الأرض المتجانسة كليا من حيث البنية والسكان ، ولكن رغم تجانسها هذا فهي مقسمة الى أقسام عديدة متفاوتة الحجوم ، مختلفة الأسماء ، وفي قلب هذه الأقسام يقوم جسم غريب يدعونه اسرائيل . ولا بد للمرء مع هذا المنظر الشاذ أن يتساءل : كيف زرع هذا الجسم الغريب ، ومن قبل من، ثم كيف تمكن أن يعيش ، ولم حالة التجزئة هذه ، ومتى قامت ، وأخيراً ماهي أسباب استمرارها اللاطبيعي ؟

وفي البحث عن أجوبة لمجموع هذه الأسئلة نجد كتب تاريخ العرب الحديث مع تاريخ أوربة ، تروي لنا أخبار ما ألم بالعرب فأدى الى انحطاطهم وتفرقهم ، ثم كيف نجم عن التمزق استبداد الغير بهم، وملكه لناصيتهم ، وتستطرد هذه الكتب فتروي كيف آل الأمر بالعرب الى درجة امتلك زمامهم بها الأمم الاوربية المستعمرة ، ولقد صنع الاستعمار حالة التجزئة هذه ، وزرع اسرائيل في فلسطين قلب الوطن العربي ، ونماها وما زال يرعاها بعنايته ، ويكلؤها بقوته واقتصاده وسلاحه .

وأمام هذه الحال لابد للعاقل من أن يتساءل : هل هذه محنة تحدث للمرة الاولى في تاريخ العرب المديد ، أم وقع مايشبهها؟ ويأتي الجواب معلناً : لقد واجه العرب منذ قرابة التسعة قرون حالة مشابهة ، وكان ذلك في فلسطين بالذات ، وحالة اليوم ماهي — في كثير من الأوجه — إلا استمرار لحالة الماضي ، لكن ليست تكراراً لها ، فالتاريخ لايكرر نفسه ، ولكن التاريخ غالباً ماكان للعقلاء معلماً وهادياً ، إذ وجدوا في وقائعه المرشد الواعظ ، والقائد المجنب للسقطات .

ويدعو المؤرخون حالة الماضي ومحنته باسم « الحروب الصليبية » وسأسعى فيما يلي الى القيام بعرض موجز للأسباب التي أدت الى قيام « اسرائيل » في العصر الحديث، مع شرح لأحوال العرب وأحوال أوربة ثم سأقوم بمحاولة للتعرف بشكل أوسع الى الأسباب التي أدت الى قيام الحروب الصليبية والعوامل التي ساعدت الصليبيين على النجاح ، وسأقوم أحوال العرب قبيل الحروب الصليبية وعند قيامها ، وسأتحدث عن مراحل هذه الحروب كما أتصورها لا كما اعتاد الناس منذ أمد أن يروها ، وهنا سأجهد في سبيل تبيان الطرق التي أخذ بها الشعب العربي في السابق حتى تخلص من الصليبيين، لعل ذلك يفيد العرب المعاصرين ، فيتتبعون خطى أجدادهم ، ويستلهمون حلولهم ، فيتجنبوا مايعانونه الآن .



العرب وأوربة

لقد سبق الشرق الغرب في ابداع الحضارة ، وحاول الشرقيون القدماء نقل ثقافتهم، وحضارتهم الى أوربة وغيرها من بقاع الأرض ، وبعدما فعلوا هذا بزمن قامت أوربة

وشعوبها بمحاولة رد جميل الشرق بغزوه واحتلاله ، ومن يفحص أخبار العالم القديم يلاحظ وجود صراع دائم بين الغرب والشرق ، ولقد كان الشرق خلال هذا الصراع دائماً هو الرابح في النهاية ، وفي معظم مراحل هذا الصراع قاد العرب الشرق ومثلوا شعوبه ، وفي العصور الوسطى وفي القرن السابع بالذات ، توحدت قوى العرب تحت لواء عقيدة الاسلام الجديدة ، فتجدد الصراع بين أوربة والشرق ، ومنذ القرن السابع وحتى هذه اللحظة والصراع لم يتوقف وعندما انطلق العرب في القرن السابع نحو أوربة منعهم عن السيطرة على هذه البلاد وتحرير شعوبها من الظلم الاجتماعي والتخلف العقائدي والحضاري موانع ثلاثة تمثلت بالامبراطورية البيزنطية ، وفرنجة أوربة الغربية ، ودولة الخزر ، ولن أسهب بالحديث عما حدث على جبهة بيزنطة وجبهة أوربة الغربية ، بل سأدع ذلك الى وقت آخر ، إنما سأوقف بعضاً من كلامي للحديث عن جبهة الخزر ، لجهل معظم الناس بها ، ثم لعلاقتها بمشكلة فلسطين في العصر الحديث .

دولة الخزر اليهودية وعلاقاتها بالعرب وأوربة

فيما بين شمالي بحر الخزر وأداني منطقة الفولغا ، سكن شعب تركي الاصل دعي بشعب الخزر ، ولقد اصطدم العرب اثناء فتوحاتهم الكبرى بهذا الشعب ، وكانت جبهة الخزر من اصعب جبهات القتال العربية وأقساها . وحال وجود الخزر بين العرب وبين التوغل الى اوربة الشرقية ومنها الى اوربة الغربية ، وكان لحكام الخزر صلات مع كل من العرب والبيزنطيين ، وغالباً ماكانت علاقات الخزر بالعرب والروم الشرقيين حربية وقام العرب وكذلك البيزنطيون بمحاولات كثيرة ـ كل على حدة ـ لتحويل الخزر الى الاسلام أو النصرانية ، واخفقت هذه المحاولات ، وقام امراء الخزر في القرن الثامن بالتحول الى اليهودية ، وهكذا اصبحت دولة الخزر دولة يهودية ، وقد بقيت هذه الدولة قائمة حتى القرن الثالث عشر حيث قضى عليها الروس ، وإثر القضاء عليها تشتت يهود الخزر في انحاء اوربة ، فكانوا الاصل الذي انحدر منه الغالبية العظمى ليهود اوربة . فقد كان في اوربة قبل انهيار دولة الخزر عدد ضئيل من اليهود يعيشون في أحياء خاصة، منعزلين يتزاوجون داخلياً ، فيقل عددهم يوماً بعد يوم ، وعندما توزع يهود الخزر اختلطوا بهم ، فكانوا عدداً رديفاً ودماً جديداً .

النهضة الأوربية والمشكلة اليهودية

وفي العصر الذي انتهت فيه دولة الخزر كانت اوربة تعيش بدايات نهضة جديدة ، كانت أولى معالم هذه النهضة محاولات التحرر من سلطان الكنيسة، ثم اقامة اصلاح اجتماعي واقتصادي ، وتطورت النهضة في أوربة فتجدد معها التطلع نحو اقامة امبراطوريات كبرى ، وهكذا أخذت أمم أوربة تسعى نحو استعمار غيرها من الامم والشعوب ، وقد وجهت كبير طاقاتها ضد العرب ، ارضاً وشعباً وحضارة .

ومع تطور الحياة في اوربة وجدت أفكار جديدة ، كان من أهمها تلك التي نادت بالقوميات ، ثم تلك التي طالبت بالاصلاح الاجتماعي والاقتصادي ، وتصارعت قوميات اوربة مع بعضها البعض ، وسعى كل شعب من شعوب اوربة نحو توحيد نفسه وازالة الفوارق بين أفراده ، ولقد اصطدم الاوربيون اثناء سعيهم هذا بمجموعات اليهود التي كانت تعيش منغلقة على نفسها لا تعرف الولاء الا لمصالحها، متعالية على سواها ، متحكمة بأمور المال والاقتصاد وهنا أخذ الاوربيون في اضطهاد اليهود ، ووجدت في اوربة مشكلة تحتاج الى حل ودعيت باسم المشكلة اليهودية . وتأثر يهود اوروبة بالحركات القومية ، وباتوا يتطلعون نحو حل لمشكلتهم ، وأخذ بعض ساسة اوربة يبحثون عن حل ، وكانوا يريدونه أن يخلصهم من اليهود ومن شرورهم في داخل اوربة ، وأن يجعلهم دائماً قادرين على استخدام اليهود لخدمة مصالح اوربة الاقتصادية ، والحضارية ، والصناعية وغيرها .

ونظر ساسة اوربة حولهم فوجدوا أن افضل حل هو الذي يتم على حساب العرب أمة وحضارة وأرضاً ، فشجعوا اليهود ، لا بل دفعوهم نحو فلسطين ، وهنا لا أجد ضرورة كبرى لسرد بقية الرواية ، فكلنا يعيش الآن فصولها ووقائعها ، ويكفي هنا أن نتذكر الحقائق التالية :

أوجدت أوربة اسرائيل ، لحل مشكلة اوربية داخلية ، ولتمكين مجتمع الغرب من السيطرة الدائمة على الشعب العربي ، فكراً ، وارضا وموارد .

كان الوطن العربي عندما اخذت اوربة في زرع اسرائيل فيه ، تحت الحكم التركي وكان ممزقاً ، يعاني من التخلف الفكري ، والانحطاط الحضاري ، والضعف الاقتصادي والظلم والاستغلال الاجتماعي . وهذه الاحوال هي التي مكنت من نجاح عملية الزرع هذه ، واستمرارها هو الضمانة الاكيدة لاستمرار عيش الجسم الغريب المزروع .

احوال العرب في القرن الحادي عشر

سأترك الآن العصر الحاضر وسأعود نحو العصور الوسطى ، لأجد اوربة في القرن العاشر ثم الحادي عشر تعيش عدداً من المشاكل تمثلت في الصراع بين الكنيسة والامبراطورية ، وفي مشاكل الاقطاع ، واحتاجت هذه المشاكل الى حل ، فأبدع الحل في توجيه شعب اوربة للتحرك نحو المشرق العربي تحت شعار ديني ، ودثار عقائدي ، وشجع هذا التحرك واستغله احسن استغلال دويلات اوربة التجارية ، فقد ارادت هذه الدويلات ان تملك اسواق المشرق العربي اتباعاً ، استهلاكاً .

وتحركت مئات الالوف من الاوربيين ، لا بل قرابة المليون نحو بلاد الشام ، فوصلت مشارفها في اواخر القرن الحادي عشر ، ولقد استطاع هؤلاء ان يسيطروا على اجزاء كبيرة من بلاد الشام كان جلها في فلسطين ، وبقي هؤلاء القوم يحتلون هذه الاجزاء فترة طويلة من الزمن ، ولم تتوقف الهجرة من اوربة والحملات منها الى بلاد الشام الا عندما استطاع العرب جمع شملهم وصيانة منافذ بلادهم براً وبحراً .

ولقد كانت احوال المشرق العربي ومغربه هي المسؤولة عن نجاح الاوربيين في اجزاء من بلاد الشام وفي استمرار هذا الاحتلال فترة طويلة من الزمن ، لذلك على الباحث في تاريخ الحروب الصليبية ان ينطلق في دراسته من الوطن العربي ، ذلك ان جموع الصليبيين التي وصلت مشارف الشام في اواخر القرن الحادي عشر لم تكن اول قوات من نوعها تطرق حدود الشام وتحاول احتلال اراضيه ، فكثير من قادة الصليبيين الاوائل كانوا يعرفون بلاد الشام لأنهم خدموا كمرتزقة في الجيوش البيزنطية ، وعلى هذا عرفوا العرب وطرائق القتال لديهم ، ولعل ما ورد في خطبة البابا اوربان الثاني – الذي بشر بالحروب الصليبية – من نصائح قتالية لهو برهان كاف للتدليل على صحة هذا ، يضاف اليه ما يجده المرء في شعر شعراء العرب في القرن العاشر والحادي عشر – مثل المتنبي – وما يورده المؤرخون العرب في كتبهم عن الحروب مع بيزنطة ، ولا حاجة للتذكير بأن الفرنجي الذي لم يسبق له القتال ضد مشارقة العرب ، ربما قد نال حظه في القتال ضد المغاربة .

في القرن الذي سبق مجيء الصليبيين كان الوطن العربي ممزقاً ، ويعيش في حالة من الفوضى السياسية والعقائدية لا نظير لها ، فقد كان هناك ثلاث خلافات (جمع خلافة) .

واحدة في بغداد ، وثانية في القاهرة ، وثالثة في قرطبة ، وكانت هذه الخلافات في صراع دائم ونزاع دموي مستمر ، كما كانت في حالة مزرية من الضعف ، فالخلفاء محكوم عليهم يتحكم فيهم جند نسوا كيف يقاتلون الدفاع عن شعوب دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي لكنهم عرفوا فقط كيف يقاتلون من اجل الفتن والاستغلال ، وسدة الحكم والسلطة .

هجرة التركمان الى الوطن العربي

وفي القرن الحادي عشر ، تعرض القسم الشرقي من الوطن العربي الى هجرة بشرية جديدة ، جلبت الغز التركمان من منطقة ما وراء النهر ، وشهد نتيجة لهذه الهجرة قيام الامبراطورية السلجوقية (ولقد عانت البلاد التي هاجر اليها الغز ـ خاصة بلاد الشام وبلاد الرافدين ـ دماراً مريعا ، اضعف قواها ، وانضب مواردها ، كما ان الامبراطورية السلجوقية لم تعمر طويلا ، وكان السبب الرئيسي في انهيارها طبيعة الغز ، الذين كانوا في الاصل عبارة عن عشائر بدوية ، يكره افرادها التوحيد ويمجونه ، ويألفون الفرقة ويحبونها ، ولا يرتضون مناهج الحكومات المركزية ، ويأنفون من حياة الاستقرار .

أحوال مصر وبلاد الشام في القرن الحادي عشر

ولن احاول التبسيط في الحديث عن الغز وهجرتهم الى بلدان الوطن العربي ، بل سأقتصر على الحديث بشكل موجز مما فعلوه في بلاد الشام والجزيرة ، وسأولي فلسطين بعض العناية اكثر من سواها من مناطق بلاد الشام ، لأن فلسطين كانت هدف الصليبيين الاول ، علماً بأن الصليبيين احتلوا اجزاء من فلسطين ومن بقية مناطق الشام والجزيرة ، وان طردهم من فلسطين قد حدث قبل ان يطردوا نهائيا من بلاد الشام ، واخذي بالايجاز يفرضه علي طبيعة البحث الذي انا بصدده الآن ثم انني قد سبق لي الحديث عن هذه المسائل بشكل مفصل في كتابي « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » .

منذ أن قامت في مصر دولة اسلامية مستقلة، بدءاً بدولة أحمد بن طولون ، سعت الدولة والدول التي جاءت بعدها الى السيطرة على بلاد الشام، ولقد نجحت هذه في السيطرة على الشمال ، وكان ذلك لأسباب كثيرة منها : بعد شمال بلاد الشام عن مصر ، ووجود الامبراطورية البيزنطية التي رغبت دائماً بوجود دولة اسلامية ضعيفة مستقلة أو شبه مستقلة في حلب لتقف حاجزاً بينها وبين دولة مصر القوية ، وكان وجود قبائل عربية قوية في شمالي الشام من الأسباب التي منعت مصر من السيطرة عليه .

ولقد كانت قبيلة كلاب هي أكبر قبائل الشمال ، وقامت هذه القبيلة في الربع الاول من القرن الحادي عشر بالتحالف مع قبيلة كلب اعظم قبائل منطقة دمشق آنذاك ومع قبيلة طيء أعظم قبائل فلسطين ، وجهدت هذه القبائل الثلاث في العمل على تحرير بلاد الشام من حكم الخلافة الفاطمية ، وإقامة ثلاث دول عربية متحالفة في حلب ودمشق والرملة ، فحققت في البداية بعض النجاح لكنها أخفقت اخيراً ، واستعادت الخلافة الفاطمية جنوب بلاد الشام ، لكن الامور لم تستقر في الشام للدولة الفاطمية ، لأسباب عقائدية وإدارية وضرائبية ، وكان يوجد في مدن بلاد الشام تنظيات شعبية تدعى باسم « الأحداث » وكان الأحداث يشكلون نوعاً من « الميليشيا » الشعبية البلدية ، وكانوا يقومون بوظيفة حفظ النظام والصحة والنظافة والأمن داخل المدن ، وكانوا يدافعون عن مدنهم ضد المخاطر الخارجية (من أجل التوسع في معرفة الاحداث يرجى الرجوع الى كتابي : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية و The Enirate Aleppo 1004 — 1014 —)

ولم يمكن الأحداث الدولة الفاطمية من تثبيت أقدامها في الشام ، وبسبب الأحداث ثم بسبب ضعف الدولة الفاطمية في القرن الحادي عشر ، فقد كانت صورة الحالة السياسية في الشام في النصف الثاني للقرن الحادي عشر كما يلي :

١ — دولة مستقلة في حلب تدعى الدولة المرداسية ، كانت تحكم معظم شمالي بلاد الشام .

٢ — في طرابلس دولة شبه مستقلة تحكم من قبل أسرة آل عمار .

٣ — دولة شبه مستقلة في صور تحكم من قبل اسرة آل عقيل .

٤ — دولة مستقلة في شيزر وكفر طاب تدعى باسم الامارة المنقذية .

٥ — عدد من الاقطاعات والادارات شبه المستقلة في مناطق الساحل في جبلة ومنطقتها الجبلية .

٦ — كانت دمشق وفلسطين تحت الحكم الفاطمي .

وكان شعب بلاد الشام في هذا القرن يدين غالبيتهم بالاسلام انما على مذهب الاثنا عشرية من الشيعة ، وكان هناك مجموعات من النصارى ، كثيرمنهم في الشمال ، وكان غالبية هؤلاء من اصل ارمني ، وكان هناك قلة من اليهود ، ولقد كانت الحريات الدينية مصانة وكذلك الحريات الفكرية ، وكان هناك ازدهار ورفاه وتقدم ثقافي وحضاري .

التركمان وبلاد الشام

لكن في سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م دخل الى حلب مجموعة من التركمان ، وذلك بزعامة رجل عرف باسم هرون بن خان ، وكان سبب دخولها الصراع بين افراد الاسرة المرداسية على السلطة ، وفي سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م حوصرت حلب من قبل السلطان السلجوقي ألب ارسلان ، وأخفق هذا السلطان في احتلالها ، لكن في طريق عودته شرقا اصطدم مع قوات الدولة البيزنطية في معركة مناز كرد ، فحطمها ، واخذ الغز والتركمان بعد هذا النصر ينساحون في اراضي بلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى دون ان يلاقوا عوائق تذكر . واستطاع التركمان في مدى ربع قرن تدمير بلاد الشام تدميراً مريعاً ، لم تعرف البلاد له نظيراً من قبل أو من بعد خلال حقب تاريخها الطويل ، وعندما شارف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف لانظير لها ، وكانت هذه البلاد مثل رقعة للشطرنج ، فيها مربعات كثيرة ، على كل واحد منها دمية تتصارع مع الدمى الأخرى دونما ناظم أو اعتبار ، وكانت جميع الدمى تركية غريبة عن البلد حضارة ولغة ومعتقداً ، وكانت تسعى في سبيل السلطة والمال فقط دونما رادع أو اعتبار ، واستطاعت أثناء سعيها تحطيم قوة قبائل العرب في البلاد مع قوة أهل المدن ومنظمات الاحداث .

دخول الفرنجة الى بلاد الشام

وفي ذروة الدمار والعنف والعذاب وصلت الى انطاكية في مشارف الشام حشود من فرنجة اوربة الغربية ، كانت تهدف أول ماتهدف الوصول الى القدس ، ثم القضاء على العرب حضارة وجنساً وعقيدة ، ودخلت هذه الجموع الشام وعاثت في دياره واستولت على كثير من مدنه وبلدانه ، وقتلت واحرقت وهدمت دون أن تلقى مقاومة تذكر ، واستقرت هذه الحشود في بلدان الشام دون أن يزعجها أحد أو يقلق راحتها ، ذلك أن الحكام الترك الذين لم تسقط مدنهم لم يتوقفوا عن الصراع بين انفسهم ، ونادراً ما اكترثوا أو اهتموا بنشاط الفرنجة .

وعندما دخل الفرنجة بلاد الشام كانت أبرز دول الشام دولتان ، واحدة في حلب والاخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، ولقد وقف هذان الحاكمان نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واغتنم هذه الفرصة الفرنجة ،

فوسعوا املاكهم وجردوا حلباً من جميع أراضيها الشمالية والغربية ولم يبق لها إلا بعض أراضيها الجنوبية والشرقية .

ثورات الشعب العربي في الشام
في سبيل اقامة حكم وطني يوحد ويحرر

ثورة شعب حلب الاولى

وضاق الامر بأهل الشام ، فتحركوا ، وارادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب ، وإقامة حكم وطني وشعبي يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، ولقد اندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب ، حيث قام مقدم أحداث حلب ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تتش حاكم المدينة التركماني ، وكان هذا الثائر يعرف باسم المجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحاً من قرية الفوعة القريبة من حلب ، وكان شهماً ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك من تولي رئاسة مدينة حلب ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تتش في القلعة ، وكاد أن يسقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة . فخذلوا الناس عن المجن وثبطوهم عن نصرته ، فحدث انشقاق بين أفراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبياً دينياً ، وأدى هذا إلى اخفاق الثورة والقاء القبض على المجن الفوعي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك ـ كما روى شاهد عيان ـ : « عذبه عذاباً شديداً بانواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ، وضرب فيها الرزز والحلق .

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال : ويلك لاتعرف ، أحضر خشبة وضعها على الكعب ، فاحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له : كيف تجد طعم الحديد؟ فقال : قولوا للحديد : كيف يجد

طمعي ، ولم يقرر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلا ماقربه غلام أو جارية وذلك شيء يسير .. ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر اليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك » .

ثورة شعب حلب الثانية وبداية اعمال التحرير

وأدت هذه الانعكاسة الى رضوخ الشعب في حلب وسكوته على مضض حتى عام ٥٠٤ ﻫ / ١١١٠ م فاندلعت الثورة ثانية في المدينة ، وأدرك الثوار أنهم لن يستطيعوا اسقاط رضوان . لذلك شكلوا وفداً من بينهم غادر المدينة سراً وذهب الى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفد عنايتها ، ولم تصغ الى مطاليبهم ، وأمام هذا التجاهل حرك الوفد أهالي بغداد واستغاثوا بهم أيام الجمع ، كما منعوا الخطباء من القاء خطبهم يوم الجمع وكسروا بعض المنابر ، وهاج الناس في بغداد فأخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاه بتجهيز جيش كبير جعل قيادته لمودود حاكم الموصل وتحركت هذه القوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت حلباً أغلق رضوان بن تتش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب حلب وأودعهم كرهائن عنده في القلعة لئلا يفتح الشعب الأبواب ،ويسلموها للقوات القادمة من المشرق ، « وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال لايجدون مايقتاتونه ، وكثر اللصوص وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فأطلق العوام ألسنتهم بسبه وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد ، وترك الركوب بينهم ، وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر – أي عساكر مودود وأصحابه ـ فيأخذونه » .

واضطر هذا الحال مودوداً وأصحابه الى الرحيل جنوباً ، وأثناء تحركهم اصطدموا قرب شيزر بقوة صليبية فانتصروا عليها ، وعندما وصل مودود الى دمشق قام تحالف بينه وبين حاكم دمشق ، ودخل مودود المدينة ، وبينما كان يعد للتحرك ضد فرنجة فلسطين اغتيل في مسجد جامع دمشق ، فأدى اغتياله الى اخفاق مهمته التي جاء من أجلها ، وتبعثر قواته .

ولقد مات رضوان حاكم حلب في نفس السنة التي اغتيل بها مودود ، وكان ذلك

سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م وساءت الأحوال بعد هذه الفترة ، وحلت الفوضى في بلاد الشام ، ولم يوقف ذلك الشعب عن التحرك خاصة في مدينة حلب ، حيث استطاع الحلبيون السيطرة على مقاليد أمور دولتهم ، وجدوا أصحاب السلطة الرسمية عن التحرك ومباشرة الأعمال ، وقبل أن نستطرد في الحديث عما عمله أهالي حلب في سبيل التحرير ، انه لمن الضروري أن نتحدث عن دخول الفرنجة الى الشام واقامة دولهم فيه .

احوال الفرنجة ودولهم في الشام :

في عام ١٠٩٨م وصلت جموع الفرنجة الى مشارف الشام ، وكانت مدينة أنطاكية أول ما اصطدموا به ، وبعد صراع طويل سقطت أنطاكية اليهم في ٢٨ تموز ١٠٩٨م وبعدما أخذوا أنطاكية أخذوا يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوباً ، وكان قبل أن تسقط أنطاكية ، وحتى قبل ان يصل الفرنجة اليها ان انفصلت فئة منهم بقيادة احد زعمائهم واسمه بلدوين ، وتوجهت هذه الفئة من مرعش الى المشرق ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور السورية — البيزنطية ، ووصلت هذه الفئة اخيراً الى الرها ، فاحتلتها واتخذت منها قاعدة لاحدى امارات الصليبيين في المشرق .

وزحفت معظم جموع الفرنجة من أنطاكيـة جنوباً ، وذلك بعد ان جعلوا من انطاكية مركزاً لامارة صليبية ثانية في المشرق ، وبعد رحلة حافلة ببعض الحوادث ومليئة بالدم العربي المسفوك ، وصلوا القدس وتمكنوا من اجتياحها في ١٦ تموز ١٠٩٩ م ، فقتلوا كل من كان فيها من المسلمين ، ثم جعلوها مركزاً لثالث دولهم واعلاها مرتبة ، وبعد احتلالهم القدس اخذوا يوسعون املاكهم ، وهدفوا نحو امرين اساسيين هما ، الاستيلاء على كل من حلب وطرابلس . وفي سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م استولوا على طرابلس ، لكنهم اخفقوا في اخذ حلب ، فكان لذلك اثره العظيم المحول على بقائهم في المشرق ، فصمود حلب لم يحل فقط بين الصليبيين وبين اكمال سيطرتهم على كل بلاد الشام ، بل هيأ الفرصة امام العرب لتجميع قواهم ، ومن حلب انطلقت أولى حركات التحرر واستفاقة العرب ويقظتهم .

لقد كانت الضربة التي حلت بعرب الشام اثر احتلال الصليبيين لأجزاء من بلادهم ضربة مروعة ، لكن هذه الضربة لم تعد حكام الشام الى رشدهم حيث استمروا يتنازعون من اجل السلطان ، وكان الشعب في حلب هو الذي احس اولا بفداحة الضربة فتحرك ، ونقل هذا الاحساس والتحرك الى الموصل .

تناقضات المجتمع الصليبي

ومعلوم أن الصليبيين كانوا قد وصلوا مشارف الشام جمعاً واحداً ، لكن ما أن توغلوا فيه ، وفتحوا بعض أراضيه حتى دب بين صفوفهم التمزق ، فانقسموا الى عدة دويلات وبما أن كثيراً من صليبيي الحملة الاولى قد استقروا في الشام ، فقد أنجبوا هناك جيلاً جديداً تمتع بصفات خاصة ، ولما كان تدفق الفرنجة من اوروبة على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفاً من مجموعتين متمايزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة الى هذا فقد قام بين الصليبيين تنظيمات غالباً ما كانت ذات صبغة عسكرية ، وذات مطامع سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفرقة عمقاً والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الأولى ، خاصة بين صفوف الفقراء Tafuro منهم .

اليقظة العربية ومراحل التحرير

وفي الوقت الذي حصل فيه هذا بين صفوف الصليبيين ، كان العرب في الشام قد أصابهم انقلاب هائل أيضاً ، فقد أزال الشعب القيادات القديمة ، اللامبالية والانانية الظالمة ، وتكونت قيادات جديدة ، وخلق انسان عربي جديد مع روح جديدة ، وعاش الشعب وقياداته مع الجهاد ، ونبذت الأمة الفرقة ، وجاهدت من أجل الوحدة ، وصار الحكم بالنسبة للحكام رسالة ومسؤولية التحرير ، لا وسيلة للسيطرة ، وأداة من أجل النفوذ والكسب الفردي أو الأسروي .

ولقد جرت العادة على تقسيم تاريخ الحروب الصليبية الى تسعة أقسام او أكثر ، وذلك حسب عدد الحملات التي جاءت من الغرب ، وعندي أن هذا التقسيم خاطىء ذلك أن الصليبيين لم يتوقف تدفقهم على الشام ، انما كان هذا التدفق متفاوت الحجوم ، ولقد تم وصول الصليبيين الى الشام براً وبحراً ، ومن العبث الحديث عن حملات ، أنه كان هناك حملة واحدة بدأت قبل سنة ١٠٩٨ وانتهت بتصفية آخر معاقل الفرنجة في الشام .

وعندما أرفض التقسيم المعهود ، الذي استوردناه من اوروبة من عند حفدة الصليبيين ، اتصور أن تاريخ الحروب الصليبية قد مر بمراحل اربع ، ولقد ارتبطت

كل واحدة من هذه المراحل باسم مدينة من مدن العرب ، وتأثرت ابعد التأثر واعمقه بدرجات الاستفاقة والوحدة التي حلت بين صفوف العرب ، خاصة في المشرق .

وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، ثم مرحلة حلب ، ثم مرحلة دمشق ، واخيراً مرحلة القاهرة .

١ – من الموصل انطلقت اول قوات التحرير المنظمة ، وبقوات الموصل أمكن الانتقال من حالة الدفاع والانحسار الى حالة الهجوم واسترداد الارض .

مرحلة التحرير الاولى

ثورة حلب الثالثة ومنع الفرنجة من احتلالها

١ – بعدما استولى الصليبيون على طرابلس رأوا أن عليهم الاستيلاء على مدينة حلب من اجل سد الثغرة الفاصلة بين اماراتهم في الرها وأنطاكية ، وفي سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م حضروا كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت حلباً في هذه الآونة تتبع رسمياً تمرتاش بن ايلغازي أحد افراد الدولة الارتقية التركمانية . وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقه صاحب الحلة في العراق وأمير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه أميراً عليها شرط أن يسمح لبعض القوات الصليبية بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران صاحب قلعة جعبر ومع ابراهيم بن رضوان بن تتش الذي كانت اسرته تحكم حلب أيام بدء الحروب الصليبية ، وجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب واخذوا في حصارها ، وعدل الاتفاق هذا اثناء الحصار ، بأن تكون مدينة حلب لابراهيم بن رضوان « لأنها كانت لأبيه » .

وقام اهل حلب بتنظيم امور الدفاع عن مدينتهم ، وتولى زمام المقاومة قاضي المدينة ابو الفضل بن الخشاب ، واعانه بعض زعماء شعب المدينة ، واشتد الحصار على حلب وطال ، واخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على اسوارها « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، واخذوا توابيتهم الى الخيم وجعلوها اوعية لطعامهم ، وسلبوا الاكفان ، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم تنقطع اوصاله ، فربطوا

في ارجلهم الحبال ، ويسحبوهم مقابل المسلمين . وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عليكم ، واخذوا مصحفا من بعض المشـاهد بظاهر حلب وقالوا : يا مسلم ابصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي . وشده بخيطين ، وعمله ثفرا [الثفر السير الذي في مؤخر السرج] لبرذونه ، واقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ».

ولم يؤثر هذا على معنويات الحلبيين بل داوموا الدفاع ، وازدادوا اصراراً على المقاومة « وبلغ بهم الضر الى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ووقع فيهم المرض» ويحدثنا ابن العديم مؤرخ مدينة حلب عن ابيه وكان من شهود العيان ان الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في ازقة البلد . فاذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحدمن المرضى الى فراشه » .

تحالف شعب مع الموصل من اجل التحرير

و « لما اشتد الحصار على حلب وقلت الاقوات بها وضاق الامر » بالحلبيين ، اتفق رأيهم على تسيير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان آنذاك في ماردين مشغولا بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلا من البلد ، وعلم الفرنـج بخبر الوفد ، وحاولوا ان يوهموا اهل المدينة انهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطل على الحلبيين وعرفوا بعد وقت بوصول وفدهم الى ماردين . وفي ماردين لقي الوفد مفاجأة كبرى ، وتحدث جد ابن العديم ـ وكان احد رجالات الوفد ـ عما حدث في ماردين فقال : « لما وصلنا الى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر . وانه يتوجه اليها ، ويرحل الفرنج عنها، وانزلنا في مكان بماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم الى يوم ، وكان آخر كلامه ان قال : خلوهم اذا اخذوا حلب ، عدت واخذتها ، فقلنا في انفسنا : ما هذه الا فرصة ، وقلنا له : لا تفعل ، ولا تسلم المسلمين الى عدو الدين . فقال : وكيف اقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي ابو غانم : وايش هم حتى لا تقدر عليهم ، ونحن اهل البلد اذا وصلت الينا نكفيك امرهم .

قال القاضي ابو الفضل ـ عم ابن العديم وراوي الخبر له ـ فكتبت كتابا من حلب الى والدي ابو غانم ، اخبره فيه بما حل بأهل حلب من الضر ، وانه قد آل الامر بهم الى

اكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه وغضب ، وقال : انظروا الى جلد هؤلاء القعة الصنعة ، قد بلغ بهم الامر الى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويغروني ويقولون : اذا وصلت الينا تكفك امرهم .

قال القاضي ابو غانم : فأمر تمرتاش بان يوكل علينا ، فوكل بنا من يحفظنا خوفاً ان ننفصل عنه الى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب الى الموصل ، ان نمضي الى البرسقي - صاحب الموصل - ونستصرخ به ونستنجده ، فتحدثنا مع من يربنا ، وكان المنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا عظيما اذا فتح او اغلق ، فأمرنا بعض اصحابنا ان يطرح في صائر الباب زيتاً ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا اذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان اذا جن الليل ان يسرجوا الدواب ، ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء والثلج كثير على الارض . قال القاضي ابو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم الا غلامي ياقوت ، واخبر غلمان رفاقي ان قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لاصحابي : قوموا انتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ، ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكراً لا يأخذني نوم ، حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لا اعرف الطريق ، ومشيت في الثلج اطلب الجهة التي اقصدها . قال : فما طلع الصبح الا وانا واصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من اول الليل وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا واعملنا السير حتى وصلنا الموصل » .

الموصل واعمال التحرير

وفي الموصل قابل هذا الوفد آق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما اشرفت عساكره على المدينة ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت مدينة حلب ، وكان هذا الحادث بدايا عهد جديد في تاريخ العرب وتاريخ وجود الصليبيين ، فسنة ٥١٨ هـ هي سنة بدايا التحرير ، ففي ظل قيادة البرسقي توحد شمال بلاد الشام مع اعالي بلاد الرافدين ،

ووجهت طاقات الامة ضـد الصليبيين ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي والتصفية . لكن من سوء حظ الامة ان البرسقي اغتيل بعد عامين من انقاذه لحلب ، وبدئه حرب التحرير .

ولقد أدى اغتياله الى انتكاسة مؤقتة ، ذلك ان الامة كانت تعيش بداية عصر اليقظة، لذلك اجتازت المحنة وتغلبت عليها ، فلقد تآمرت قوى سياسية منحرفة على سيادة الموصل، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل ، كان يعرف ما يريد عن ايمان وعزيمة ، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل اهل الموصل الى مدينة بغداد ، وقام هذا الوفد باختيار الضـابط زنكي بن قسيم الدولة . وتعاقدوا معه على تولي حكم الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة ، وبعد ما تم التعاقد اجبر الوفد سلطات بغداد على الموافقة على تعيين زنكي حاكما جديدا على الموصل واستبعاد سواه .

عماد الدين زنكي ووحدة حلب والموصل

وفي عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين زنكي زمام الامور بالموصل ، وكان زنكي هذا عسكريا من الطراز النادر ، له من الحزم والشجاعة ، وحب النظام والتقيد به مع المطامح العالية ، ما احله محل الزعامة ، ومكنه من شغل الدور الذي كانت الامة ، في مرحلة استفاقتها آنذاك ، قد اوكلته اليه ، وعهدت بمسؤولياته الجسام الى اخلاصه وكفاءته .

لقد أدرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه فقام بها خيرقيام، أدرك أن عليه ـ حتى يحقق النجاح ـ أن يوحد بين أجزاء الأمـة الممزقة سياسياً ، ويزيل جميع العوائق والفوارق ، ويطور حركة اليقظة وينميها فينفي عنها الفوضوية ويلزمها بالجدية والنظام والعمل البناء ، وكانت خطته في العمل ضد العـدو تهدف الى إزالة مملكة الرها ثم اسقاط انطاكية ، وبهذا تسد الثغرة مابين أعالي الرافدين وشمالي الشـام ثم تغلق المنافذ البرية للصليبيين من آسية الصغرى الى الشام .

وعندما يطالع المرء سيرة حياة زنكي يجده قد ضرب المثل الأعلى بالجدية والالتزام بالنظام ، ووصفه ابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب بقوله : « كان زنكي ملكاً عظيماً ، شجاعاً ، جباراً ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي احوال

الشرع ، وينقاد اليه ، ويكرم اهل العلم ، وبلغني أنه كان اذا قيل له أمـا تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ، ووصفه احد معاصريه بقوله: « كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله اذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ، ولا يجسر احد من هيبته يدوس عرقا من الزرع ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يقدر احد من الاجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن الا بثمنها او بخط من الديوان الى رئيس القرية ، وان تعدى احد صلبه عليها ، وكان اذا بلغه عن جندي أنـه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابهـا ، واحسن الى اهالي مملكته ، وكان لا يبقي على مفسد ، .. ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية واقام الحدود في بلاده » . وفرض زنكي على شعب دولته نوعا من انواع الجندية الاجبارية حتى صار معظم جند قواته متطوعة من ابناء الشعب .

ما أن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى التفت الى جهـاد الصليبيين والعمل على قلعهم من ديار الشام ، وكان زنكي من مواليد مدينة حلب نشأ وامضى طفولته ، وكان الحلبيون يعرفونه ويحبونه، لذلك قاموا عند قدومه الى الموصل فانتزعوا زمام مدينتهم من أمراء الأسرة الأرتقية التركمانية الذين استولوا عليها بعد اغتيال البرسقي ، وذهب جماعة منهم الى زنكي فاستدعوه الى حلب ، وسخر زنكي طاقات دولتـه للتحرير ووقف نفسه عليه ، فاسترد من الصليبيين معرة النعمان ، وكفر طـاب ، وبارين ، والأثارب ، والمنطقة الشمالية والغربية لمملكة حلب .

سقوط الرها

ولقد كان هم زنكي وشغله الشاغل احتلال الرهـا ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيهـا ، وسد الثغرة الفاصلة بين شمال بلاد الشام والجزيرة ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الامة كلا وأفراداً استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م احتلال الرها ، والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق ، وكان لمبادرات أفراد الشعب الشخصية الفضل الأكبر في نجاح زنكي في اقتحام مدينة الرها .

ففي اثناء حصار الرها نزل رجل اسمه موسى الى السوق فاشترى لباساً من لباس الأرمن ، وتزيا بزيهم ، وكان موسى هذا اشقر اللون شكله شكل الارمن ، وكان جهوري الصوت ، واستطاع التسلل الى داخل الرها فذهب الى جامعها وصعد منارة الجامع

المهجور ، وأخذ يكبر ويؤذن ، فسبب ذلك حدوث صخب وفوضى في المدينة حيث ظن المدافعون عنها أنها قد خرقت واحتلت ، لذلك تخلى المدافعون عن الأسوار ، فصعدت عساكر زنكي اليها واقتحموا المدينة ، وقام زنكي بعد احتلال الرها بمنح هذا الرجل جائزة كبيرة ، ولقد تمّ لسقوط الرها صدى بالغ في الشرق والغرب ، وكان ذلك اروع ضربة حلت بالفرنجة مذ دخلوا الشام وافدح خسارة ألمت بهم .

وبعد مضي عامين على سقوط الرها قضى زنكي نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه ، وهو يحاصر قلعة جعبر ، وحدث اغتيال زنكي في الليل بينما كان نائماً ، وجاء الغلام الذي قتله الى تحت القلعة « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا له : اذهب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله » .

ولقد كان لمصرع زنكي أثر مفجع على نفوس العرب ، فدعوه « بالشهيد » ، ورغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فان زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، لكن لم يؤثر موت زنكي كثيراً على أوضاع الامة ، ذلك أن الامم الحية لاتتأثر كثيراً بفقدان القادة ، لأنها تخلفهم الواحد الو الآخر .

مرحلة التحرير الثانية

الأمة الجديدة وتوحيد شمال الشام مع جنوبه

٢ ـ فقد تسلم نور الدين محمود بن زنكي القيادة بعد سقوط أبيه وكان نور الدين ، الذي اتخذ من حلب مقراً له ، مثله مثل أبيه في الشجاعة والحزم والاخلاص والطموح ، إنما تميز عن أبيه بتقواه وزهده وسلامة نيته ، فقد كان يعتقد بأن الله تعالى قد أوكل اليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار العرب ، وتوحيد هذه الديار وأهلها تحت راية واحدة ولهدف واحد .

وكانت أول الأعمال التي قام بها نور الدين محمود استعادة الرها من الصليبيين الذين استغلوا حادث اغتيال زنكي فاستولوا عليها ثانية ، بعد هذا بذل جهد ما اوتيه من قوة وطاقات في سبيل اثارة الأمة ، وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في كافة مناطق الوطن العربي . ويعتبر نور الدين من أعظم الذين أسهموا في ايجاد جيل عربي

جديد له روح جديدة ، تضحي في سبيل الجهاد والتحرر ، وتخترع وتبدع كل مايحتاجه الجهاد والتحرر ، وبنفس الوقت هي روح مثقفة متحضرة تحب حياة الوحدة والتعاون والتكاتف ، وتكره الفرقة وتمجها ، هذه الروح الجديدة التي تجسدت في معظم افراد الأمة وفي شخص نور الدين ، فكان مثلاً أعلى ، هي التي مكنت نور الدين في سنة ١١٥٤م من الذهاب إلى دمشق بناء على دعوة اهلها ، فوحد لأول مرة منذ قرون شمال الشام مع جنوبه ، وشملت هذه الوحدة أجزاء من الجزيرة ؛ وهي التي سببت بناء العديد من الرباطات والمدارس والجامعات والمشافي ، وهي التي رعت الثقافة وشجعت المثقفين ، فنور الدين هو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق جاء في ثمانية مجلدات كبار ، وهذا امر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها (١) .

مرحلة التحرير الثانية

الوحدة بين الشام ومصر والاعداد لمعركة فاصلة

٣ — وبعدما وحد نور الدين بين شمالي بلاد الشام وجنوبيها اتخذ من مدينة دمشق مركزاً لأعماله ، ولقد خاض ضد الصليبيين عدة معارك ، وكانت جميع المعارك التي وقعت

---

(١) جدير بنا هنا أن نلاحظ أن وحدة الأمة العربية عبر الأجيال قد تجلت حضارياً وعقائدياً وأحداثاً في هذا التاريخ العظيم ، فغالبية الذين ترجم ابن عساكر لهم في كتابه قد ولدوا ونشأوا خارج دمشق وخارج بلاد الشام في إحدى بلدان الوطن العربي ، وقد جاؤوا الى دمشق عابري طريق ، أو زائرين بقصد الاقامة أو التعليم أو العمل ، او السياحة ، ، أو التجارة ، أو العبادة ، أو أمر آخر ...

وليس من قبيل الصدفة أن الرغبة والعمل في سبيل نشر تاريخ ابن عساكر قد تعايشت زمنياً مع الرغبة والعمل في سبيل تحرير فلسطين من الصهيونية ، وقد قطع العمل في هذا الكتاب نفس الشوط الذي قطعه العمل من أجل تحرير فلسطين ، وفي كثير من الأحيان يخيل لي أن نشر تاريخ ابن عساكر سيعني عندما يتم أن العرب أصبحوا مؤهلين لتحرير فلسطين ، ذلك أن كل عمل سياسي لايقوم على دعامة فكرية حضارية هو حتماً عمل مكتوب له الاخفاق .

بين العرب والصليبيين حتى هذا التاريخ غير فاصلة ، فبلاد الشام هي بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام كثير من القلاع والحصون ، وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات أسوار للدفاع ، لذا كان كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية ، كانت هذه المعركة غالباً ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون ، ولذلك كانت تستغرق وقتاً طويلاً ، وتستهلك جهداً عظيماً دونما فائدة تذكر ، واذا ماحدث ووقع اشتباك في أحد السهول فان المهزوم غالباً ما كان ينسحب الى أحد مواقعه المحصنة القريبة فيتخذ موقف الدفاع ، لذلك طال أمد الحروب الصليبية واحتاجت الى تكاليف باهظة ، وبات على العرب وقادتهم تأمين الموارد الكافية من الرجال والمؤن ، والسلاح والمال لنفقات هذه الحروب ، وبنفس الوقت العمل من أجل خلق ظروف وحالات مواتية لقيام معركة فاصلة مع العدو ، تحطم فيها قواه العسكرية .

وبعدما وحد نور الدين الشام والجزيرة نظر أمامه فرأى مصر بمواردها الهائلة ، وطاقاتها الجبارة ، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمزق والاضطراب ، وتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر كي ينقذها من فوضاها وكي يدخل اليها الروح الجديدة التي حلت بالشام ، وحتى تستخدم موارد مصر ، وتزج طاقاتها في المعركة بدلاً من التبعثر والهدر والضياع .

ولقد أراد الصليبيون احتلال مصر للاستفادة منها ومن مواردها ، ولكي يحولوا بين العرب وبين تطويقهم والعمل في سبيل القضاء عليهم واقتلاعهم ، لهذا جردوا عدة حملات ضد مصر ، لكن نور الدين سارع الى التدخل ، وبفضل شجاعة قوات نور الدين وتجاوب شعب مصر معها أخفقت جميع جهود الصليبيين ، وتمكن نور الدين في سنة ١١٦٧م من توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة ، وفي سنة ١١٧١ م تم الغاء الخلافة الفاطمية ، وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للاسهام في أعمال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، وأعد نور الدين قواته من أجل المعركة الفاصلة ، وكان موقناً من أن النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وعلى هذا الأساس أمر نور الدين بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الاقصى بعد تحريره (١) .

---

(١) لقد أحرق هذا المنبر منذ فترة وجيزة عند احراق المسجد الأقصى بعد حرب ١٩٦٧ .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب والياً لنور الدين على مصر ، وقبل أن يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين أصدر أوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على أسوار الكرك ، ولكن – ولكل عظيم سقطة – غلبت أنانية صلاح الدين وشهواته للسلطة على نفسه – وذلك بتحريك جهازه الذي أحاط به له ، وتخويفه من نور الدين – فتلكأ صلاح ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللاً بأوهى الاسباب وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنيناً طويلة أخرى من الدم والعذاب .

معركة حطين وتحرير القدس :

وتوفي نور الدين عام ١١٧٤ م ، وقام بعده صلاح الدين ، فاستطاع أن يرث دولته ، وعندما أنجز صلاح الدين اقامة دولته الموحدة الممتدة من ليبيا الى الموصل ، والشامة لليمن والحجاز ايضاً ، قاد قواته المحترفة وجموع متطوعة الشعب سنة ١١٨٧م ، نحو فلسطين ، فحطمت القوات العربية على سهل حطين القوة العسكرية للصليبيين ، ثم حررت القدس ، وجلب صلاح الدين الى المسجد الاقصى المنبر الذي صنعه نور الدين ، فخطب عليه أولى خطب الجمعة بعد التحرير .

وبعد نصر حطين بات أمر وجود الصليبيين في المشرق قضية زمن لا اكثر . وإن من يستعرض الفترة التاريخية لنور الدين وصلاح الدين بعده يجد أمة تتحرك كجسد واحد بلا تناقضات ولا أمراض مستعصية ، ولقد كان بودي أن استعرض بعض نماذج من اعمال أفراد من الشعب في هذه الحقبة ، لكن خشية الاطالة تمنعني من ذلك ، وأنصح القارىء بالعودة الى كتاب الروضتين لأبي شامة وغيره من المصادر حيث سيجد سجلاً حافلاً بجهاد الشعب العربي وتضحياته دون ملل طيلة سنين عديدة .

مرحلة التحرير الرابعة

أعمال تصفية الوجود الصليبي وصد المغول

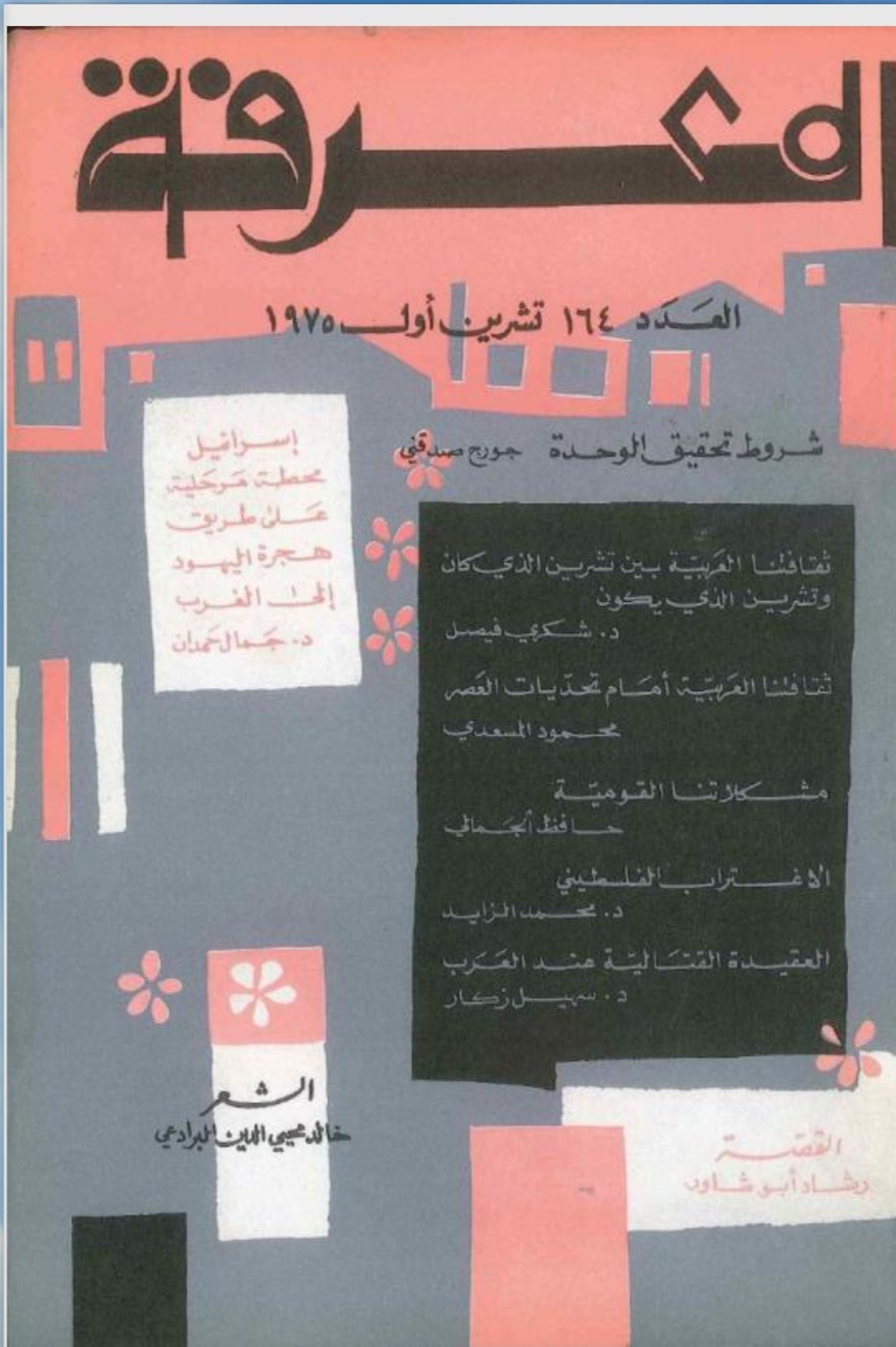
٤ – ولقد ترعرعت الروح الجديدة التي حملت من الشام الى مصر ، فجعلت بعد فترة وجيزة من الزمن من القاهرة عاصمة لديار العرب ، ومركزاً لقواهم وثقافتهم

وحضارتهم ، وقاد خلفاء صلاح الدين في القاهرة العرب نحو تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، ونحو تفشيل جميع محاولات اوربة في احتلال اي جزء من بلاد العرب ، كما أن القاهرة حمت الوطن العربي في مشرقه ومغربه ، وصانته عندما تعرض هذا الوطن للغزو المغولي ، فهزمت المغول في معركة عين جالوت ، وفي دمشق وحلب ، والموصل والقاهرة طور العرب زمن الحروب الصليبية صناعة الاسلحة ، واخترعوا الكثير من الاسلحة الجديدة ، وتحفل المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات عن السلاح وفن الحرب كلها تعود الى هذه الفترة .

أسباب انهيار الحضارة العربية بعد التحرير

وبعندما طرد الصليبيون من المشرق ، وزال خطر المغول ، بدأت قوة العرب وحضارتهم بالتدهور والجمود ، بينما بعثت في أوربة التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو اعادة فتح بلدان الوطن العربي واستعمارها، ومكنتها من التحكم بمصير الامة العربية وخلق دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي في فلسطين .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مع انهم المنتصرون ، وبعث اوربة مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل اسباب انحطاط العرب تكن في أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين من تسلم زمام الامور ، ومع الايام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وعندما توقفت الحروب اصبح الجند عالة على الامة، ثم ان الشعور بالنصر والسلم والامان بعد عهود طويلة من الحروب والدمار ، مع زوال عامل التحدي ، دفع العرب نحو الاخلاد الى الراحة والسكينة . وإلى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ، وحيث أن الامة قد وجهت ايام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت كافة امكاناتها المادية والعقلية المعركة ، فقد عطل هذا مع الأيام الكثير من جوانب الحياة الثقافية والحضارية ، وولد التعصب، واهمال الحضارة والثقافة كان وما زال آفة العرب الكبرى . ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم ممزقون ، لكنهم كانوا كلما اتحدوا صنعوا كل شيء ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن — ولا يزال يكمن — سر نهوض العرب وقوتهم .


المعرفة
العدد ١٦٤ تشرين أول ١٩٧٥
شروط تحقيق الوحدة جورج صدقني
إسرائيل محطة مرحلية على طريق هجرة اليهود إلى الغرب
د. جمال حمدان
ثقافتنا العربية بين تشرين الذي كان وتشرين الذي يكون
د. شكري فيصل
ثقافتنا العربية أمام تحديات العصر
محمود المسعدي
مشكلاتنا القومية
حافظ الجمالي
الاغتراب الفلسطيني
د. محمد الزايد
العقيدة القتالية عند العرب
د. سهيل زكار
الشعر
خالد محيي الدين البرادعي
القصة
رشاد أبو شاور

العقيدة القتالية عند العرب « الفتوحات »

الدكتور سهيل زكار

توافق أيام الاسبوع الأول من هذا الشهر موعد الذكرى الثانية لقيام حرب تشرين التحريرية، وهي الحرب التي استهدفت أن تعيد الى الانسان العربي عزته وكرامته وأرضه ، وكانت أول حرب حقيقية تخوضها القوات العربية في تاريخ العرب الحديث ، ولا شك أن لهذا أهميته الخاصة ومعانيه المتميزة ، ولذلك كثرت الكتابات حول هذه الحرب وتعددت الاحاديث حول ما نتج عنها من عظيم الأمور ، وتناولت بعض الابحاث التي قامت حولها النواحي الفنية العسكرية البحتة منها ، وهنا في غمرة الجدل في هذه الأبحاث لاحظت أنها دارت حول محورين أساسيين : دعي كل واحد منهما باسم عقيدة قتالية ، اولاهما شرقية سوفياتية والأخرى غربية .

ولطالما تساءلت أثناء هذا كله : أوليس الرجال الذين خاضوا غمار الحرب عربا ، لامتهم تاريخ عسكري عظيم لا نظير له ، ثم أوليست الأرض التي وقعت فيها المعارك هي الأرض العربية التي سكنها العرب منذ فجر التاريخ ، فأحسنوا منذ ذلك الوقت الدفاع عنها والهجوم منها ؟ لا إن الحديث عن صراع بين عقيدتين قتاليتين اجنبيتين في حرب عربية تحريرية فيه بعض البعد عن الواقع والحقيقة ، خاصة وان الانسان هو الانسان والأرض هي الأرض وإن اختلف الزمان واختلفت الأسلحة !

وكنت ادركت منذ زمن أن عدداً من الاختصاصيين في التاريخ العسكري من الجانب الاسرائيلي قد شاركوا بشكل مؤثر وفعال في وضع خطط حرب الايام الستة وما زال هؤلاء يشاركون حتى الآن في تصميم خطط العدو وفي أعمال تدريب الجند والضباط ، وفي هذا الحين بحثت في شؤون جيوش الدول العربية فوجدت ان معظم هذه الجيوش ليس فيها اختصاصي واحد في تاريخ العلوم العسكرية ، وان هذا العلم مهمل أحياناً او يدرس بشكل اجنبي ، او بشكل بدائي في غاية التخلف ، وذلك من قبل بعض اصحاب الهواية ، وشتان ما بين الهواية القائمة على العاطفة ، والرغبة المدعومة بالوهم ، وبين الاحتراف المدعوم بقوانين العلم والاختصاص القائم على المعرفة الحقة والمنطق الصرف !

لقد دفعني هذا الحال نحو البحث في تاريخ العلوم العسكرية عند العرب ، والانطلاق في البدء في التفتيش عما اذا كان لدى العرب عقيدة قتالية خاصة ، ولا بد لي أن اعترف هنا بانني لست من ذوي الاختصاص بالتاريخ العسكري لدى العرب او لدى سواهم ، انما انا اختصاصي بشكل اساسي في تاريخ العرب والاسلام ، وتفاعل جوانب هذا التاريخ وتكاملها فرضت علي تعلم اصول وقواعد البحث في التاريخ الحضاري ؛ والسياسي والعقائدي ، والاقتصادي ، والعلمي التقني ؛ والعسكري وغير ذلك .

والآن ارجو ان يكون عملي في البحث عن العقيدة القتالية عند العرب محرضاً ودافعاً نحو الاهتمام بشكل علمي صحيح بالتاريخ العسكري مع تاريخ العلوم العسكرية عند العرب ، وان يعمل على اعداد بعض ذوي الاختصاص في هذا الميدان وذلك بالتعاون بين اجهزة وزارة الدفاع والجامعة .

★★★

الحرب عند العرب بعد ظهور الاسلام هي عمل مشروع مسوغ ذو هدف عقائدي ؛ وله غايات انسانية تحريرية بحتة ، وتخاض

الحرب عند الضرورة ، بعدما تنعدم الوسائل السلمية للاصلاح وتحرير الانسان وهدايته الى المنهج القويم ، وتتوقف الحرب عند التوصل الى هذه الغايات ، فالحرب على هذا وسيلة من وسائل الثورة الاصلاحية التحريرية ، ويمكن القول بأن العرب كانوا اول امة في التاريخ احسنت استخدام العنف الثوري وطبقت مناهجه بشكل مثالي .

ومن خلال دراسة المعارك التي خاضها العرب بعد الاسلام ـ وحتى قبله ـ يلاحظ انه كان لديهم عقيدة قتالية خاصة ذات اسس ومبادىء متميزة واضحة ، والى هذه الأسس وطبقاً لهذه المبادىء خاض العرب العديد من المعارك وحققوا النصر وحازوه .

ونبعت هذه العقيدة من تقاليد ما قبل الاسلام ، والم بها تطور كبير بسبب قيام الاسلام واثناء العمل على نشره ، وارتبطت مبادىء هذه العقيدة بشكل اساسي بطبيعة الأرض العربية التي هي في الغالب سهول منبسطة ليس فيها غابات ، تسيطر عليها الطبيعة الصحراوية ، ومناخ هذه الأرض شديد الحرارة في الصيف ، والربيع هو انسب الأوقات للقتال لتوفر المراعي والمؤن .

وأسهمت هذه الحالة في تكوين المقاتل العربي وفي نوع ألبسته وسلاحه وعتاده ، فالمقاتل العربي كان يرتدي خفيف اللباس ويحمل الخفيف من السلاح لذلك تمتع بالمرونة بالحركة ، وكان السيف دائماً هو السلاح الرئيسي لديه ، وغالباً ما كان المقاتل فارساً يقاتل بالسيف وبالاضافة للسيف استخدم العرب الرماح والحراب والنبال ، وكان الجمل حيوان المقاتل العربي الأول وتلاه في المنزلة الخيول على انواعها ، وألزمت الطبيعة الصحراوية المقاتل العربي على التزام قوانين خاصة بالتموين ، كما ان التكوين العشائري للمحتمع العربي والتركيب النفسي للانسان العربي قام بتحديد طبيعة الجيوش العربية من حيث التعبئة والسوقية .

وامتازت هذه الحال بشكل متباين عن أحوال الأمم التي خاض العرب الحروب ضدها خاصة الامبراطورية الفارسية والدولة البيزنطية ، فقد

عرفت هذه الأمم الجيوش النظامية ذات الأسلحة الثقيلة والقواعدالثابتة في القتال والحركة .

وعلى هذا كانت طبيعة المقاتل العربي ثم طبيعة خصومة أحد ينابيع العقيدة القتالية عند العرب وبتصوري أن هذه العقيدة قد قامت على القواعد التالية :

١ ـ استهدفت هذه العقيدة اولا الفصل بين الجيوش التابعة السلطات العدوة الحاكمة وبين جماهير الشعوب المحكومة سواء أكان ذلك محلياً وطنيا أم اجنبياً امبراطوريا ، وكانت عمليات الفصل هذه تتم بوساطة الدعوة الى الاسلام ، مع بث مبادىء الاصلاح والتحرر والترغيب بالثورة والحض عليها ، فاذا لم ينفع هذا كانت عمليات العزل تتم بوساطة الترهيب باثارة الرعب بالغارات ، وباقامة حرب نفسية دعائية كبيرة للغاية ، وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: « نصرت بالرعب » ، وكثيراً ما ترافقت عمليات الترهيب هذه مع شراء الزعامات المحلية الجديدة ، وإثارة النزاعات على اختلاف انواعها ، ويفسر هذا كثرة نصوص الاتفاقات ـ التي فيها بعض التباين ـ التي عقدها العرب الفاتحون مع أصحاب القرى والمدن في البلاد المفتوحة ، وكانت هذه الأعمال تتم بناء على خطط مرسومة تنفذ بعد عمليات استطلاع واسعة ، كانت تستهدف جمع كافة أنواع المعلومات ، بشكل مباشر عن طريق الجواسيس والعملاء أو عن طريق خطف واسر بعض رجالات العدو، وفي أخبار الفتوحات الأولى شواهد بينة على هذا يراها الباحث في أعمال النبي الحربية داخل الجزيرة وخارجها ثم في أعمال الخلفاء من بعده .

٢ ـ لما كانت القوى المعادية قوى نظامية في الغالب ؛ كبيرة الاعداد عظيمة العتاد ، كثيرة المؤن ، حسنة التدريب ، لذلك كان المتطلب ارباك هذه القوى وتضليلها ، وتمزيقها ثم انهاكها وبالتالي تحطيم معنوياتها، وحين يتحقق ذلك كانت هذه القوات المعدية تجبر على الالتحام في معارك كبيرة في ظروف جغرافية وتموينية وقتالية غير مناسبة لها بتاتاً .

٣ ـ وقبيل الالتحام في المعركة كان يتم وضع الخطط القتالية المبدعة المناسبة للموقف ، وفي هذه الخطط كان يعتمد دائماً على عامل للمفاجأة جديد ، لذلك اعتمد العرب على الكمائن اعتمادا كبيراً وكانوا لا يزجون بجميع قواهم في الملحمة بل كانوا يحتفظون بكميات كبيرة من الاحتياط كانوا يزجونها ساعة إلمام التعب والانهاك بالقوى المتحمة ، وبذلك كانت تفصل المعارك بسرعة وبنجاح كبير .

وغالباً ما بنيت خطط الالتحام وقامت على قاعدة الفصل بين أسلحة القوات المعادية ومن ثم ايقاع الضربة بكل سلاح على انفراد ، ذلك أن قوات الدول الامبراطورية التي حاربها العرب اعتمدت بشكل أساسي على سلاح للفرسان ثقيل يحمل أفراده الرماح الطويلة المتينة ويرتدي المقاتل مع فرسه دروعاً حديدية كاملة التستير والغطاء ، وكان سلاح الفرسان الثقيل هذا يقع على عاتقه عملية خرق صفوف القوات المعادية ذلك أن الفارس كان يعتمد على قوة اندفاع حصانه وكان يسلط رمحه بشكل يمكنه من خرق صدور عدد من المقاتلين في دفعة واحدة ، ويمكن تشبيه سلاح الفرسان هذا بدبابات العصر الحديث ، وكان سلاح الفرسان يحاط من الأمام بقوة من الرماة ومن الخلف والأطراف بقوات الرجالة « المشاة » لذلك استهدفت خطط العرب في الالتحام هدر قوة اندفاع الفرسان الأولى والقيام بالفصل بين المشاة والفرسان وانفتك بكل منهما على حده ، وغالباً ما كانت عمليات الفصل هذه مربكة دقيقة في غاية الصعوبة إنما على العموم نجح العرب في تنفيذها ، وعندما كان يتم فصل المشاة عن الفرسان كانت جهود العرب تنصرف في الاول نحو الفتك بالمشاة ثم الى انهاك الفرسان ، والذي كان ينهك الفرسان ليس ثقل الحديد من الدروع ولكن طبيعة الحديد كمعدن يتفاعل مع الحرارة ويمنع من التعرق واي جسد يوضع في حال ترتفع فيه الحرارة ويتوقف فيه التعرق لا بد وان يصاب بالانهاك في لحظات ، وغالباً ما كان العرب يعمدون الى احداث الحرائق في اماكن تجمع فرسان العدو ، بقصد زيادة الحرارة والاستفادة من الدخان كعازل للرؤية وكخانق ، ولعل هذا يفسر لنا ما

تحويه المصادر العربية من قوائم لغنائم العرب عقب كل نصر ، فيها من كل شيء كثيره اللهم الا الخيول ، ذلك ان الخيول كانت تموت من الاعياء بعد ساعة الفصل ، وبموتها كان يسهل القضاء على الفرسان لأنهم كانوا يصبحون بلا سلاح تقريباً ، فالرمح الطويل يمكن القتال به فقط من على ظهر الفرس وبوضع خاص .

وكيما تتضح قواعد هذه العقيدة مع طرق تطبيقها سأقوم باعداد ابحاث ثلاثة اجعلها كنماذج ، وسأتناول الآن في أول هذه الأبحاث الفتوحات العربية الكبرى أيام ابي بكر وعمر بشكل خاص ؛ ثم سأتناول في البحث الثاني معركة منازكرد التي وقعت سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م واخيراً سابحث في معركة حطين ، وقبل الشروع بهذا كله ارى من المفيد الاشارة الى ان العرب اتقنوا بالاضافة الى فنون الهجوم من القتال فنون الدفاع ، وبرعوا في قتال البحر بالاضافة الى البر ، كما عرفوا انواع الجيوش « والميليشيات » الشعبية ، وابدعوا في التصنيف في العلوم العسكرية وفي صناعات الاسلحة والعتاد ، واجادوا في وضع قواعد للاقتصاد الحربي وحياة الطوارىء وقوانين الحروب ومعاملة الأسرى وغير ذلك مما هو جدير بالدرس والتتبع .

★★★

الفتوحات :

بعدما فرغ الخليفة الأول ابو بكر الصديق من حروب الردة اخذ يوجه قواته وقوات قبائل شبه جزيرة العرب نحو اطراف الجزيرة وما جاورها من دول كفارس وبيزنطة ، ولقد استطاعت هذه القوات في فترة قصيرة من الزمن تحقيق معجزة التاريخ الانساني الكبرى ؛ ومعضلته المحيرة التي يصعب حل جميع الغازها ، وهي الفتوحات العربية ، وإقامة الدولة العربية العظمى ، وتقوم مشكلة الفتوحات العربية على عدة مسائل أهمها :

١ ـ كيف استطاعت جموع من بدو الصحراء لا تتقن الا مبادىء بدائية في القتال ، وليس لديها الا بعض الأسلحة الخفيفة غير جيدة الصنع ، قهر الجيوش النظامية لأكبر امبراطوريات العالم يومذاك ؟

٢ ـ كيف استطاعت هذه الجموع تحويل الفتح العسكري الى احتلال دائم مزج الأرض ومن عليها ، وغير معالم الانسان في الزمان والمكان ، وجاء بانسان جديد أبدع الحضارة العربية ؟

٣ ـ هل تمت الفتوحات بناء على خطة واضحة وهدف معلوم أم جاء ذلك بمحض الصدفة ونجح وتطور بعامل الزمن ؟

٤ ـ ما هو المحرك الذي دفع الى الفتح وساعد عليه ، وابقى حركته حية فيها حرارة وتدفق مستمران ؟

وفي محاولة للاجابة على مجمل هذه الأسئلة وغيرها نجد أن مؤرخي العصور الوسطى من مسلمين ومسيحيين عزوا أمر نجاح العرب في فتوحاتهم وارجعوا سره الى قوى غيبية ، فالمؤرخ المسلم رأى في ذلك تحقيقاً لارادة الله حين بعث نبيه محمداً رحمة للعالمين وهادياً للبشر اجمعين من كل جنس ولون في كل بقاع الأرض ، فقد وعد الله نبيه وعباده النصر والنجاح ، وحقق هذا الوعد حين نصرهم على كل امم الارض ، ورأى المؤرخ غير المسلم أن سر النجاح يعود لامتلاك العرب قوة شيطانية ولمساعدة القوى الخفية للشيطان لهم .

واعتقد المؤرخ المسلم للعصور الوسطى أن الذي حرك العرب ودفعهم في سبيل الفتح ومكنهم من تحويل القهر الى احتلال دائم غير الانسان والمكان هو الاسلام ، الرسالة التي بعث الله بها نبيه محمداً ، وعلى هذا كانت أعمال الفتح جهاداً في سبيل الله ، وكان هدف الفتح اعلاء كلمة الله واحلال التوحيد محل الشرك ، والايمان محل الكفر ؛ ويرى هؤلاء ان محمداً وضع خطة واضحة للفتوح ، ويدللون على ذلك بما جاء في القرآن

وفي أقواله ثم برسائله لحكام وقته وحملاته ضد بلاد الشام ، وجيش اسامة بن زيد آخر جيوشه الذي انطلق في مهمته بعد وفاة النبي .

ورفض المؤرخ الحديث هذه التعليلات وبات يفتش عن أسباب اخرى، وتمت أمور الرفض والتفتيش هذه أول ما تمت في أوربة الغربية وعلى ايدي باحثين غربيين ثم قلدت في المشرق العربي والبلاد الاسلامية ، ولم تعدُ آراء المشارقة التقليد الممسوخ لما تم في الغرب .

وكانت أعمال البحث في التاريخ الاسلامي قد بدأت مع تطور النهضة في اوربة ، ومرت هذه النهضة بمراحل كانت أولاها : أعمال التحرر من الكنيسة مع الرفض للمعتقدات والأديان ، ثم تبع ذلك قيام القوميات الاوربية ، ولحق هذا قيام المشاكل الاجتماعية في أوربة مع مدارس التفسير الاقتصادي والمادي ، لهذا رفضت أول الأبحاث الأوربية العامل الديني ، ورفضت معه فكرة عالمية الدعوة الاسلامية . وعزت انتصار العرب الى ضعف بيزنطة وفارس من حروبهما المستمرة ، وجاء بعد هذا من قال بأن الفتوحات الاسلامية وقيام الدولة العربية ما كانت الا ثمرات تحرك القومية العربية على يد محمد موحد العرب الأول وقائدهم الأعلى ، ولحق هؤلاء من قال بأن عرب الجزيرة تحركوا نحو الفتح لضيق الرقعة الجغرافية لبلادهم ، ولعدم مقدرتها على تزويدهم بالطعام ، وإننا لنرى في كتابات كايتاني ثم فلهوزن وبعد ذلك كاهن وكابريلي ولويس وباليف أمثلة شاهدة على هذا التطور .

والعيب المميت في أبحاث كل هؤلاء ـ رغم ملامستها لكثير من جوانب الحقيقة ، هو ان اصحابها بحثوا في تاريخ الفتوحات العربية وتاريخ الاسلام لا لاستكشاف حقيقة ما حصل كما تروي أخباره المادة التاريخية، وانما للبرهنة على صحة صورة مسبقة قامت على عقيدة سائدة من عقائد البحث ؛ ومثل هذا التطبيق هو انحراف عن الواقع وتشويه وتزوير ، فلو جمعنا كل ما لدينا من مواد تاريخية عن أعمال الفتوح العربية لوجدناها

خالية من أخبار تتحدث عن اية ازمات اقتصادية ومجاعات في الجزيرة زمن محمد وزمن ابي بكر ، ثم إن محمداً كان نبياً للاسلام ولم يكن نبياً بعث للعرب فقط ، نبياً وحد العرب من اجل نشر الاسلام ، واعتبر الجهاد هو العمل المراد فيه وجه الله واعلاء كلمته ، وليس غير ذلك .

ونحن حين نفحص أخبار الفتوح نجدها قد تمت على أيدي بشر

ارتبطت مثاليتهم بالواقع لا بالخيال ، فكان كل واحد منهم يقول : « إن لربك عليك حقاً ، وإن لجسمك عليك حقاً ، وان لزوجك عليك حقاً ، فاعط كل ذي حق حقه » ، ولعل سر نجاح العرب العظيم يكمن في العمل على الارض والقلب مشدود الى السماء ، فلقد استطاع عرب الفتوح ان يعملوا في سبيل دنياهم كأنهم يعيشون ابداً ، وكان هذا العمل الدنيوي عملاً في سبيل الآخرة ، كأن صاحبه كان سيموت غداً، فالاسلام أول عقيدة مزجت المفهوم الدنيوي بالمفهوم الديني ، فكان كل عمل يقوم به الانسان حتى متعته الفردية عملاً تعبدياً يمكن ان يتقرب به الى الله سبحانه .

على هذا لقد تحرك العرب لفتح العالم تبعثهم عدة بواعث بعضها أعلى من بعض ويتبعون عدة غايات بعضها ارفع من بعض، باعثهم الاول العقيدة، وغايتهم المثلى نشرها ، لكن هذا النشر من اجل سعادة الدنيا وهناء الحاضر ، وبسعادة الدنيا وهناء الحاضر يتحقق رضى الله والقرار في الجنة حيث الهناء الأبدي والسعادة السرمدية بلا عناء ولا شقاء .

ولنبدأ الآن بالحديث عن اشهر اعمال الفتوح ، وسنسوق هذه الاخبار جملة لا بتسلسل عهود الخلفاء ، ولما كانت الفتوحات قد تمت في البداية على جبهتين : واحدة شامية والأخرى عراقية ، فاننا سنعالج اخبار كل جبهة على حدة ، وسنبدأ بالحديث اولا عن جبهة العراق لاسباب جغرافية ثم لأن الأعمال العسكرية بدأت فيها اولا .

جبهة العراق :

كانت منطقة العراق خاضعة للامبراطورية الساسانية الفارسية ، وكانت هذه الامبراطورية قد ساعدت في عصور سابقة على قيام إمارة عربية في منطقة الحيرة ، لكن عند قيام الفتوحات العربية كانت إمارة

الحيرة ليست موجودة فعلا ، كما أن الامبراطورية الساسانية كانت في القرن السابع للميلاد تعاني من مشاكل داخلية سياسية أو اجتماعية واقتصادية خطيرة ، وكانت منطقة وادي الرافدين مرتعا للقبائل العربية منذ فترات طويلة سبقت القرن السابع ، كما أن سكان العراق وخاصة سواد الشعب في الأرياف والمدن كانوا من اصل ممتزج بالعرب ، وكانوا يكرهون الفرس وعلى استعداد للتعاون مع اية قوة تنقذهم منه ، ولقد كانت القبائل العربية تعيش في صراع دائم مع جيوش الامبراطورية الفارسية ، وعندما كان محمد يبشر بالاسلام حققت هذه القبائل نصرا كبيرا على الفرس في معركة ذي قار ، وكانت قبائل بكر بن وائل أعظم قبائل العرب المعادية للفرس، وعندما عم الاسلام شبه الجزيرة تأثرت هذه القبائل بالاسلام وتبناه عدد كبير من افرادها .

ومع قيام خلافة ابي بكر كان احد زعماء قبيلة شيبان من بكر بن وائل وهو المثنى بن حارثة قد أخذ لنفسه زمام مبادرة العمل العسكري ضد الفرس، وعندما قضي على حركة الردة أمر ابو بكر خالد بن الوليد بالتوجه نحو العراق والتعاون مع المثنى وكان هذا سنة ١٢ هـ / ٦٣٣ م ، وسبق للمثنى قبل وصول خالد اليه ان زار المدينة واجتمع بابي بكر ، فكتب هذا الخليفة عهداً فوض له بموجبه العمل لصالح المسلمين ضد الاراضي الفارسية .

وفي خلال أقل من عام واحد استطاع خالد بعاونه المثنى تحقيق عدد من الانتصارات على حاميات الحدود الفارسية مع القوات التي جاءت لنجدتها ، وتتوج عملهما بحصار مدينة الحيرة حاضرة المناذرة والاستيلاء عليها صلحا ، وقام أبو بكر بامداد خالد بقوات جديدة ، وجعله قائداً على لجميع القوات العربية في جبهة العراق، لكن مكوث خالد لم يطل في العراق حيث جاءته اوامر الخليفة بالتحول الى بلاد الشام حيث سيقوم بجليل أعماله التي ستعطيه شهرته التاريخية الواسعة .

وبعد تحول خالد الى الشام حل المثنى محله في قيادة قوات الجبهة العراقية وبقي المثنى فيمنصبه حتى توفي ابو بكر، وأثناء ولايته استطاع صد جميع المحاولات الفارسية التي ابتغت استعادة العراق وطرد العرب الى جزيرتهم، وبعد وفاة ابي بكر فيسنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ـ ٦٣٥ م استخلف عمر بن الخطاب ، وكان اول عمل عسكري قام به هو عزل كل من المثنى عن قيادة الجبهة العراقية ، وخالد بن الوليد عن قيادة جبهة الشام .

وانتدب عمر لقيادة الجبهة العراقية ابا عبيدا الثقفي ، وكانت أول اعمال ابي عبيد انتكاسة كبيرة للعرب كادت تخسرهم جميع ما حصلوا عليه في العراق من انتصارات ، وذلك في معركة الجسر في منطقة قس الناطف على الفرات ، وقتل في هذه المعركة جمع كبير من القوات العربية كان من بينهم ابوعبيدة نفسه، ولقد استطاع المثنى بفضل حنكته واقدامه تخليص العرب من الفناء ، والانسحاب بهم ، وقد أصابت المثنى في هذه المعركة جراحات بالغة .

واثرت هزيمة الجسر تأثيرا كبيراعلىمعنويات الجندالعربي، وظهر هذا عندما اخذ عمر يندب الفارس للذهاب الى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه حتى عم ان يغزو بنفسه ثم تمكن من تجنيد قوة صغيرة من قبائل الأزد وقبائل بجيلة ، وعندما وصلت هذه القوات العراق مكنت المثنى من الانتقام لهزيمة الجسر وذلك في معركة البويب، بعد نصر البويب توفي المثنى متأثرا بجراحه التي اصابته فيالجسر، ولقد حدثهذا كلهسنة ١٣هـ / ٦٣٤ ـ ٦٣٥ م، وهي السنة الاولىلحكم عمر بن الخطاب، ويعتبر المثنى من ابرز أبطال الفتوحات العربية ، وهو بحق مؤسس العراقالعربي وموجده .

وشجع نصر البويب العرب فأخذت قواتهم تتدفق من جديد على الجبهة العراقية ، واخذت هذه القوات تضغط بشدة على الامبراطورية الساسانية ، مما دفع هذه الامبراطورية الى تجنيد جميع طاقاتها لصد

العرب، فجمعت جيشا لجبا أوكلت قيادته لاعظم قادتها وضباطها، وكان على راسهم رستم ؛ وفعلت فارس ذلك بعد ان حلت معظم مشاكلها السياسية .

واثر زحف القوات الفارسية على القوات العراق العربية فاخذت تنسحب من مواقعها المتقدمة الى مواقع تلتقي فيها ، ووصلت عمر اخبار العراق المقلقة ففكر في تجييش قوة يقودهابنفسه، لكنه قرر اخيرا تعيين سعد بن ابي وقاص وتسييره الى العراق، والتقت القوات العربيةبالقوات الفارسية في أرض القادسية ، وكانت افضل تسليحا حيث اصطحبت عددا كبيرا من الفيلة . واشتبكت قوات الطرفين في معركة ضاريةللغاية استمرت ثلاثة ايام بلياليها ، وعندما تمكن العرب من التخلص من سلاح الفيلة انقلبت الموازين لصالحهم ، وقد اسفرت المعركة عن سحق القوات الفارسية ، وادى هذا الى سحق الامبراطورية الفارسية ومن ثم ازالتها من الوجود ، وتمت هذه المعركة على الأرجح سنة ١٥هـ / ٦٣٦ ـ ٦٣٧ م .

وقد منح انتصار القادسية غنائم كثيرة ، كان على راسها العراق ، وفتح هذا النصر الطريق امامهم نحو المدائن ، فاستولوا عليها ، واخذت بقايا القوات الفارسية تنسحب محاولة تجميع نفسها ؛ ومن ثم ايقاف الزحف العربي الهادف نحو تصفية الامبراطورية الساسانية ، واستغرق ذلك عدة سنوات وقعت خلالها معارك عدة كان آخرها واشهرها واكثرها اهمية معركة نهاوند وذلك سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م .

وتم اثناء عمليات التصفية تنظيم احوال مقاطعات الامبراطورية المقهورة وتكون ادارة عربية لها ، وزاد تدفق العرب من شبه الجزيرة على العراق، واقام العرب معسكرات دائمة لقواتهم في العراق، كان ابرز هذه المعسكرات اثنين هما البصرة والكوفة ، ومع الأيام تحول هذان المعسكران الى مدن ثابتة وكبيرة .

جبهة الشام

وحينما كانت الجيوش العربية نشطة ضد الفرس كانت تعمل ايضا ضد الدولة البيزنطية وقواتها فيبلاد الشام والجزيرة ثم في مصر وغيرها من المناطق، ولقد بدات الأعمال العسكرية ضد بلاد الشام منذعهد الرسول، وكانت آخر قوة جهزها قبل وفاته أراد ارسالها ضد بلاد الشام ثم توفي ، فكانت اول الجيوش التي تحركت زمن ابي بكر في مهمة شبه استطلاعية، وعلى الرغم من هذا فان حروب الردة قد عطلت العمل ضد بيزنطية في الشام لفترة وجيزة من الزمن ، وبعد الردة بدات الأعمال العسكريةهناك لكن بعد أن بدات في العراق بعدة اشهر .

ففي سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ م استنفر ابوبكر العرب فيبقاء الجزيرة وشكل ثلاثة جيوش ضم كل واحد منها ثلاثة آلاف ثم امدها الى أن وصلت الى السبعة، وجعل على رأس هذه الجيوش: يزيد بن ابي سفيان، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ، وأرفق هذه الجيوش عددا من مشاهير المسلمين والصحابة ، مثل : أبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن سعد بن العاص ، ويبدو أن مهمة ابا عبيدة كانت العمل كضابط ارتباط لهذه الجيوش الثلاثة وصلة وصل لها بدار الخلافة في المدينة ، ولم تتحرك هذه الجيوش كتلة واحدة ، وانما جاء تحركها على دفعات ، كل دفعة ذهبت في اتجاه معين ، ويرى البعض أن سبب ذلك يعود الى عدم وجود خطة واضحة في ذهن ابي بكر حول مهمة هذه الجيوش : فتح أم اعمال إغارة ؟ وأن أبا بكر كانت تصله قوات قبيلة ما من قلب الجزيرة فيدفعها نحو بلاد الشام تخلصا منها وحتى ترى حظها ، وكان يستجيب لتطورات الأحوال ويتجاوب معها .

والذي يبدو ان واقع الحال لم يكن هكذا ابدا ، فابو بكر مثله مثل القرشيين كان يعرف ديار الشام وبلدانها وأحوالها بشكل جيد ، وكانت لديه معلومات جيدة عنها كما كانت هناك دائما آمال مع خطط لفتح الشام وتحرير اراضيه من سيطرة بيزنطية ، وكان مما يشجع على ذلك احوال

بلاد الشام البشرية حيث انهاكانت عربية المشاعر، وعربية الجنس الطاغي مع الاعراق ، يضاف الى هذا احوالها الاجتماعية والدينية والاقتصادية مع ما كانت تعانيه بيزنطة من مشاكل وانقسامات سياسية وكنسية .

ولم يدفع ابو بكر القوات تخلصا منها انما كان وراء ذلك خطة عسكرية واضحة قامت على العقيدة الحربية لعرب الصحراء، وهذه العقيدة اخذت في اعتباراتها طبيعة المقاتل العربي واحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة على القتال مع طرق القتال ، وايضا طبيعة القوات البيزنطية من كافة النواحي .

لقد جند ابو بكر قواته من قبائل الجزيرة ، وكان افراد هذه القبائل يتقنون من الحروب الاعمال السريعة ، ولا يعرفون الالتزام بقوانين وقواعد للزحف المنظم، وكانت اسلحتهم خفيفة ومؤنهم قليلة للغاية، وبكلمة موجزة كانت قوات ابو بكر قواتا غير نظامية عليها ان تقاتل جيوشا نظامية لاحدى اعرق الامبراطوريات في معرفة الفنون القتالية ، ولذلك كانت أولى مهام القوات العربية تمزيق تجمع القوات البيزنطية ثم انهاك هذه القوات واضعاف معنوياتها واخيرا انزال ضربة قاصمة وسريعة بها وكان هذا ما حصل .

ارسل ابو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة لتبعث وتدمر كل بقعة ولتجبر قوات بيزنطية على التمزق والملاحقة للعدو بدون فائدة ، واثناء ذلك كانت القوات العربية تتجمع بين آونة واخرى لتنزل ضربات كبيرة مروعة بالقوات البيزنطية ، وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطية في اكثر من معركة كبيرة كلها مقدمة لمعركة فاصلة وقعت في اليرموك .

ويبدو أن جيش عمرو بن العاص توجه من المدينة سالكا الطريق الموازي لشاطىء البحر الأحمر نحو فلسطين من جنوبها ، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينة ـ تبوك ـ معان ، فوادي الأردن ، وكانت مهمة شرحبيل العمل في منطقة الاردن، ومهمة يزيد دمشق ومنطقتها، واصطدمت

هذه القوات بجيوش بيزنطية فهزمتها ، وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيما في حمص ، وعندما جاءته اخبار زحف الجيوش العربية وانباء انتصاراتها ، وهزائم نوابه حرك قوات ضخمة بقيادة أخيه تيودور ، ووصلت أخبار التحرك البيزنطي هذه الى العرب ، فكتب ابو عبيدة الى ابي بكر ، فكتب ابو بكر الى خالد بن الوليد : « أما بعد فاذا جاءك كتابي فدع العراق ، وخلف فيه اهله الذين قدموا العراق معك من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تاتي الشام فتلقى ابا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فاذا التقيتم فانت امير الجماعة ، والسلام عليك » .

واستجاب خالد للأوامر وتحرك نحو الشام فاجتاز الصحراء بسرعة مدهشة وكان عبوره الى الشام من اعظم الأعمال العسكرية واكثرها مغامرة وشجاعة ، وقد نتج عن هذا العبور نتائج كبيرة ، فقد ظهر بشكل مفاجىء في منطقة دمشق وجنوب بلاد الشام ، فهاجم بصرى وهزم حاميتها فصالح اهلها فاصبح سيد منطقة حوران واربك ظهور خالد المفاجىء هذا تيودور فكان سبب اخفاق مهمته ، وبعثت اعمال خالد النشاط والحماس بين صفوف القوات العربية ، ومن حوران ارسل خالد امراء الجيوش العربية وطلب منهم ان يلاقوه جميعا في منطقة اجنادين ليس بعيداً عن الرملة .

وفي أجنادين التقت القوات العربية المتحدة التي قاربت الخمس والعشرين الفا مع القوات البيزنطية لفلسطين وجيوش تودور ، وكانت هذه القوات تفوق القوات العربية عددا وعددا ، وهزم خالد البيزنطيين والحق بتيودور العار وجعله يفر نحو اخيه ، فسبب رحيله عن حمص نحو انطاكيا لجمع جيش جديد وارساله ضد العرب لمنعهم من التقدم شمالا .

وسقط حاكم فلسطين البيزنطي بين القتلى في أجنادين ، ولقد حررت هذه المعركة فلسطين من الحكم البيزنطي واعادتها عربية الشعب والحكم والعقيدة ، وهذه المعركة تشابه من هذه الزاوية في نتائجها معركة القادسية

بالنسبة للعراق ، وحدثت هذه الاحداث كلها سنة ١٢ هـ/٦٣٤ م في أواخر حياة أبي بكر .

وبعد اجنادين أصبح الطريق مفتوحا امام العرب للتحرك نحو دمشق وقبيل مشارف دمشق هزم العرب النجدات البيزنطية التي أرسلهاهرقل في معركتين عنيفتين للغاية في مرج الصفر خارج دمشق وفحل ، وطبقوا فيهما ببراعة عمليات الفصل بين مشاة العدو وفرسانه، ووصلوا بعد هذا اسوار دمشق واخذوا في حصارها .

وفي هذه الاثناء وصلتهم اخبار وفاة ابي بكر واستخلاف عمر ، وافتتح عمر عهده بعزل خالد عن القيادة العامة للقوات العربية في الشام، واحل ابا عبيدة بن الجراح محله ، ولم يحدث هذا العزل الذي عزي لأسباب كثيرة شخصية بحتة وعامة تتعلق بمصالح الأمة، لم يحدث تأثيرا كبيرا على وضع القوات العربية اذ بقي خالد القائد المؤثر والفعال حيث ان ابا عبيدة كان لايقدم على عمل الا بعد مشورة خالد ثم بعد ذلك كان يوكل اليه تنفيذ ما يشير به عليه .

وحاصر العرب دمشق لفترة طويلة سقطت بعدها سنة ١٤ هـ /٦٣٥ م وعقب سقوطها تحركت سراياهم شمالا فتجاوزت منطقة مدينة حماه واستمرت شمالا ، واخذوا يحكمون سيطرتهم على جميع أجزاء بلاد الشام ويطهرونها من الجيوب البيزنطية ، ويعملون في سبيل اعادة تنظيمها ، لكن بيزنطة ما كانت لتتخلى عن بلاد الشام دون أن تبذل كل ما بقي لديها من طاقات ، فجند هرقل جيشا عظيما للغاية ضم جنسيات الامبراطورية ؛ يونان وسوريين وغساسنة وارمن ، وزحفت القوات البيزنطية جنوبا تريد اقتلاع العرب وتحطيمهم ، وصلت اخبار التحرك البيزنطي الى ابي عبيدة وكان في منطقة حمص ، نعقد مجلسا حربيا ضم كبار قادة قواته وتباحث معهم في الامر فقرّ رايهم على الانسحاب الى موقع يمكنهم من السيطرة على الشام ومن التراجع نحو شبه الجزيرة ، وقرروا ايضا الكتابة الى عمر بوصف حالهم وبطلب المدد .

وانسحبت القوات العربية جنوبا متخلية عن جميع المدن والأراضي التي اخذتها ، وتجمعت هذه القوات في منطقة اليرموك ، وكان لهذا الانسحاب اثره على القوات البيزنطية ، حيث ولد الغرور في نفوس قادتها ، كما دفعهم الى انزال العقاب بجميع الذين تعاونوا مع العرب ، مما زاد من نفرة السوريين بالقرب من بحيرة طبرية في منطقة يجري بها نهر وادي الرقاد ، وكان ظهر الجيش العربي باتجاه الصحراء وجناحاه يحميهما جوانب وادي الأردن، وفي الأمام كان الجيش البيزنطي، ونشط خالد بن الوليد في اعداد خطط العرب نشاطا واسعا تجلت فيه عبقريته العسكرية ، وطبق خالد خططه بوعي وشجاعة ، واستطاع تحطيم أسلحة الجيش البيزنطي بعد فصلها عن بعضها البعض ، فجاء ذلك تحطيما للقوات البيزنطية كلها ، وكان ذلك في صيف سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م ، ولا ريب ان القوات البيزنطية كانت على الاقل ضعفي القوات العربية التي قدرت بخمس وعشرين الفا .

ومما لا شك فيه ان معركة اليرموك كانت احدى معارك التاريخ الانساني الكبرى ، لما نجم عنها من نتائج ، وبعد هذه المعارك عاد العرب فاستعادوا دمشق والمناطق التي استولوا عليها من قبل وتابعوا زحفهم شمالا حتى جبال طوروس ، وفر هرقل نحو القسطنطينية وهو يردد « وداعا ياسورية وداعا لالقاء بعده » ، فقد حررت اليرموك سورية من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي .

وبعد اليرموك استولى العرب على القدس ونظفوا جميع الشام من الجيوب البيزنطية واستولوا على قيسارية واخذوا يعدون العدة للتحرك نحو مصر ، وعندما احتل العرب جميع أجزاء بلاد الشام ، وبعد احتلال الجزيرة دخلت القوات العربية ارمينية واستولت على غالبيتها وعندما خضعت الشام والجزيرة للعرب جعلوا الشام ولاية منفردة وجعلوا من الجزيرة ايضا ولاية اخرى ، وقاموا بتقسيم الشام الى اربع مناطق

عسكرية دعيت كل واحدة منها باسم جند وهذه الأقسام هي : جند فلسطين ، جند الأردن ، جند دمشق ، جند حمص .[١]

ولم تكد بلاد الشام تخلص العرب حتى قرر الخليفة عمر بن الخطاب توجيه جيوشه نحو افريقية بدءاً من مصر ، وحرر العرب مصر ثم شمال افريقية وبعد هذا دخلوا اوربة فوصلوا حتى داخل ايطاليا وتوغلوا في اراضي فرنسة وسويسرة .



١ ـ قسم جند حمص في عهد يزيد بن معاوية الى قسمين هما : جند حمص وجند قنسرين .



العدد ١٦٧ كانون الثاني ١٩٧٦

العقيدة القتالية

لدى عرب القرن الحادي عشر الميلادي

د. سهيل زكار

يعتبر القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد قرناً في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ العالم ، ذلك أنه شهد حوادث محولة ما زالت آثارها ماثلة حتى أيامنا هذه ، وقد صنعت غالبية هذه الحوادث من قبل شعوب كانت حياتها أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة والاستقرار ، ففي أوربة كان تحرك النورمان ، وفي شمال أفريقية كان التحرك الذي تمخض عن قيام دولة المرابطين ، وفي المشرق كان تدفق التركمان من منطقة ما وراء النهر على خراسان والعراق ثم بلاد الشام وآسيا الصغرى .

ونجم عن هجرة التركمان إزالة السيطرة الغزنوية عن خراسان وقيام السلطنة السلجوقية ، وكان لهذا الحادث عظيم الأثر على مستقبل الدولة العباسية والعقيدة الإسلامية وكذلك بالنسبة للامبراطورية البيزنطية .

وكان طغرلبك أول سلاطنة البيت السلجوقي وقد توفي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م دون أن يعقب ولداً يصبح سلطاناً من بعده ، فكان أن خلفه ألب أرسلان وكان ابناً لأخيه جغري بك ، ويعد ألب أرسلان أعظم سلاطنة السلاجقة ، ففي عهده توطدت دعائم الامبراطورية السلجوقية ، وانساح التركمان في أراضي الامبراطورية البيزنطية ، ومنها ومن أعالي بلاد الرافدين دخلوا إلى بلاد الشام .

وكانت قوات التركان خفيفة مرنة ، رجالها يعتبرون الصحراء بمثابة الأب والام منهم ، كما هو الحال بالنسبة لسواهم ، وكانوا وقت الالتحام في القتال يقسمون قواتهم إلى فرق عديدة صغيرة تتحرك بليونة وتنساب بسهولة؛ ء ليس معها أثقال ولا مؤن ولا نساء ، هذا في حين كانت قوات خصومهم جيوشاً نظامية تتحرك بثقل وحسب النظم العسكرية ، وحين تتحرك يتحرك بحركتها الكثير من الأثقال والنساء والحاجيات ، لذلك كان أحد هذه الجيوش حين يدخل المعركة لا يستطيع التحرك بمرونة ولا يستطيع أن يقاتل وهو خالي البال ، بل يقاتل وخاطره مشغول بما لديه من ذخائر وأهل أكثر مما هو مصروف لربح المعركة والانتصار على الخصم ، يضاف إلى هذا ان التركان كانوا يفضلون جيوش خصومهم ليس بهذا فقط بل في الروح المعنوية ، مع البراعة في القتال وأيضاً في نوعية الأسلحة ، لقد كان التركاني فارساً يعتمد بالدرجة الأولى على قوسه ، يقوم بالهجمات الخاطفة على خصمه فيصرع فرسه أولا بأن يرميه ، ثم ينقض بعد ذلك على هذا الخصم المثقل بدرعه أو سابغته وأسلحته الثقيلة الخاصة التي يصعب استخدامها عليه وهو مترجل فيجهز عليه بسيفه أو دبوسه ، وإذا ما حدث وكان جيش الخصم مؤلفاً من فرسان ومشاة لحماية الفرسان ، كان التركان يجهدون في البداية لفصل المشاة عن الفرسان ومن ثم كان يتم الإجهاز على كل سلاح على حدة ، وتجلت فنون التركان القتالية هذه في عدة معارك كان على رأسها معركة دنداقنان التي انتزعت فيها خراسان من الدولة الغزنوية ثم بعد ذلك معركة منازدكرد ، كما ظهرت خلال جميع معارك الحروب الصليبية وخاصة في معركة حطين .

° ° °

ومع قيام سلطنة ألب أرسلان ازداد انسياح التركان في الأراضي البيزنطية معملين الدمار ويكفي أن نسوق هنا مثلا ما ذكره الصاحب كمال الدين ابن العديم في كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب في حوادث سنتي ٤٥٩ — ٤٦٠ ه / ١٠٦٦ — ١٠٦٧ م ففي هاتين السنتين : « طلعت طائفة كبيرة من الترك ، فنزل بعضها على دلوك — من نواحي حلب — وتقدم منهم نحو ألف فنهبوا بلد أنطاكية عن آخره ، وأخذوا نحو أربعين ألف جاموس ، وقيل أكثر ، حتى أن الجاموس كان يباع بدينار ، وأكثره بدينارين وثلاثة ، وأما البقر والغنم والمعز والحمير والجواري فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة ، وكانت الجارية تباع بدينارين ، والصبي بتطبيقة نعال لخيل ، وخرب بلاد الروم خراباً لم يسمع بمثله ، وبقيت الغلات في البيادر ما لها من يرفعها منهم ، حتى كان الفلاحون وسائر العوام يمضي الواحد منهم ويأخذ

ما يريد ، فلا يجد من يدافعه عن ذلك ، لأن الروم تحصنوا في الحصون والجبال والمغاير ، وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئاً » .

وأمام أعمال التركمان هذه جهدت بيزنطة التي كان امبراطورها الآن رومانوس دايجينوس Romanus Diogenes لإيقاف التركمان ومنعهم من غزو أراضيها ، وأرادت إغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الاستراتيجية الحصينة داخل الأراضي الإسلامية ، ولما كان التركمان ينفذون إلى داخل الأراضي البيزنطية ويخرجون منها من ثلاثة مناطق كانت هي : ثغور شمالي بلاد الشام ، وثغور أعالي الجزيرة ، وبلاد أرمينية ، فقد وضع رومانوس كما يبدو خطة تستهدف إغلاق هذه المنافذ على ثلاث مراحل ، وفي هذا السبيل قام بنفسه بقيادة ثلاث حملات ضد بلاد الشام وأعالي الجزيرة وحدود أرمينية وذلك في السنوات ٤٦١ — ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ — ١٠٧١ م ، وقد وجهت الحملتان الأول ضد أراضي إمارة حلب في الشام والجزيرة ، وكانت معركة مناز كرد الشهيرة نتيجة الحملة الثالثة ، وطبعاً كانت أهمها على الإطلاق لان نتائجها كانت حاسمة بالنسبة للعالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى وكانت سبباً مباشراً من أسباب قيام الحروب الصليبية .

ولم يكن للحملتين الأولى نتائج خطيرة ، وكل ما حصله رومانوس منها هو إعمال الغارة في أراضي حلب ، ثم لم ينجم عنها مع هجرة التركمان — حتى الآن — أي خطر حقيقي على الدول التي كانت قائمة في الشام والجزيرة ، ولكن الخطر جاء مع الحملة الثالثة ، لكن ليس بسببها ولا من الأراضي البيزنطية ، إنما من خراسان وبسبب ما كان يجري في مصر ؛ أو بالحري في القاهرة آنذاك ، فلقد كانت القاهرة تعيش في هذه الآونة فترة من المنازعات السياسية من أجل السلطة فيها ، وبغية التسلط على الخليفة الفاطمي المستنصر ، وكان ناصر الدولة الحمداني (أحد أحفاد ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل والأخ الأكبر لسيف الدولة ممدوح المتنبي وأمير حلب) أبرز أطراف النزاع في القاهرة ، وكان قد « قصد ابطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فندب الفقيه أبا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب ، وبعثه رسولا إلى السلطان ألب أرسلان أبي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان يسأله أن يسير إليه عسكراً ليقيم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى أبو جعفر إلى خراسان ، وبلغ السلطان ألب أرسلان رسالة ناصر الدولة ابن حمدان ، فتجهز من خراسان في عساكر عظيمة » وتحرك ألب أرسلان على رأس قواته غرباً ، وكان تحركه بطيئاً ، وعلى كل حال لم يكن

بإمكان ألب أرسلان ، بسبب طبيعة قواته وطبيعة الحواجز التي اصطدم بها ، لم يكن بإمكانه الوصول إلى مصر ، ولم يتجاوز أبعد من أسوار حلب .

وعندما كان السلطان معسكراً قرب أسوار مدينة حلب ، يفكر بالعودة شرقاً إلى خراسان وبعد العدة لذلك ، بلغته أخبار تحرك جيش بيزنطي هائل نحو بلاد الإسلام بقيادة الامبراطور رومانوس دايجينوس نفسه ، لهذا غير وجهته ، وانحرف شمالا لمواجهة هذا الجيش الزاحف ، ولقد تصدى ألب أرسلان لقوات بيزنطة واشتبك معها في أرمينية عند موقع اسمه مناز كرد (قرب بحيرة وان في تركية الآن) فهزمها ، ولولا هذا النصر المؤزر والخطير النتائج والتأثير لكانت حملة ألب أرسلان كلها بلا ثمرات .

ونظراً للأهمية القصوى لهذه المعركة ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى ، ولأنها تعدل — إن لم تفق — معركة اليرموك بالنسبة للعلاقات الإسلامية — البيزنطية ، ثم لما تجلى خلالها من عبقرية عسكرية وتطبيق رائع للتقاليد العربية الإسلامية في القتال فقد اخترتها للدراسة واتخذتها أنموذجاً ثانياً يوضح طرق تطبيق العقيدة القتالية عند العرب .

لقد مثل بيزنطة في هذه المعركة الامبراطور رومانوس دايجينوس ، ويعود في أصله إلى عائلة أوستقراطية عريقة أصلها من آسية الصغرى ، ولقد وجد دايجينوس نفسه منذ أن أصبح امبراطوراً في سنة ١٠٦٨ م يواجه عدة مشكلات داخلية وخارجية ، فأولى معظم وقته ، وصرف معظم طاقاته وطاقات امبراطوريته ووقفها للمشكلات الخارجية ، حيث أنها كانت أكثر إلحاحاً ، ولقد تمثلت المشكلات الخارجية في الخطر الذي أبرزه التركمان في هجرتهم وفي أعمال اجتياحهم للأراضي البيزنطية ، ومن أجل إيقاف التركمان ، ووضع حداً لتغلغلهم ، وتخريبهم للأناضول ، قاد رومانوس الحملتين المتتاليتين اللتين أتينا على ذكرهما ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لحملة كبيرة جداً أراد أن يجتث بها التركمان من بلاده فيكتسب بعض المواقع داخل الأراضي الإسلامية ليشحنها بالجند حتى يقفوا التركمان بالمرصاد ؛ وقاد رومانوس قواته التي أعدها تجاه أرمينية في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، ويبدو أنه أراد أن يستغل فرصة غياب السلطان ألب أرسلان في بلاد الشام .

وبعد ما بلغ السلطان ألب أرسلان نبأ تحرك القوات البيزنطية ، وأثناء عودته — أو اعداده العدة للعودة — شرقاً استقبل بعثة بيزنطية أرسلها الامبراطور رومانوس ، كان هدفها كما يبدو تضليل السلطان وإعاقته ثم التجسس بنفس الوقت ، ويبدو أن السلطان أدرك هذا ، فقام بدوره بتضليل البعثة ، وكان لهذا نتائج حاسمة على المعركة .

ويذكر المؤرخون العرب والسريان والإغريق أن البعثة حملت إلى السلطان عرضاً بأن يتخلى له الإمبراطور عن منبج في بلاد الشام وأن يدفع له جزية سنوية إذا ما أوقف السلطان الغارات ضد الأراضي البيزنطية ، ولقد قبل السلطان – الذي كان عاجزاً عن إيقاف هذه الغارات – بالعرض تفضيلا ، وليس لأنه كان يخشى من الاصطدام معه تقديراً بأن قواته لن تستطيع منازلة الجيش البيزنطي العرمرم ، هذا ومن المفيد أن نبين بأن السلطان لم تكن لديه آنئذ مطامع بالتوسع الخارجي بل كان همه محصوراً في بسط نفوذه وسيطرته على بلدان العالم الإسلامي ، ويبرهن على هذا أنه لم يحاول – بعد نصره الساحق في مناز كرد – الذي نحن بصدد الحديث عنه – استغلال هذا النصر ، وإنما جهد في التعجيل لإيجاد تسوية عاجلة مع رومانوس ، ثم عاد إلى بلدان العالم الإسلامي وتابع جهده في مد سيطرته عليها حتى لقي حتفه .

ولم ينفذ الاتفاق ، وبحثاً عن أسباب ذلك نجد المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسللوس الذي عاصر الأحداث وشارك في المعركة يقول : « بدلا من تنفيذ الاتفاق ، وحيث أنه – أي الامبراطور – كان يائساً ، أو لأنه كان واثقاً من نفسه أكثر مما ينبغي زحف إلى القتال »؟!

إن في كلام بسللوس هذا بعض الغموض وهو لا يفي بالغرض ، لكن على الرغم من هذا فإن الامبراطور عندما استأنف زحفه كان – كما يبدو – قد صنع ذلك إنما وهو موقن بأن النصر سيكون حليفه ، وربما فعل ذلك بناء على المعلومات التي نقلتها إليه بعثته التي عادت من عند السلطان ، فوصفت له رحيل السلطان شرقاً وحالة الفوضى التي حلت في جيشه أثناء الرحيل .

ويقول المؤرخ البغدادي غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء ، وهو ممن عاصر الأحداث : « وضجر السلطان من المقام بحلب ، فكر راجعاً ، فقطع الفرات ، وهلك أكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شبه صاحبه ، فقوى ذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه » .

لقد كان تراجع ألب أرسلان هذا « شبه الهارب » قد تم تبعاً للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغرير به ، فالتركمان كبدو كانت لديهم خططهم الخاصة ،في الزحف كما كان لهم مبادئهم المتميزة في فن السوقية العسكرية ، وتنطلق هذه المبادىء من الاعتماد على طبيعة البدو وخفتهم ومرونتهم في الحركة ، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة ، فيما يعطي القائد أمراً عاماً يحدد فيه لقواته البدوية نقطة تواجد ، وليلة لهذا التواجد ، ويندفع البداة زمراً وأفراداً في اتجاهات مختلفة ، وهنا يخيل للعدو أنهم تفرقوا إلى غير ما عودة ، لكنه لا يدري أن تفرقهم يفيد قائدهم بتحريره من قضايا التموين ، ثم يدمر أراضي العدو ويضلل

قيادته ويجبرها في كثير من الأحيان على توزيع قواتها ، ثم عندما تصطدم أولى طلائع قوات البدو بجيوش عدوها ، يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خططه لسحق بضعة آلاف من البدو ، ولكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل إلى أضعاف مضاعفة ، لذلك يتملك الارتباك قيادته ، وتنهار معنويات قواته ، ويتم عامل المفاجأة ، ويسهل تحقيق النصر خاصة إذا أدركنا استمرار تدفق قوات البدو ساعة الالتحام مما يرجح الكفة ويحسم القتال .

هذا ما طبقه ألب أرسلان ، حيث جعل القيادة البيزنطية تقرر الإقدام على القتال ونبذ الاتفاق والمصالحة بناء على معلومات وهمية غير صحيحة ، ثم عندما التقت قواته لأول مرة بقوات رومانوس كان عددها أقل بكثير من القوات البيزنطية ، ولكن بعد مضي ليلتين تضاعفت هذه القوات ذلك أن ألب أرسلان وصل إلى قبالة الامبراطور رومانوس في يوم أربعاء واشتبك معه ظهيرة الجمعة ، وكسباً للوقت والمعلومات ، وقبل أن يحدث الاشتباك أرسل السلطان بعثة لمقابلة الامبراطور والتفاوض معه وذلك من حيث الظاهر ، لكن لاستكشاف أحوال الجيش البيزنطي من حيث الواقع .

فلقد كان الجيش البيزنطي كبيراً للغاية قدرته المصادر العربية فجعلته يتجاوز المليون مقاتل ، ثم إن هذا الجيش كان مؤلفاً من عدد من الجنسيات غير المتجانسة ذلك أنه كان « لا يفهم الحداث — فيه — إلا التراجم » وكان من أبرز جنسيات هذا الجيش مجموعة من الخزر الوثنيين ، وكان هؤلاء أتراكاً من حيث الأصل واللغة لا يدينون بالإسلام أو سواه من حيث العقيدة ، يضاف إلى هذا أن عدداً من ضباط رومانوس كانوا قد عقدوا مؤامرة ضده قرروا فيها التخلي عن القتال ساعة الالتحام ، والتراجع إلى القسطنطينية ، للاستيلاء على السلطة وتعيين امبراطور جديد غير رومانوس .

لقد اتصلت بعثة السلطان بالامبراطور وعرضت عليه الهدنة فرفض في صلف وغرور ، وأثناء ذلك اتصل رجال البعثة بزعماء المرتزقة الخزر وتم الاتفاق على أن يتخلوا ساعة الالتحام عن الجيش البيزنطي والانضمام إلى أبناء جلدتهم .

هذا ومن غير المعقول ان يصدق المرء أن تعداد الجيش البيزنطي كان من الضخامة كما وصف ، ذلك أن المصادر العربية أرادت أن تقول بأن النصر الذي حصل عليه السلطان كان عبارة عن معجزة سماوية وكرامة للسلطان الملك العادل ألب أرسلان واستجابة لدعاء المسلمين له بالنصر يوم الجمعة .

ومن المستبعد أن تكون المعركة قد حصلت فعلا يوم جمعة ، ثم إنه لم يكن هناك أية معجزة سماوية وكل ما في الأمر أن قوة بيزنطية لم تتجاوز المئة ألف قد لاقت قوة تركانية لم يقل عددها عن الخمسين ألف مقاتل مع عدد من المزايا تم شرحها وأخرى سقين .

فلقد كانت قوات ألب أرسلان من الفرسان الرماة ، وكانت القوات البيزنطية مؤلفة من الفرسان الثقال مع المشاة ، وقامت خطة ألب أرسلان على مبدأ فصل المشاة عن الفرسان (يمكن تشبيه الفرسان الثقال بدبابات العصر الحالي التي تفقد الكثير من قيمتها بدون حراسة من المشاة ، كما أنه لا قيمة كبيرة للمشاة بدون دبابات) وقتل خيول الفرسان ثم القضاء على المجموعتين كل على انفراد .

لقد أحسن ألب أرسلان استغلال طبيعة الأرض لصالحه فأقام كائن على أطراف جيشه كانت مهمتها التحرك ساعة الالتحام لانجاح عملية الفصل بين المشاة والفرسان ، كما أقام كائن خلفية كان عليها الانقضاض على فرسان العدو بعد ابتعادهم عن المشاة .

وبدأت المعركة بأن وقف السلطان ألب أرسلان على رأس قواته التي اصطفت خلفه ، وكان حال القوات البيزنطية مماثلا ، وحدث تراشق بالنبال بين الطرفين ثم اندفعت قوات الفرسان البيزنطية ، فقامت القوات السلجوقية بالتراجع لفتح ثغرة تمر منها قوات الفرسان دون أن تحقق هدفها ، وتم التراجع السلجوقي بطريقة اتفاقية مكنته من تطويق سلاح المشاة البيزنطي وفصله عن الفرسان ، وهنا تخلى المرتزقة الخزر عن البيزنطيين كما انسحب قسم كبير من الجيش البيزنطي وتخلى عن المعركة ميمماً صوب القسطنطينية ، وترك رومانوس في لجة من الفوضى والدمار ، فقاتل حتى أصابه الإعياء فسقط أسيراً في يد التركان ، فكان أول امبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم .

وكانت المعركة قصيرة لكن حاسمة فيها تحطمت قوى بيزنطة العسكرية ، وهكذا رسمت الخطوط الأولى لنهاية الامبراطورية البيزنطية والبداية الفعلية لتحول أراضيها إلى أراض تركية : في هذه المعركة أخذت شمس بيزنطة تميل بسرعة نحو الغروب في حين أخذت شمس امبراطورية اسلامية جديدة تستعد للاشراق ، وفيها تقرر وفاة الامبراطورية الرومانية المسيحية الشرقية وولادة الامبراطورية الإسلامية العثمانية .

وكانت الغنائم التي حازها التركان أكثر من أن تحصى ، ولم يحاول ألب أرسلان استغلال نصره المؤزر هذا بمطاردة فلول البيزنطيين ، والزحف على القسطنطينية نفسها ، بل اكتفى

بأن أحضر رومانوس إلى حضرته ، وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : ألم أرسل إليك رسل الخليفة أطال الله بقاءه في امضاء الهدنة فأبيت ؟ ألم أرسل إليك بالأمس أسألك الرجوع فقلت : قد أنفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت إلى ها هنا وظفرت بما طلبت ، فكيف أرجع إلا أن أفعل ببلاد المسلمين مثلما فعلوا ببلادي ؟ ولقد رأيت أثر البغي ! وكان قد جعل في رجليه قيدين ، وفي عنقه غلا ، فقال : أيها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الأجناس ، وأنفقت الأموال لأخذ بلادك ، ولم يكن النصر إلا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا ، فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما تريد ، فقال له السلطان : فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي ؟ فقال : القبيح ، فقال : آه والله صدق ، ولو قال غير هذا لكذب ، هذا رجل عاقل جلد ولا يجوز أن يقتل ، ثم قال له : ما تظن الآن أن أفعل بك ثم قال : أحد ثلاثة أقسام : أما الأول فقتلي ، والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، وأما الثالث فلا فائدة في ذكره فإنك لا تفعله ، قال : وما هو ؟ قال : العفو عني وقبول الأموال والهدية – أي الجزية – واصطناعي وردي إلى ملكي مملوكاً لك وبعض اسفهسلاريتك – ضباطك – ونائبك في الروم ، فإن قتلك لي لا يفيدك ، هم يقيمون غيري .

فقال السلطان : ما نويت إلا العفو عنك فاشتر نفسك ، فقال : يقول السلطان ما يشاء ، فقال : عشرة آلاف ألف دينار ، فقال : والله إنك تستحق ملك الروم إذ وهبت لي نفسي ، ولكن قد أنفقت أموال الروم واستهلكتها منذ وليت عليهم في تجريد العساكر والحروب وأفقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد إلى أن استقر الأمر على ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وفي الهدنة (الجزية) على ثلاثمائة ألف دينار وستين ألف دينار في كل سنة ، وأن ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة إليه ، وذكر أشياء فقال : إذا مننت علي عجل سراحي قبل أن تنصب الروم ملكاً غيري فيفوت المقصود ولا أقدر الوصول إليهم فلا يحصل شيء مما شرطته علي ، فقال السلطان : أريد أن تعيد أنطاكية والرها ومنبج ومنازكرد فإنها أخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن أسارى المسلمين ، فقال : أما البلاد فإن وصلت سالماً إلى بلادي أنفذت إليهم العساكر وحاصرتها وأخذتها منهم وسلمتها إليك . . . . وأما أسارى المسلمين فالسمع والطاعة إذا وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فأمر السلطان بفك قيوده وغله ، ثم قال أعطوه قدحاً ليسقينيه ، فظنه له فأراد أن يشربه ، فمنع ، وأمر بأن يخدم السلطان ويناوله القدح ، فأومأ إلى تقبيل الأرض ، وناول السلطان القدح فشربه ،

وجز شعره ، وجعل وجهه على الأرض . . . . فلما كان من الغد أحضره السلطان وقد نصب له سريره ودسته الذي أخذ منه ، فأجلسه عليه ، وخلع عليه قباءه وقلنسوة وألبسه إياها بيده ، وقال له : قد اصطنعتك ووثقت بأمانتك وأنا أسيرك إلى بلادك وأردك إلى ملكك ، فقبل الأرض . . . . . وعقد له السلطان راية فيها مكتوب « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وأنفذ معه حاجبين ومائة غلام . . . وركب معه وشيعه قدر فرسخ ، فأراد أن يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه إليه وتعانقا ، وعاد السلطان عنه »

ولقد أخفق رومانوس في دخول القسطنطينية ، وجهد بعد ذلك من أجل الوفاء بما التزم به للسلطان ، ومن أجل استعادة عرشه فأخفق وفقد حياته .



٥ ٥ ٥



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتّاب العرب ـ دمشق

العدد الثاني ـ السنة الأولى ـ أيلول / سبتمبر / ١٩٨٠

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ ـ هاتف : ٦٦٧٢٩٩ ـ ٦٦٧٣٩٩

الخلافة:

دراسة ونص لابن مرزوق

د. سهيل زكار
كلية الآداب – جامعة دمشق

في التاريخ القريب من ظهور الاسلام بشبه جزيرة العرب كانت دولة النبي ﷺ، التي أسسها بعد الهجرة الى المدينة، هي أول دولة ذات سلطة مركزية، وقد رأس النبي طوال حياته هذه الدولة، وذلك بحكم النبوة وأحكام أخرى، وطوال حياة النبي لم تمر دولته بأية مشاكل سياسية داخلية ارتبطت بجماعات معارضة أو ماشاكلها فالنبي ﷺ تم اختياره من قبل الله تعالى، وحين أقام دولته في المدينة جمع الى صفه النبوة صفة رجل الدولة، وكانت المعارضة للنبي ضرباً من ضروب الكفر.

إنما حيث لاديمومة لإنسان، نجد أن النبي ﷺ يقع في السنة العاشرة لهجرته الى المدينة مريضاً، وطال مرضه وعظم، فلزم بيته وفراشه، ولم يعد يمكنه إمامة المسلمين في الصلوات، لذلك استخلف صاحبه الوفي، وحليفه القديم، أبا بكر، وأوكل اليه القيام بقيادة الصلوات الخمس.

ويبدو أن مرض الرسول، واشتداد هذا المرض خلقا في المدينة جواً من القلق والتوجس، حيث طرح الكثير من المسلمين أسئلة كثيرة حول مستقبل الاسلام والمسلمين، كما أثاروا مسألة قيادة الامة بعد النبي، ومن الواضح أن صدى هذه الامور كان ينقل الى النبي، وتوحي بعض المصادر بأن الرسول ﷺ أراد أن يضع حلاً للمشكلة [1]، لكن من المؤكد أنه لم يفعل،

---

١ – انظر مصنف عبد الرزاق: ٥ / ٤٣٥–٤٣٩. طبقات ابن سعد ٢ / ٢٥٠. صحيح البخاري: ٥ / ١٤٠ – ١٤١. سنن الدارمي: ١/٣٥ – ٣٦. تاريخ خليفة بن خياط: ١/٦٨.

وكل ما قام به هو التشديد بالوصية على التمسك بما جاء في القرآن ، ولذلك أسبابه ..

ويبدو أنه أثناء مرض الرسول ﷺ ، اجتهدت جماعات من المسلمين لايجاد حلول في مواجهة الازمة المقبلة وعلى هذا ، يمكن تقسيم عرب الجزيرة من حيث التفكير والتخطيط أثناء مرض النبي ، وعقب وفاته مباشرة الى الفئات التالية :

١ ــ فئة مسلمة كان ايمانها خالصاً ومحضاً، آمنت قديماً ، وظلت تؤمن بأن الاسلام رسالة ينبغي أن تستمر وتدوم وتنتشر في كل بقاع العالم ، لذلك وضعت الخطط لمواجهة كل طارىء، وكانت تدرك قوتها وضعف الفئات الاخرى ، وتعرف مكانتها القبلية والاقتصادية والاسلامية، وقد مثل هذه الفئة : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح .

٢ ــ فئة مسلمة كان ايمان بعض أفرادها قديما لاتشوبه شائبة ، وقد ضمت أسرة النبي وآله ، وكانت هذه الفئة قليلة الرجال ، تعاني من تناقضات خفية ، وأهم أفرادها علي بن أبي طالب، وعمه العباس ، وقد شغل مرض النبي أفراد هذه الفئة ، وحال ذلك ، مع أمور أخرى ، بينها وبين التحرك السياسي ، والتخطيط لتولي السلطة ، ولربما ظنت أن الامور لن تسير بسرعة، كما حدث ، وأن المسلمين لن يقدموا على عمل دون مشاركتها وأخذ آرائها بعين الاعتبار .

٣ ــ فئة مسلمة ، ربما كانت متضايقة من فقدانها لنفوذها ، وسيطرتها على مدينتها،خططت للعودة بالامور السياسية الى ما كانت عليه قبل الهجرة ، ومثل هذه الفئة سكان يثرب من الأوس والخزرج ، الذين عرفوا باسم الانصار ،وتجلت خططهم هذه واستعداداتهم في اجتماع سقيفة بني ساعدة ، بعد حدوث وفاة النبي مباشرة .

٤ ــ فئة حديثة الاسلام ، رأت أن من مصلحتها بقاء الاسلام واستمراره ، ورأت في وفاة النبي ﷺ فرصة يمكن أن تستغل ، ويستفاد منها في ركوب تيار الاحداث ، وتوجيهه فيما بعد لمصلحتها ، ومثل هذه الفئة سكان مكة والطائف من قريش وثقيف ، خاصة رجال المال والتجارة منهم ، ومن يقرأ تاريخ الاسلام منذ مقتل عمر بن الخطاب يرى كيف نجح رجال هذه الفئة في التحالف الارستقراطي القرشي الثقفي ، فسيطروا على الاسلام ودياره ، وحولوا ثورته لمصلحتهم ومصلحة طبقتهم ، وذلك بقيام الدولة الاموية ، وحتى بحلول الدولة العباسية محلها ، فالعباس كان انتماؤه الطبقي الى الارستقراطية ، وكان خدن أبي سفيان ، وقد أسلما في مناسبة واحدة .

٥ ــ فئة ضمت قبائل بادية شبه الجزيرة ، وأعرابها ، وقد دانت غالبيتها بالطاعة للنبي محمد ﷺ على غير طوع ، وظلت طاعتها له طاعة لزعيم، ولم تكن طاعة لدولة عقائدية ذات نظام مركزي. لذلك ما إن توفي هذا الزعيم ، حتى شعرت بانحلال كل روابطها بجماعته . يضاف الى هذا أن كثيرين من زعماء القبائل ، وحتى بعض النساء الطامحات ، فقد رأت في النبوة ظاهرة « مودة » يمكن تقليدها واستخدامها وسيلة للزعامة ، ومرقى الى السيادة ، لذلك وجد بين العرب من

ادّعى النبوة في الايـام الاخيرة للنبي ﷺ ، وأصبحوا من الكثرة بمكان ، وبرزت دعاويهم الى الوجود بشكل ظاهر بعد وفاته •

وفي ضحى يوم الاثنين « لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول ، ويقال لليلتين خلتا منه »[1] لسنة إحدى عشرة للهجرة توفي رسول الله ﷺ ، وما إن انتشر خبر وفاته ، حتى تجمع الانصار في ضاحية المدينة تحت سقيفة كانت لبني ساعدة ، وقرروا اختيار سعد بن عبادة أميراً ••• وبلغ خبر الاجتماع الى مسامع أبي بكر وعمر وأبي عبيـدة ، فقرروا التحـرك بسرعة وذكاء وشجاعة ، فنجحوا في إحداث انقلاب سياسي في المدينة ، كان الاول والآخر من نوعه ، ونجح هذا الانقلاب بسبب عوامل داخلية وخارجية • وحين تحرك هؤلاء الرجال ، كانوا يعرفون أنه لايوجد خطر سريع يخشى أمره من المهاجرين من آل النبي لانهم شغلوا بمصابهم ، وشغلوا أنفسهم بتجهيز النبي ﷺ وكانوا يـدركون أن الخطر يكمن في تحرك الانصار ، لكن التحرك الانصاري كان من الممكن تقويضه بإثارة بعض النعرات ، وبعث بعض التناقضات بين الاوس والخزرج ، ذلك أن الزعيم الذي سينتخبه الانصار ، سيكون فرداً من إحدى القبيلتين ، وحينئذ يمكن اثارة القبيلة الثانية ، ودفعها للمعارضة ، وهذا ما كان•

يضاف الى هذا ان الصدِيق مع صـاحبيه كانوا يعرفون أن المدينة تحولت بعد الهجرة اليها من مدينـة يثرب ، موطن الاوس والخـزرج واليهود ، الى مدينة رسول الله ، ومنزل الاسلام والمسلمين من مهاجرين وانصار ، ذلك أن المهاجرين كانوا قد غدوا من الكثرة والقوة والغنى بمنزلة تفوق في كثير من الاوجه منزلة الانصار •

وكان ابو بكر وصاحباه يخشون الفتنـة ، ويكرهون سفك الدماء ، وتفتيت صفوف الامة ، كما كانوا يعرفون أنهم هـم ، دون سواهم ، بإمكانهم أن يحوزوا رضى سواد عناصر المسلمين وتأييدهم ، وخاصة جماعة المهاجرين والمكيين ، لانهم كانوا من زعماء قبائل قريش ، وذوي الثراء فيها قبل الاسلام ، وكان دخولهم الاسلام عـن قناعة كاملة واخلاصهم واستماتتهم في سـبيله أثر في رفع مكانتهم عن ذي قبل ، ومعروف أنه منذ بداية الاسلام وابو بكر هو « ثاني اثنين » وأن عمر بن الخطاب غدا ثالثهما لحظة دخوله في الاسلام •

وحين سمع أبو بكر وصاحباه بخبر اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة ، تحركوا نحـو مكان الاجتماع ، وفي طريقهم حـذّروا من مخاطر ذلك ، لكنهم تابعـوا طريقهـم وعندما وصلوا مكان الاجتماع ، وجدوا سعد بن عبادة ، أحد زعماء قبيلة الخزرج ، قد أُعد لينصَّب أميراً ، وكان سعد آنذاك مريضاً ، لايقوى على التحرك ، ولايقدر على رفع صوته • لـذا عندما أخذ في الكلام ، قام أحد أهله بترديد كلامه ، واسماعه للمجتمعين ، أوضح سعد ، أن النبي محمداً ﷺ ما كان ليكتب له النجاح لولا مناصرة الانصار له ، ولذلك فأمر الحكم بعده خليق بهم وحقيق ، وختم كلمته بقوله مخاطباً قومه : « استبدّوا بهذا الامر فإنه لكم دون الناس » •

---

١ ـ تاريخ خليفه : ٦٨/١ .

واتفق أن وصل ابو بكر وصاحباه الى مكان الاجتماع وكان قد ختم سعد كلامه ، وأحدث وصولهم مفاجأة ، لذلك بادر أحد الانصار بطرح السؤال التالي : « فإن أبت مهاجرة قريش ، فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الاولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الامر بعده ؟ فقالت طائفة من الانصار مجيبة له : فإنا نقول إذاً : منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الامر أبداً ، فقال سعد بن عبادة حين سمع هذا : « هذا أول الوهن » .

وتفجرت هنا ضجة كبيرة ، وثار جدل طويل متشعب ، فوقف ابو بكر خطيبا ، فبين أن القضية ليست مشكلة اختيار أمير للمدينة ، بل مشكلة مستقبل الاسلام ، وضرورة انتخاب حاكم للامة كلها ، ترتضيه غالبيتها ، ومعظم أفرادها ، والمسلمون لا يرتضون إلا أحد أفراد قريش .

وأثارت خطبة أبو بكر هذه ردة فعل بين المجتمعين ، وقام أحد الانصار فتهدد المهاجرين بقبول ما يقرره الانصار طوعاً أو كرها ، فرد عليه عمر رداً عنيفاً ، وفي ذروة الجدل هذه تخلى بعض أقرباء سعد بن عبادة عنه لامور في نفوسهم ، وتهامس زعماء الاوس فيما بينهم فقالوا : « والله لئن وليّتها الخزرج عليكم مرة ، لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا ابدا » ، وهنا قام أبو بكر فقال : « هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا » .
وفي هذه اللحظة « كثر اللغط ، وارتفعت الاصوات » وفقد النظام بين المجتمعين ، وانهار مؤتمر الانصار ، وأخفقت خططهم ، وعندما حصل هذا ، وقبل أن تتفرق الجموع ، وقف عمر ، بقامته المديدة ، وصرخ بصوته المرتفع بالقوم ، ثم تقدم من أبي بكر قائلا : « ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده » فبايعه قائدا جديداً للأمة ، وتقدم بعض الموجودين ، فقلدوا عمر بما فعله ، وتقدم عمر من سعد بن عبادة يريد ضربه ، وعمر يقول : « اقتلوه قتله الله ، وتنبه أبو بكر لهذا فقال : « مهلاً يا عمر ، الرفق هاهنا أبلغ ، فأعرض عنه عمر » ومضى سعد الى داخل بيته ، ليسافر الى الشام ، فيموت في أحوال غامضة .

وانفض الاجتماع ، وتفرق الناس ، ولربما لم يأخذ معظمهم ما حدث من بيعة لابي بكر مأخذ الجد .

ويبدو أن ما حدث استغرق سحابة النهار ، وعاشت المدينة ذلك اليوم وتلك الليلة في رعب شديد ، ومع اطلالة يوم الثلاثاء بادر الناس الى المسجد لاستطلاع الاخبار ، وعندما امتلأ المسجد ، صعد أبو بكر المنبر ، ووقف عمر الى جانب المنبر ، وتحدث معلنا للمسلمين ما حدث في اجتماع السقيفة ، وشارحاً لما تم فيه من انتخاب أبي بكر ، ثم ختم كلمته بقوله : « إن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ ثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوه » ، فاستجاب الناس ، وبايعوا أبا بكر ، وعقب البيعة ، وقف أبو بكر ، فأعلن في بيان

قصير سياسته وخططه ، وبيّن أنه سينفذ أوامر الله ورسوله دونما تجاوز .

وفي هذا الوقت كان خبر وفاة الرسول ﷺ ، قد انتشر الى خارج المدينة ، وقد ترامى الى المدينة أن بعض القبائل قد ارتدت عن الاسلام ، وأنها تعد العدة لغزو المدينة بغية نهبها ، فازداد الرعب بين سكان المدينة ، وكادت الفوضى أن تستولي عليها .

ولليوم الثاني على التوالي استنفد النهار . وأهل المدينة في شغل شاغل ، وأهل النبي بات يهمهم دفن النبي ، وفي صبيحة يوم الاربعاء خرج العباس بن عبدالمطلب على الناس وخاطبهم قائلاً : « خلوا بيننا وبين صاحبنا فإنه يأسن كما يأسن الناس » وهنا تقرر دفن النبي حيث مات، إذ كان من المتعذر اتخاذ جنازة رسمية ، فسوّغ هذا جريان القاعدة بدفن الانبياء حيث يقبضون، كل هذا رغم أنه قال قبل وفاته بخمس : « إنه من كان قبلكم اتخذوا بيوتهم قبوراً ، ألا وإني أنهاكم عن ذلك ، ألا هل بلّغت ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد » [1] .

وكان اللقب الذي شهر به أبو بكر بعد تسلمه لزمام السلطة لقب خليفة ، كما أنه تبعاً لذلك عرفت المؤسسة التي قامت إثر ذلك بمؤسسة الخلافة ، فمن أين جاءت هذه التسمية التي لم تذكر أثناء مناقشات السقيفة ، إذ إن الالفاظ التي استخدمت كانت لفظتي : أمير ، ووزير ، ثم بعد هذا ماهي صلاحيات الخليفة في البداية وكيف تطورت هذه الصلاحيات مع مرور الزمن ؟

في الحقيقة لايمكن البحث في مسألة الخلافة ، وتطور أسسها ، ثم التحول في مفاهيمها السياسية والعقائدية ، دون أن تتعرّف المنطلقات السياسية لاصول الادارة عند العرب قبل الاسلام ، ثم تتبين كيف تطورت هذه الاصول ، واستبدل بها منطلقات جديدة ، بعد قيام الاسلام، وتحقيق انتصاراته الاولى ، وتأسيس دولته .

ولابد لنا ، عند الشروع بمثل هذا العمل، أن نجد أنفسنا ملزمين أن نعود نحو مكة لتعرّف أحوال الحكم والسياسة فيها بشكل أساسي ، ثم أحوال بقية أجزاء شبه جزيرة العرب ، حاضرها وباديها .

لم تعرف مكة قبل قيام الاسلام الحكومة المنظمة بأي شكل من أشكالها ، وحدود سلطاتها، بل أديرت شؤونها من قبل كبار التجار ، وممثلي كبار الأسر القرشية ، ودعي هؤلاء باسم الملأ ، وكان الملأ يعقد الاجتماعات عندما تدعو الحاجة، في دار مخصصة ، دعيت باسم دار الندوة ، وكان لمكة عدد من الشعب « الوظائفية » ، وزعت كل واحدة منها على أسرة من أسر قريش

---

١ ـ مصنف عبد الرزاق : ٥/٤٣٣ ـ ٤٣٥ ابن سعد ١/٢٢٥ ـ ٥٠٣ ، ٢/٢٤١ . تاريخ خليفة : ١/١٣ ـ ٧٦ . الطبري : ٢/٣٩٥ ـ ٦٥٧ ، ٣/ ٩ ـ ٢٢٣ . ابن : ١/٤٦٧ حتى نهاية الكتاب .

البارزة ، دون أن يكون هناك أية هيئة حاكمة ، أو وظيفة ثابتة ومحددة ، تتمتع بصفة من صفات الشرعية ، كما أن مكة لم تعرف أي نوع من أنواع الكهنة ورجال الدين الذين يمارسون الفصل في القضايا ، وإدارة الامور ، كذلك لم تعرف هذه المدينة أي نوع من أنواع القوة المسلحة الدائمة والشرط . وصحيح أن زعماءها كانوا يجتمعون أحيانا للتداول في القضايا والمشاكل في دار الندوة ، أو مكان آخر ، غير أن القرارات التي كانت تتخذ لم يكن لها صفة الإلزام ، إنما كان الاخذ بها اختياريا وفرديا ، هذا وكان اجماع زعماء مكة على أمر من الامور شيئاً متعذراً في كثير من الاحيان ، وكثيرا ما كانت المدينة تنقسم في مواقفها من القضايا ، فتعقد التحالفات المتضادة داخلها ، وفي النهاية كان النصر غالباً للحلف الاقوى ، أو للتسوية والمصالحة .

وفي كتب الاخبار والسير أحاديث طويلة ، حول بعض القضايا التي واجهها مجتمع مكة ، وحول أحلاف هذا المجتمع ، ويستفاد من بعض الاخبار ، أنه وجد لدى المكيين مفهوم واحد للشرعية الواجب الالتزام بأوامرها مهما كانت ، وارتبط هذا المفهوم بالكعبة التي كانت موضع إجلالهم وتقديسهم ، فعندما كان يجمع غالبية الزعماء المكيون على أمر من الامور ، كانوا يدونون ما أجمعوا عليه في صحيفة ، ثم يعلقون هذه الصحيفة في جوف الكعبة ، وهنا يأخذ الامر صفة الشرعية . ومن أوضح الامثله حول هذا ، ماعمله المكيون حين أعلنوا صحيفة مقاطعة بني هاشم ، التي اضطرت هؤلاء الى التزامها ، فتركوا مكة ، وأقاموا محصورين في شعب أبي طالب ، وعاشوا في ظل المقاطعة ، حتى مزقت الصحيفة [1] .

لاشك أن أمر التزام شرعية الاوامر التي كانت تعلق في جوف الكعبة قد ارتبط بقدسيتها، حيث اعتبرها القرشيون مع عرب الجزيرة بيت الله الحرام ، وهكذا كان القرار المعلق نصه في جوفها يكسب صفة علوية إلهية ، وهذه مسألة في غاية الخطورة بالنسبة لاصول فكرة الشرعية ، والحكم في الاسلام .

ومع قيام الاسلام ، وبعد التبشير به ، لم يحدث تغيير جوهري فيما كان سائداً في مكة ذلك أن النبي لم يمارس أية سلطات في هذه المدينة ، حتى لربما على الذين آمنوا به وبرسالته، ولم يَعْدُ أن كان مسموع الكلمة ، محترماً ، ومتبع الرأي بينهم .

وقد تبدل هذا الحال كلياً بانقضاء الفترة المكية ، وهجرة المسلمين الى المدينة حيث عمل النبي ، الذي أصبح بالاضافة الى صفة النبوة ، يتحلى بصفة زعيم الامة ، وحاكمها المطلق ، النابعة أحكامه من إرادة الله . عمل هذا النبي على انشاء أمة جديدة ، ذات تقاليد وقواعد

---

١ - سيرة ابن اسحق : ٦٢ - ٧٠ ، سيرة ابن هشام : ١/٣٥٠ - ٣٧٧ . طبقات ابن سعد ١/٢٠٨ - ٢١٠ . تاريخ الطبري : ٢/٢٣٥-٢٤٣ البدء والتاريخ : ٤/١٥٣ - ١٥٤ . هذا واستمرت عادة تعليق صحف المعاهدات والوصايا وغيرها في جوف الكعبة بعد قيام الاسلام ، ولعل من اوضح الامثلة على ذلك ما فعله هارون الرشيد حين قام بتولية أولاده العهد من بعده .

جديدة ، فلأول مرة في حياة مجتمع الشمال في شبه جزيرة العرب ، لا بل في مجتمع الجزيرة كله ، قامت تجربة جديدة للحكم ، مركزية السلطة ، لها قانون وشرعة ، حاكمها يملك وحده ـ لانه رسول الله ونبيّه ، لاينطق عن الهوى ـ له الحق في التشريع • ويقع على عاتقه في الوقت نفسه واجب تنفيذ الاحكام ، ولم يكن تطبيق هذا الرضا به من قبل العرب ، من الامور السهلة ، لكن رغم ذلك ، نجح النبي الى ابعد الحدود في إرساء قواعد لحكم الامة الجديدة التي أقامها ، وإن كان لم يأت بنظرية للحكم ذات أسس ، ومنطلقات ثابتة واضحة ••••

هذا وقد تناول بعض الكتّاب هذه القضية ، حيث يرون أن النبي قد أتى بنظرية خاصة في الحكم والسياسة ، هي نظرية الشورى ، معتمدين على ما جاء في القرآن الكريم من آيات فيها « وأمرهم شورى بينهم » و « شاورهم في الامر » ، وقبل اطلاق عنان الخيال حول مرامي هاتين الآيتين ، وتحميل الامر اكثر مما يحتمل ، لابد لنا من وقفة •••

فقد جاء في سيرة ابن اسحق ـ ١٧٥ ـ « عن زيدبن أسلم : كان أصحاب رسول الله ﷺ على ثلاث فرق : فرقة بالمدينة ، وفرقتين بمكة ، فرقة كانوا يؤذون بمكة عشر سنين ، فيعفون عن المشركين ، وفرقة كانوا إذا أوذوا انتصروا منهم ، فانزل الله عز وجل عليهم جميعا فقال : « والذين يجتنبون كبائر الإثم » « وهو الشرك » « والفواحش » « وهو الزنا » وإذا ماغضبوا هم يغفرون » ، هؤلاء الذين كانوا لاينتصرون من المشركين ، « والذين استجابوا لربهم وأقاموا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » الذين كانوا بالمدينة لم يكن عليهم أمير ، كان رسول الله بمكة ، وهم بالمدينة يتشاورون في أمرهم « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون [1] » هؤلاء الذين انتصروا ••••

وحين أمر النبي بأن يشاورهم في الامر ، لم يبين القرآن قواعد الشورى هذه وحدودها وطرق تطبيقها ، كما لم يبين الى أي حد كان على النبي الاخذ برأي أصحابه واتباعه ، وعندمايعود الباحث الى كتب السيرة والسنن والمغازي يجد أن مفهوم هذه القضية لم يكن واضحاً عند أحد من الصحابة ، كما لم تتوضح معالمه في الممارسات العملية زمن النبي ، فحينما كان النبي يستشير أحد أصحابه ، أو بعضا منهم ، كان الجواب الاول « الله ورسوله أعلم » وعندما كان النبي يلح في السؤال ، كان جوابه سؤالاً عما عند الوحي في ذلك ، أو عما عنده هو شخصياً في ذلك ، حتى يأتي الجواب منسجما ، أو منطلقا من ايحاءات السؤال ومناحيه •

لقد ملك النبي وحده جميع فروع السلطة من تشريع وقضاء وإدارة وجباية وأعمال حربية ، وذلك بالاضافة الى صفته الاساسية وهي النبوة • وهكذا امتزجت مفاهيم السلطات الزمنية بمفاهيم السلطات الدينية في الاسلام ، وصار كل أمر في الدولة العربية الناشئة مزدوج الصفات زمنياً ودينيا • ولم تعرف دولة النبي التوظيف والموظفين الدائمين ، بل كان النبي

---

١ ـ الشورى (٣٨/٣٩/٤٠)

ينتدب أحيانا بعض أصحابه فيكلفهم ببعض الوظائف حين يبتعد هو شخصيا عن المدينة ، أو يرسلهم لتنفيذ بعض المهام ، مثل جباية الصدقات ، أو تفقيه الناس بالاسلام ، وإمامتهم بالصلوات ، أو تنفيذ مهمات عسكرية • وكان الذي ينوب عن النبي في إمامة الصلوات يدعى خليفة النبي ، وكان قائد الحملة العسكرية يسمى الامير • ولما كانت القوات التي يقودها هذا الاخير مؤلفة من المؤمنين ، تقوم بتنفيذ مهمة ضد جماعات غير مؤمنة ، فقد كان القادة العسكريون المسلمون يميزون عن قادة الاعداء بإضافة عبارة المؤمنين الى عبارة أمير بحيث تصبح « أمير المؤمنين »[1] •

وكان الخليفة على الصلوات يؤدي الصلاة ، كما يؤديها النبي ، دونما زيادة أو نقصان ، ذلك أن الخليفة هو النائب عن الاصيل الملتزم كلياً ماعهد اليه من أوامر وتعاليم •وكانت صلاحيات أمير الجيش أوسع من صلاحيات الخليفة ، ذلك أن قيادة العساكر تستوجب دائماً الطاعة المبرمه ، وتعطي القائد فرص التصرف ، وابداع الحلول ، واصدار مايراه ضرورياً من أوامر وتعليمات • ففي حين حرم الخليفة من صلاحيات التشريع ، منح ذلك الامير ، وتمتع به على قاعدة المصالح المرسلة •

ومع اتساع رقعة دولة النبي الجديدة ، وتحقيق المزيد من الانتصارات ، تعاظمت مسؤوليات الحكم ، ورافق هذا تقدم النبي بالسن ، فأخذت آثار المرض ، وما عاناه خلال حياته تظهرعليهجلية ، وهنا ـ كماسبق وبيّنا ـ أخذ بعض المسلمين يفكر في مستقبل العقيدة ، وفي شؤون الحكم في الدولة ، ومع مرض النبي الاخير أصبحت هذه المسألة هاجساً جثم على صدور المسلمين ، وأثيرت هذه القضية قبل موت النبي • وتوحي بعض الاخبار أنه حاول وضع الحل لهذه المسألة ، لكن مرضه وأموراً أخرى حالت بينه وبين ذلك[2] ، هذا من جهة ومنجهة أخرى يرى البعض أنه ما كان بامكان النبي أن يوصي بالحكم من بعده لشخص محدد ، أو يبين حتى شكل الحكومة بصورة مفصلة ، لان مرضه ، وظروف العرب السياسية ومفاهيمهم ، مع تركيبهم الاجتماعي ، ما كان ليسهل تنفيذ أية وصية • يضاف الى هذا أن في الوصية تحديداً تأباه الايام وتطور العصور ، مع اختلاف البقع والشعوب ، وبذلك يتعارض مع قاعدة عالمية العقيدة الاسلامية • كما أن في تسمية ولي عهد للنبي اسباغاً للشرعية والقدسية الابدية ، وفيه إقامة لاسرة مالكة ذات حق إلهي • وهذا قطعاً يتعارض مع مبادىء الاسلام وعقائد النبي التي قضت بأن النبي آخر الانبياء والاسلام خاتم الرسالات ، كما يرفضه تطور التاريخ وكلنا يعلم الحدود التي استغلت فيها بعض الاشارات العرضية ، مثل استخلاف النبي لابي بكر على الصلوات ، ومثل حادثة غدير خم • ويكفي لتبيان هذا استعراض بعض كتب السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة وسواهم في مسائل الإمامة والخلافة ، ومشاكل الخلاف بينها •

ويمكن حسم هذه القضية عندما تتذكر

---

١ ـ التراتيب الادارية : ١/ ٢ ـ ٨

٢ ـ مصنف عبد الرزاق : ٥/٤٣٥ ـ ٤٣٦
صحيح البخاري ٥/ ١٤٠ ـ ١٤١ .

أن الحاكم في دولة النبي ، وهي دولة الاسلام ، هو الله تعالى ، والنبي اختاره الله تعالى رسولاً ، وهكذا ظل طوال حياته ، وهو لم يُقم باختيار الله حاكماً ، والنبوة كل لايتجزأ ، وحيث أنه كان آخر الانبياء ، لم يكن ممكنا له أن يورث نبوته أو جزءاً منها أي مخلوق ، كما أنه كان من المحال بالنسبة له تسمية حاكم للأمة ، مهما صغرت صلاحياته أو كبرت ، يحكم من بعده ، لان في ذلك خروجا على القواعد والشريعة ، وحاشى له ﷺ أن يفعل ذلك .

لقد بين لأصحابه دائماً ، وشدد على ذلك وهو على فراش الموت ، أن في القرآن وسنته كل ماينير السبيل أمامهم ، ومن تمسك بالقرآن والسنة تمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ولا ضلال معها .

وسلفت الاشارة الى أنه عندما اشتد بالنبي مرضه الاخير ، وألزمه الفراش قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس »[1] وبهذا الامر ، صار أبو بكر « خليفة رسول الله على الصلوات » ولعله شهر آنذاك بهذا اللقب ، وعرف بصيغته المختصرة « خليفة » ، فكان عندما توفي النبي يعرف بهذا اللقب ، وظل يعرف به حتى بعد تسلمه للسلطة يوم السقيفة ، واذا صح هذا ففيه تبيان لاصل لقب الخلافة ، وجواب للتساؤل الذي طرح في مطلع هذا البحث .

وبتسلم أبي بكر لمقاليد الحكم أصبح منصب الخلافة منذ ذلك الحين رسميا وأساسيا في الحياة السياسية للأمة الاسلامية ، بينما لم تكن له في البداية أية هوية واضحة المعالم والأسس .

وحاول أبو بكر في أول خطبة له بعد بيعته ، تحديد معالم منصبه الجديد ، منطلقا من مفهوم كلمة « الخلافة » اللغوي ، ومن قاعدة الاستخلاف على الصلاة ، أي أن الخليفة نائب ملتزم كل الالتزام أوامر المنيب وأفعاله ، وشكل تصرفاته ، وظهر هذا في قوله : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وان زغت فقوموني »[2] ، وظل أبو بكر طيلة فترة حكمه يعرف بخليفة رسول الله ، ذلك أنه لم يحتج الى تبديل لقبه ، لان مدة حكمه كانت قصيرة ، لم تحدث فيها مشاكل جديدة تحتاج الى تشريع . وهكذا مكث أبو بكر طيلة عهده يعتبر نفسه نائباً عن النبي ، منفذاً لكل ما جاء به ، ويرى نفسه أنه لا يملك أية صلاحيات تشريعية ، كما لايملك اجبار المسلمين على ركوب خطة لم يحدد معالمها النبي والقرآن الكريم .

ومات أبو بكر والحالة هذه من حيث الجوهر بدون تغيير ، لكن في أواخر أيام حياته اتسعت رقعة الدولة العربية فشملت مناطق خارج شبه الجزيرة ، كما أنه تجمع في الاقاليم المفتوحه قوات عربية مسلحة ، لاريب أنها أخذت تتطلع

---

١ ـ مصنف عبد الرزاق : ٥/٤٣٢ـ٤٣٣ . ابن هشام : ٢/ ٦٥٢ ـ ٦٥٣ . ابن سعد : ٢ / ٢١٥ ـ ٢٢٤ صحيح البخاري : ٥/ ١٣٧ . الطبري : ٢ / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

٢ ـ الطبري ٢/٢٢٤ .

نحو اسماع صوتها ورأيها في السلطة وشكل الحكم •

وكان الحل جاهزاً عند أبي بكر ، لقد كان هناك عمر بن الخطاب ، ثالث رجالات الامة الاسلامية بعد النبي وأبي بكر ، وقام أبو بكر قبيل وفاته بكتابة عهد أوصى بموجبه بالخلافة من بعده لعمر • وصحيح أن وصول عمر للسلطة بعد أبي بكر كان أمراً بديهيا بالنسبة لمعاصريه ، لكن مايهمنا هنا هو كتاب الوصية ، فأبو بكر كان أول من سمّى ولي عهد له في الاسلام •

وتسلم عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر ، وقام بمتابعة أعمال الفتوحات ، واقتضى هذا منه استنفار كافة البالغين من أفراد الامة الاسلامية ، بحيث شكلت الامة جيشاً من المؤمنين ، ابن الخطاب أميره الاول ، هذا واستجد في عهد عمر مشاكل لم يكن للمسلمين عهد بها ، مثل قضية توزيع أراضي سواد العراق ومشاكل الغنائم الاخرى ، وقضية نصارى تغلب ، حيث رفضوا دفع الجزية ، مع مسألة المؤلفة قلوبهم ، وغير ذلك كثير • واقتضى الحال الآن مواجهة هذه القضايا وإبداع حلول لها ، وكان الاقدام على ذلك من قبل عمر ، فمنح نفسه بعض الصلاحيات التشريعية ، وكان هذا ما قام به •

لقد أوقف عمر عمليات توزيع السواد ، وأعفى نصارى تغلب من دفع الجزية مقابل مضاعفة الصدقة عليهم[1] وألغى الدفع لجماعة المؤلفة قلوبهم • وحين أقدم عمر على هذا فأوقف الحكم بقوانين سابقة ، وأحل محلها قوانين جديدة ، كان يفعل أمراً لم يصنعه أبو بكر ، ولذلك لم يعد عمر والحالة هذه خليفة بمعنى النائب ، بل تصرف كتصرف أمير الجيش ، الذي رسم له قائده خطة ، وأعطاه تعليمات خاصة ، لكنه في ساحة المعركة ، وأثناء التطبيق وجد من الضروري تعديل بعض بنود الخطة ، ومخالفة بعض التفاصيل ، إنما دون المساس بالجوهر والغايات الاساسية •

ولعله لقيام هذا الحال تخلى عمر عن لقب خليفة ، ليكتسب لقب « أمير المؤمنين » ، وفي هذا التغيير (مؤشرات) تدل على تبدل جوهري في المفاهيم السياسية للدولة الاسلامية ، لاسيما وأن العرب المسلمين كانوا قد اختلطوا بشعوب كانت خاضعة لفارس وبيزنطة قبل خضوعها للعرب ، فتركت بعض التأثير •

ومع امتداد الايام ، واتساع رقعة الدولة ، وبروز المشاكل الجديدة ، أصبح الناس أكثر تقبلاً لاعطاء الخليفة صلاحيات أوسع في التشريع ، ولاريب أن عمر بن الخطاب كان متنبها لذلك سلباً وايجابا ، لذلك بحث عن قاعدة ليرتكز عليها في المستقبل ، غير أن اغتياله المفاجىء ، جاء ليمنعه من إتمام هذا الامر •

وبعد موت عمر ألمَّ بمؤسسة الخلافة تغييرات كبيرة • تجلت في عصر عثمان ثم أيام خلافة علي ، وأخيرا ، لكن ليس آخرا ، في استيلاء معاوية على مقاليد السلطة ، وانتزاع لقب الخلافة لنفسه • وقامت قوى كثيرة تعارض معاوية وحكم الاسرة التي أسسها ، وغالبا ماقاد

---

١ ـ خراج ابي يوسف : ٢٨ ـ ٤٧ •

المعارضة أحد أفراد الاسرة العلوية أو سـواهم من قريش وغيرها ، وظراً لاختلاط المفاهيم في الاسلام فقد تحولت حركات المعارضة تدريجيا من حركات سياسية الى حركات دينية سياسية ، وفي الاسلام يحمل القائد الديني لقب الإمام ، لذلك بـرز الى الوجـود مؤسسة جديدة هي مؤسسة الإمامة •

* * *

إن الحديث عن هذا المجمل بشكل مفصل ينبغي أن يفرد في بحث آخر قائم بذاتـه ، لأن البحث الحالي ، جاء أساساً كمقدمة لنص عن الخلافة ، وهذا النص يشكل واحداً من بين مالا يمكن حصره من النصـوص التي كتبها المسلمون في السياسة والحكم والتاريخ ، وجاء اختيار هذا النص لاسباب وجيهة منها :

أن صاحبه يعود الى العصر المريني المتأخر ، وهو عصر نهاية الاندلس ، كما أنه عصر متميز بالكتـابات السياسـية والفكريـة والتاريخية والدينية بشكل عام • ذلك أنه بالأساس ، عندما ورث بنـومرين دولة الموحـدين العقائدية ، اضطروا إلى اتباع سياسة دينية خاصة • ذلـك أنهم لم يملكوا النسب القرشي ، كما أن سندهم القبلي لم يكن متيناً ، لهذا أولى بنو مرين علماء المالكية عنايةكبيرة ، وحرصوا علىسياسة الجهاد في الاندلس والظهور بمظهر العدل وغير ذلك من مظاهر التدين •

يعرف صاحب هـذا النص باسـم ابن مرزوق ، وقد جعله مقدمة لكتابـه « المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن » ، وقد عاصر ابن مرزوق لسان الدين ابن الخطيب كما عاصر ابن خلدون ، وكان مثلـه في الحياة والتجربة ، حيث عاش في المغرب والاندلس ، وتونس وأخيرا مصر ، كما زار الحجاز والشام• وعلى ذلك كانت تجربته إسلامية شمولية فيها الغرب والشرق ، وفيها نظـام الملك المريني ، الحكم الغرناطي ، والحفصي ، والمملوكي •

وابن مرزوق هو محمد بن أحمد ، شـهر بالجد ، ولقب بشمس الدين ، ولـد بتلمسان مابين « ٧١٠ — ٧١١ هـ » ، وأسرته كانت من أسر تلمسان الدينية ، وظيفتها الخدمة في ضريح أبي مدين • ولي تلمسـان ، وكانـت سكناها بالعباد في ضاحية هذه المدينة ، ولقي ابن مرزوق منذ بداية حياته العناية من أبيه ، حيث دفع الى خيرة الشيوخ ، كما رافق أباه في رحلته الـى المشرق ، وجاور معه في مكة ، ثم رجع معه الى القاهرة ، فأقام بها ، وقرأ على عدد من شيوخها، ثم عاد الى المغرب الاوسط • وفي تلمسان التقى بالسلطانالمريني أبي الحسن علي «ت : ٧٥٢هـ» فالتحق بخدمته ، وأصبح متقدماً فيبلاط المرينيين الجديد في فاس • وقد تقلّد ابن مرزوق آنئذ عدة مناصب وسفرالىاسبانية الاسلامية وكذلك الى المسيحية ، ويبدو أن السلطان أراد أن يكتب بيده ربعة ليقفها على المسجد الحرام في مكة ، فأخذ ابن مرزوق يساعده ، ثم حدثت أمور أدت الى ذهاب المُلْك من أبي الحسن ، وصارت السلطنة بعده في فاس لابنه أبي عنان فارس (ت : ٧٥٩ هـ) وعانت بلاد المغرب الاقصى آنئذ مع الاوسط من مشاكل واضطرابات كثيرة

حول الحكم وغير ذلك ، وكان لابن مرزوق دوره في الاحداث ، إلا أنه تمكن من الالتحاق بأبي عنان في فاس ، وصار من رجاله المقربين . وبعد فترة سفرعنه الى تونس ، ولم تكلل سفارته بالنجاح ، لذلك أودعه أبو عنان في السجن ، لكنه لم يمكث به طويلاً إذ أطلقه قبيل وفاته .

وبعد وفاة أبي عنان بعدة أشهر نال أخوه أبو سالم ابراهيم السلطنة في فاس ، فقرب ابن مرزوق ، وجعله الشخصية الاولى في دولته ، لكن هذا السلطان لم يمكث في الحكم إلا « سنتين وثلاثة أشهر ، وخمسة أيام » حيث اغتيل في مؤامرة تمت في قصر السلطنة ، وحل محله أخوه أبو عامر تاشفين ، وحلت النكبة بابن مرزوق حيث أودع السجن ، مع النية لقتله والتخلص منه .

ومن سجنه أرسل ابن مرزوق الى السلطان الرسالة التالية :

الحمد لله على كل حال .

أخرج الطبراني في منسكه ، وأبو حفص الملائي في سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم ، أنهما قالا : وقف رسول الله ﷺ على الثنية ، التي بأعلى مكة ، وليس بها يومئذ مقبور ، فقال : يبعث الله من هاهنا سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولاعقاب، ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، فقال أبو بكر : من هم يارسول الله ؟ فقال : هم الغرباء من أمتي، الذين يدفنون هاهنا .

ففي هذا الموضع دفن والدي رحمه الله ، وبعد سماعه هذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه ، أفتراه لايشفع فيمن أقال عثرة ولده ، أفما يشترى هذا بأموال الارض ، أفلا يراعى لي ثمانية وأربعين منبراً في الاسلام شرقاً وغرباً وأندلساً ، أفلا يراعى لي أنه ليس يوجد من يسند الاحاديث الصحاح سماعاً من باب الاسكندرية الى البربر والاندلس غيري ،وقراءة عن نحو من مائتين وخمسين شيخاً ، والله ماأعلمه، لكن حرمني الله منه ، فنبذت الاشتغال به ، وآثرت اتباع الهوى والدنيا ، فهويت ، اللهم غفرانك ، أفلا يراعى لي مجاورة نحو اثني عشر عاما ، وختم القرآن في داخل الكعبة ، والاحياء في محراب النبي ﷺ ، والإقراء بمكة ، ولا أعلم من له هذه الوسيلة غيري ، أفلا يراعى لي الصلاة بمكة ستاً وعشرين سنة ، وغربتي بينكم ، ومحنتي في بلادي على محبتكم وخدمتكم ، من ذا الذي خدمكم من الناس ، يخرج على هذا الوجه ، أستغفر الله ، أستغفر الله ، استغفر الله من ذنوبي ، ذنوبي أعظم ، وربي أعلم ، وربي أرحم والسلام .

إن هذه الرسالة مرآة لعصر بني مرين ، كما فيها بيان لقدر ابن مرزوق ومكانته في الدين والدنيا ، ولهذا أطلق سراحه ، وسمح له بمغادرة المغرب الى تونس ، حيث التحق بخدمة ملكها ، ثم ما لبث أن توجه الى مصر ، وفي القاهرة المملوكية التحق ابن مرزوق بخدمة السلطنة ، « ولم يزل مقيما بالقاهرة ، موفر الرتبة ،معروف الفضيلة ، مرشحاً لقضاء المالكية ، ملازما

للتدريس في وظائفه الى أن هلك سنة احدى وثمانين » .

وأثناء اقامة ابن مرزوق بالقاهرة ، تقلبت الاحوال في دولة بني مرين حتى آلت السلطنة الى أبي فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن (ت : ٧٧٣ هـ) ، وأثناء حكم هذا السلطان علم ابن مرزوق بأن السلطان أمر باعداد الربعة التي كان أبوه قد كتبها ليرسلها لتوقف باسم أبيه في بيت الله الحرام ، وكان حنين ابن مرزوق للعودة الى بلاط فاس الجديد شديداً ، لذلك ما إن علم بذلك حتى أعد نفسه ورشحها لتكلف بمهمة مرافقة الربعة ، فقام بكتابة كتاب تحدث به عن سيرة السلطان أبي الحسن وألح على علاقته به ، وضمن هذا الكتاب مادة سياسية هامة ، كما أودع فيه مادة تاريخية خطيرة ، ودعا هذا الكتاب باسم « المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن »[1] .

ولم يفلح مسعى ابن مرزوق ، لكن كتابه هذا الذي صنفه في القاهرة وبعث به الى فاس ، انتشر في المغرب ، وحفظت بعض نسخه ، وقد تنبه بعض الباحثين حديثا لاهمية هذا الكتاب ، فقام المستشرق ليفي بروفنسال بانتخاب المادة التاريخية الواردة فيه ، ونشرها سنة ١٩٢٥ في باريس ، وقد اعتمد في عمله على نسخة خطية محفوظة الآن في مكتبة دير الاسكوريال في اسبانيا ، ويوجد من هذا الكتاب نسخة جيدة محفوظة الآن بالخزانة العامة في الرباط ، اطلعت عليها ، وقمت بنسخ مقدمتها ، التي تحدث بها ابن مرزوق عن الخلافة ، إنما ينبغي ألا يفوتني هنا القول بأن عملي هذا وعمل بروفنسال قبله، ينبغي أن يؤخذ كتذكرة تنبه الى أن مسند ابن مرزوق ، كله ، ينبغي نشره ، ذلك أن هذا الكتاب كتب جميعه لغرض واحد ، وضمن معطيات محددة ، ولا يمكن معرفة ذلك تماما إلا بنشر هذا الأثر الثمين بشكل محقق علمياً لاتجاريا .
وتخيرت حصره في مقدمة ، وأبواب وخاتمة ، وسميته :

« المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن . »

أما المقدمة فتشتمل على فصول .

الفصل الاول – في حقيقة الخلافة

أما لغة ، فموضوع هذا اللفظ : هو القائم مقام غيره ، من قولهم : خلف فلان فلاناً ، والخلف بتحريك اللام ، من الصالحين[2] ،

---

١ – التعريف بابن خلدون . ط . القاهرة ١٩٥١ : ص ٤٩ – ٥٥ . الحلل الموشية في الاخبار المراكشية : ط . الدار البيضاء ١٩٧٩ : ص ١٧٩ – ١٨٠ . البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان . ط . الجزائر ١٩٠٨ : ص ١٨٤–١٩٠ الاحاطة في أخبار غرناطه . ط . القاهرة ١٩٧٦ ٥ / ١٠٣ – ١٣٠ . الديباج المذهب : ط . القاهرة ١٩٧٦ : ٢/٢٩٠ – ٢٩٦ . نفاضة الجراب . ط . القاهرة : ص ٢٣ ، ٣١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٦٣ – ١٦٦ – ١٩٠ – ١٩٣ ، ٢٣٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ – ٢٧٨ . جذوة الاقتباس : ط . الرباط ١٩٧٣ : ١/٢٢٥ – ٢٢٧ . نفح الطيب . ط . القاهرة ١٩٤٩ ٧ / ٣٠٩ – ٣٣٨ – الاستقصا . ط . الدار البيضاء ١٩٥٤ : ٢/١٢٧ الاعلام للمراكشي . ط . الرباط ١٩٧٦ : ٥ / ١١ – ٢١ .

٢ – كتب فوقها بالاصل : كذا .



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتّاب العرب ـ دمشق ـ العددان ٤ ـ ٥ السنة الثانية

عدد خاص يصدر بمناسبة

الذكرى الألفية لابن سينا

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ ـ هاتف : ٦٦٧٢٩٩ ـ ٦٦٧٢٩٩



عصر ابن سينا السياسي

الدكتور سهيل زكار

كلية الآداب ــ جامعة دمشق

لدى تأملنا تاريخ الدعوة العباسية نلاحظ أنه حتى أيام ابراهيم الامام قامت الدعوة على ركنين أساسيين هما الدعوة والدعاة (الحزب) وبيت الامامة ، وعندما قرر ابراهيم الامام تفجير الثورة في خراسان كلف أبا مسلم الخراساني هذه المهمة وقام بارساله الى خراسان ، وبهذا العمل أدخل ابراهيم الى جسم الدعوة ركنا ثالثا هو ركن الجيش ، فبوساطة أبي مسلم الخراساني وجيش الثورة ربحت الدعوة العباسية خراسان ثم العراق وبعد ذلك أنزلت الهزيمة بمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في معركة الزاب الحاسمة ٠

وقبل معركة الزاب كان لجيش الثورة شأن حاسم في الضغط على أبي سلمة الخلال داعي دعاة الدعوة العباسية ووزير آل محمد (السكرتير الاول لحزب الدعوة العباسية) للقيام باختيار أبي العباس السفاح واعلانه اماما مهديا وأول أمير مؤمنين للاسرة الجديدة ٠

وتظهر بعض الأبحاث الحديثة أن الذين أسسوا « حزب الدعوة » العباسية كان جلهم بالاصل من جماعات دهاقين ايران وخراسان الساسانية، وأن هؤلاء استهدفوا اسقاط الخلافة الأموية واقامة سلطة جديدة برئاسة أسرة قرشية كانت مطامحها السياسية ضئيلة ، لذلك كان من الممكن أن تقبل بالتعاون على أساس أن تملك دون أن تحكم ، فقد أراد حزب الدهاقين أن يتولى السلطة الفعلية بوساطة رئيسه الذي أطلق عليه لقب « وزير

آل محمد » فالوزير هو حامل وزر المسؤولية عن آل محمد ، وهو حين يقوم بمسؤوليات السلطة يمارس وظيفة الخليفة في ظل إمام مكانته دينية فقط ٠

وهذا المفهوم مستعار من فكر المعارضة الشيعية ، فقد قال الشيعة بأن علياً ورث النبي صلى الله عليه وسلم كلياً ، ورث فيه النبوة فكان اماما وورث فيه الحكم والادارة فكان يستحق أن يكون خليفة ، لكنه حين أبعد عن السلطة أبعد عن الخلافة وظل محتفظاً بالامامة ، لأن الامام هو قائد الأمة ، والأمة في القرآن واللغة هم « أصحاب الدين » و « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ٠

وقبل العباسيون باديء ذي بدء بشخص السفاح هذه الأمور ، لكن ما إن قامت الخلافة العباسية حتى صار السيد الفعلي للخلافة أبو جعفر المنصور ، وكان أسن من السفاح ، وأكثر طموحاً وأعظم ثقافة وتجربة وحنكة ، وقد أراد المنصور الامام العباسي أن يملك ويحكم ، وحتى يتم الوصول الى هذا الهدف سافر المنصور الى خراسان حيث استطاع اقناع أبي مسلم الخراساني بالإقدام على إحداث انقلاب محدود ضد « حزب » الدعوة العباسية لانتزاع استقلال السلطة من رئيسه ، وهكذا أرسل أبو مسلم عدداً من جنده الى الكوفة حيث أقدموا على اغتيال أبي سلمة الخلال في وضح النهار في أحد طرق الكوفة الرئيسية ٠

بهذا الانقلاب حصل الامام العباسي على حق الحكم والسلطة ، لكن مع ابقاء حزب الدعوة ممثلا في منصب الوزير ، وخلال عصور عدد من خلفاء بني العباس الاوائل حاول الوزراء تغيير هذه الحال والاستقلال بالسلطة ، وفي ساعة الاقدام على ذلك كان الخليفة يقوم بانقلاب محدود ، وهكذا نرى أن غالبية وزراء العهد الاول ماتوا قتلا ، وقصة البرامكة تحوي شهادة واضحة كل الوضوح ٠

ان استخدام الجيش في أعمال « الانقلابات » ضد « حزب الدعوة » شجع عدداً من كبار القادة على التفكير في الوصول الى منصب الامامة أو الاستقلال بمنطقة من ديار الخلافة ، أو التحكم بمؤسسة الخلافة مباشرة ونجد في حياة كل من عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني وماقاما به في أيام أبي جعفر المنصور مايوضح هذه المسألة ٠

وهذا يشير الى أن الخلفاء الاوائل باستعانتهم بالجيش في حل مشاكل السلطة السياسية شجعوا الجند على الاقدام على التدخل في السياسة ،

على عمل خطير للغاية ، لعله كان أعظم الانجازات التي تمت في العصر لكن حدث أن تمكن هؤلاء الخلفاء بطرائق عدة من ابعاد الجيش ولو مؤقتاً عن الصعود الى مسرح السياسة ٠

وظاهرة الحكم في الخلافة العباسية جاءت غريبة ، فقد قامت السلطة على ثلاث قوى ، وكان من المفترض أن يقوم الصراع بين الحزب والجيش ويحكم الخلفاء من خلال عملية توازن بين قوتين متصارعتين ، ولكن الذي حدث هو الصراع بين بيت الامامة والحزب ، ولهذا كان الجيش هو المستفيد الأكبر الى حد أنه حاز السلطة ، وبالتالي كانت الخلافة والحزب ثم الأمة الخاسر الأعظم ٠

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقسم تاريخ الدولة العباسية الى طورين : طور حكم فيه الخلفاء ، وطور حكم فيه الجند ٠ وجيش الخلافة العباسية تطور بالأصل عن جيش الثورة الخراساني الذي مثلت فيه العناصر البشرية المتعددة في خراسان ، وقد حل محل الجيش العربي للخلافة الأموية ، ومالبث أن تحول الى جيش امبراطوري مثلت فيه عناصر ديار الخلافة كل منها بتقاليدها الخاصة في مجال التسليح والحرب ، فقد قامت تقاليد أتراك ماوراء النهر على التسلح بالقوس والنشاب وتقاليد سكان جبال الديلم على التسلح بشكل أساسي بالحراب ، وسكان الهضبة الايرانية على استخدام الرماح من قبل الفرسان الثقال ، وكان السيف سلاح العرب الرئيسي ، وبصرف النظر عن مشكلة الاسلحة الجماعية الثقيلة فان كل جيش من الجيوش يشهد في العادة صراعات بين أسلحته المختلفة ، وعندما يكون الجيش جيشاً امبراطوريا فان التنافس بين الأسلحة تغذيه في العادة صراعات شعوب الامبراطورية والجيش الذي حاله على هذه الشاكلة يعاني دائماً من مشاكل أساسية تضعفه بشكل عام وتفقده بالعادة زمام المبادهة بالهجوم واعتماد مبدأ الدفاع في العلاقات الخارجية ، والقارىء لتاريخ الخلافة العباسية يعرف أن الفتوحات توقفت زمن العباسيين وأن مناطق الحدود مع الامبراطورية البيزنطية تحولت من قواعد لانطلاق حملات الصوائف والشواتي الى ثغور دفاعية ٠ كما أن الاسطول قد أهملت قواه بشكل مريع ٠

وبسبب طبيعة الدولة العباسية وقبل ذلك طبيعة مواريث حزب الدعوة العباسية مع العمل الاداري والسياسة للخلافة ، فقد تكون على سطح طبقات المجتمع العباسي طبقة محترفة للعمل السياسي والاداري ، وبات هناك العديد من التيارات السياسية ٠

وباستمرار الصراع بين الامامة والحزب ازداد تدخل الجيش في سياسة الدولة ، وعانى الخلفاء منذ أيام الرشيد من مشاكل الجيش ، فلجأ الرشيد الى شغل الجيش بمحاربة بيزنطه ، وبعد الرشيد قامت الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون وشغل ضباط الجيش أعظم الادوار في هذه الحرب ، وخاصة طاهر بن الحسين ، وفاز طاهر بنصيب وافر من هذه الحرب تمثل في اقامته لدولة شبه مستقلة في خراسان عرفت باسم الدولة الطاهرية ، عاشت مايزيد على نصف قرن من الزمن (٢٠٥ - ٢٥٩هـ/٨٢١ - ٨٧٣م) ·

وبعد ما آلت الخلافة الى المأمون وانتقل الى بغداد عانى شديد المعاناة من الجيش فعمد الى الطريقة التي سبق لأبيه أن أخذ بها ، حتى انه أقام داخل منطقة الثغور وهناك توفي ، وجاء من بعده المعتصم فواجه لحظة توليه السلطة ذات المشكلة ، فعمد الى حل الجيش واستبدل به جيشاً جديداً قوامه من العبيد ذوي الأصل التركي ، لكن دونما فائدة ، فالقضية مرتبطة أصلا بالانحدار العرقي بل بالاحتراف وبايحاء السلاح وقوته ، لذلك زاد تدخل الجيش في سياسة الدولة أواخر أيام المعتصم ثم في عهد الواثق ، وبعد الواثق استولى الجند على السلطة حين قتلوا المتوكل على الله·

بامكان أي جيش الاستيلاء على السلطة وأن يصبح سيد السياسة ، لكن القضية لاتقف عند هذا الحد ، ذلك أن الجند بحاجة لمن يدير الحكم ، والساسة المحترفون بحاجة الى الاستمرار في ممارسة حرفتهم ، وهكذا بعدما يدخل الجيش الى مسرح السياسة تدخل السياسة الى الجيش فما تلبث أن تمزقه ، وفي جيش امبراطوري مثل جيش الخلافة العباسية يساعد على استشراء عوامل التمزق التركيب الذي قام عليه هذا الجيش ، وخلال عمليات الصراع تكثر الانقلابات ، ويحدث أن تتمكن فئة من شعب من شعوب الامبراطورية من التحكم بقلب الدولة لفترة من الزمن ، وفي طور تحكم الجند كان ضباط القصر الأتراك ثم الديلم وبعد ذلك السلاجقة التركمان أشهر من احتكر السلطة والحكم ، لذلك قسم هذا الطور الى ثلاث مراحل ·

لقد نجم عن دخول الجيش على مسرح السياسة ودخول السياسة على الجيش فيما نجم انصراف الجند انصرافا كاد أن يكون كلياً عن المهام الخارجية ، ففرغت الثغور ، واتفق هذا مع فترة ازدهار وقوة في الامبراطورية البيزنطية لذلك نشط الاشتباك في منطقة الثغور مع شمالي بلاد الشام ، وعبثاً جرت محاولات لايقافه فأدى ذلك الى انهيار نظام الثغور وسقوط جزء من شمالي بلاد الشام وخاصة المناطق الساحلية للبيزنطيين ·



هذا وأدى الصراع السياسي بين فئات الجند والساسة في الداخل الى شلل أجهزة الخلافة العباسية ، وكثرة الانقلابات وخلع الخلفاء ، وتعدد من ادعى الخلافة في آن واحد ، ولجأ عدد من الضباط الذين أخفقوا في صراعات بغداد الى طرف من أطراف ديار الدولة حيث اقتطعوه وأسسوا فيه دولة مستقلة تستمد الشرعية الرسمية ـ فقط ـ من خلفاء بغداد ، وهكذا تمزقت الدولة العباسية ، وفقد العالم الاسلامي وحدته السياسية ، وسقط كله تحت ادارة أسر ذوات أصل عسكري ، ولعل في الدولة الطولونية ، والطاهرية، ودول آل بويه ، والحمدانية في الموصل وحلب أمثلة شاهدة ٠

لقد كانت آثار هذا كله : الاجتماعية والاقتصادية والحضاريةوالعقائدية أكبر بكثير من الآثار السياسية ، علماً بأن الحدث السياسي هو في غالب الأحيان نتيجة لسبب غير سياسي ٠

فمن الجانب الاقتصادي شهدت ديار الخلافة العباسية منذ القرن التاسع للميلاد نماء اقتصادياً كبيراً ونشطت حركة التجارة برا وبحرا كما أنه وجدت صناعات ، خاصة من النوع الزراعي لتزويد أسواق التجارة بما تحتاجه ، وزاد الاهتمام بالأرض وسقايتها لعطاء زراعي أكبر ، وأوليت لذلك السدود والأقنية عناية كبيرة ووجدت مزارع كبرى وورش صناعية ذات حجم لابأس به ، واستورد كبار المزارعين كميات كبيرة من اليد العاملة ، استوردوا جل" ذلك من أسواق النخاسة خاصة من الرقيق الأفريقي الأسود ، وازداد حجم الملكيات الكبرى على حساب الملكيات الصغرى ، وصار كبار الملاكين يتحكم كل منهم بعدد كبير من القرى وبسكانهايستغلهم ويستثمر جهودهم بشكل عنيف وقبيح للغاية ، وتحوي كتب التاريخ العامة مع كتب الجغرافية والرحلات صورة فيها شيء من الوضوح تزداد بيانا بظاهرة اقبال عدد من كبار الفقهاء بدءاً بأمثال أبي يوسف القاضي ، ومحمد ابن الحسن الشيباني ويحيى بن عمير ٠٠٠ على تصنيف رسائل في التشريع الاقتصادي والاداري والضرائبي مع أحكام التعامل في الأسواق والحسبة ٠

وكان كبار التجار والملاكين بحاجة الى السند الحكومي والغطاء الرسمي القانوني ، وكان من السهل عليهم التعامل مع المؤسسات العسكريةالحاكمة، فالجند أكثر إقداماً على اتخاذ القرارات دون حساب للنتائج ، وحين اتكأ رجال المال والاقتصاد والزراعة على الجند ، اتكأ الجند عليهم أيضاً ، فقد كان الجند بحاجة ماسة الى المال ، ونظراً لتمزق الدولة الى دول صارت

موارد ميزانية كل دولة لاتكفي حاجة الجند الحاكم ، وتم في البداية الاقبال على استهلاك الاحتياطات ثم على زيادة الضرائب المباشرة وغير المباشرة وعمدت كل فئة من الجند اثر كل عملية انقلاب أو وقت الحاجة الى أعمال المصادرة بشكل تصفوي شديد ، كما اضطرت بعض الحكومات أحيانا الى احتكار كل من تجارتي الاستيراد والتصدير ، ولم تؤد هذه الاجراءات في غالب الأحيان الى شفاء المرض وسدّ الحاجة ، لذلك أقبلت الادارات على احالة بعض الجند على مغلات بعض الأراضي ، وقد أدى هذا الى قيام الاقطاع العسكري ثم تطوره بسرعة كبيرة مؤثرة ٠

وفي عودة ثانية نحو الدعوة العباسية نرى هذه الدعوة قد شجعت بشكل غير مباشر جميع العقائد التي كانت موجودة قبل الفتح الاسلامي على التحرك ضد الحكم الاموي ، وفقط عندما كانت بعض هذه الحركات تعلن العداء الصراح للاسلام ، كان بيت الامامة يعلن براءته من ذلك ، يضاف الى هذا أن الدعوة العباسية بالاصل كانت مرتبطة بتيار شيعي متطرف هو تيار الكيسانية ، وعندما وصل العباسيون الى السلطة واجهوا الحركات اللااسلامية ـ الراوندية مثلا ـ كما اصطدموا بفرق الشيعة ، وكان لهذا آثاره على جميع الفئات ، فمن جانب اضطر العباسيون منذ أيام المنصور الى تبديل مواقفهم ، واعتمدوا سياسة دينية خاصة ، فقد حل عبد الله بن العباس في المكانة محل علي بن أبي طالب وضغط على العلماء لمسايرة رغبات الخليفة المنصور ، ولعل تراجم الأئمة عمرو بن عبيد ، وأبي حنيفة النعمان ابن ثابت ومالك بن أنس ومحمد بن اسحق بن يسار فيها من الشواهد مايكفي ، فقد كانت العلاقات بين المنصور وعمرو بن عبيد متينة للغاية ، ثم حينما رفض أبوحنيفة تسلم منصب القضاء اعتقل وامتحن ، حتى عدّ ذلك سبباً لموته ، وسجن الامام مالك وامتحن ، ثم بعد ذلك صنف كتاب الموطأ بناء على رغبة المنصور وخططه ، وبناء على رغبة من المنصور أعاد ابن اسحق كتابة مصنفه في السير والمغازي بشكل عباسي ، وبعد المنصور رضي تلاميذ أبي حنيفة بتسلم المناصب السامية في بغداد ، كما لم يجد خريجو مدرسة الامام حرجاً كبيراً في المشاركة في السياسة والقضاء وغير ذلك في القيروان وقرطبة ، ولعل في سيرة الأئمة ، محمد بن الحسن الشيباني ، وأبي يوسف القاضي ، وأسد بن الفرات ، وسحنون مايكفي للدلالة والبيان ٠

ونحن عندما نستعرض أخبار البلاط العباسي في بغداد ومجالس الخلفاء نجد العلماء من فقهاء وفلاسفة وأدباء وسواهم حضورا في كل مناسبة ووقت، كان ذلك تشجيعاً واكراما لهم واحتفالا بهم وصار ذلك احدى أدوات الخلافة وغدت كتبهم أحيانا تصنف لتهدى الى واحد من رجال السلطة ان لم يكن تم صنيعها بناء على رغبة من رجل له مكانته في السلطة أو في الجيش أو في مجالات المال والزراعة ٠

وعندما حل التمزق بساح الدولة العباسية ، وقامت الدول المستقلة يلاحظ أن كل دولة مهما كان حجمها وامكاناتها المادية صار لها بلاطها الشبيه ببلاط بغداد فيه علماء وشعراء وأدباء ، وصحيح أن هذا أدى العديد من المنافع ، فعلى الرغم من التمزق السياسي والقلاقل لم تتأثر حركات العطاء الفكري لا بل ازدادت نمواً بشكل ملحوظ للغاية ، انما من جهة ثانية كان المردود من الجانب الاجتماعي ثم العقائدي مريعاً ، ففي الماضي عندما مالت السلطة منذ أيام الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان تصدى لها حملة التراث والعلم ، وفي زمن بني أمية رفض العلماء التعامل بأي شكل من الاشكال مع السلطة ، بل قاد العلماء نوعاً من المعارضة الفكرية الشديدة الفعالية ، أما الآن فقد ارتبط العلماء خاصة الذين مثلوا التيارات السنية بالسلطة ، وتورطوا في مشاكل الصراعات السياسية ، حتى ان بعضهم وجد نفسه في وضع المسوغ لما لايمكن تسويغه ، خاصة أيام استبداد الجند بأمور السلطة والحنابلة بزمام شارع بغداد ٠

وفي وقت تنحصر فيه الثروات في أيد قليلة ، ويلهث رجال السلطة وراء الذهب والمتاع ، يحل الفقر والتعاسة والشقاء في ديار جماهير الأمة ، وفتشت الجماهير عن مخرج فلم تجده لدى الذين ادعوا وراثة أبي ذر وأصحابه ولم يعد بالامكان الاستمرار في المناقشات الدينية وتقديم قصائد فحول الشعراء بديلا للامن والخبز والعدالة ٠

لقد انعدمت الثقة بين العلماء والجماهير وقامت ثغرة كبيرة بينهما ، حاولت قوى عديدة شغلها ، فحققت بعض النجاح الوقتي ربما عن طريق حركات ذات صبغة اجتماعية مثل حركة العيارين والشطار أو عن طريق ثورات متنوعة مثل حركات الزط والزنج والى حد ما حركة الصفارين ، وفقط ملأت فئة محكمة التنظيم واضحة الأهداف هذه الثغرة لمدة زادت على القرنين من الزمان فتحكمت بالفكر والفلسفة والعقيدة ومبادىء الاصلاح ، وقد شهرت

هذه الحركة باسم الحركة الاسماعيلية . والحديث عن هذه الحركة وأدوارها يستدعي بالضرورة استعراض تاريخ التشيع ، انما بشكل سريع :

لقد واجه المسلمون أولى أزماتهم السياسية الكبرى يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتم تجاوز هذه الازمة باختيار أبي بكر الصديق لقيادة الامة خليفة عن النبي ، وفي تاريخ الاسلام في عصر النبوة كان أبو بكر « ثاني اثنين » ومنذ اسلام عمر غدا ابن الخطاب ثالث الاثنين في سلم الزعامة الاسلامية ، لذلك عندما توفي أبو بكر صار عمر بن الخطاب الخليفة الثاني لرسول الله ، وأراد عمر ايجاد قاعدة لاختيار الخلفاء تكون دائمة ، لكنه اغتيل قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه ، ويمكن أن نرى الملامح الاساسية لهذه الخطة في وصيته حول شورى الستة ، فبعدما توفي عمر اجتمع الباقون الاحياء من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة ، وكان أبرز المرشحين بينهم علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، ووريثا بيتي الزعامة القرشية لمكة قبل الاسلام ، وتم اختيار عثمان ، فعارض ذلك علي ، فعاد التنافس والتناحر مجدداً بين آل هاشم وبني أمية .

على أنه يبدو أن طموح علي الى الخلافة لم يلد يوم شورى الستة ، بل سبق ذلك بوقت طويل ، انما الذي حدث بعد شورى الستة هو تحول هذا الطموح الى عمل معارض معلن ، وظل الحال هكذا حتى انفجرت حوادث الفتنة الكبرى وقتل عثمان ، وهنا تم اختيار علي للخلافة .

لقد كانت التركة التي ورثها علي ثقيلة للغاية ، فقد وجد نفسه أمام عدد لايحصى من المشاكل ، وعلى رأس جماعة من الثوار ، قادوا ثورة هو لم يخطط لها ، ولم يكن من المشاركين في تفجيرها ووضع أهدافها ، واضطر علي الى خوض غمار عدد من الحروب الأهلية ، وانتهت حياته بالاغتيال السياسي ، ومكّن هذا الاغتيال معاوية بن أبي سفيان من الاستحواذ على مقاليد الحكم في الدولة الاسلامية ، فصار سيد أهل الاسلام ووريثاً لابيه سيد أهل الجاهلية ...

ولم يمر حادث استيلاء معاوية على السلطة دون معارضة ، ولما كان العراق المتضرر الاول والاكبر من استحواذ الامويين على السلطة فان غالبية عناصر المعارضة تجمعت في العراق، وكان معظم هذه الغالبية من أهل الكوفة - عاصمة علي بن أبي طالب - فقاموا أولا باختيار الحسن بن علي ، وبعد وفاة الحسن وقع الاختيار على أخيه الحسين ، ومع الأيام انتظمت أمور



المعارضة ، وخلال عدد من الحوادث والأزمات تحولت حركات المعارضة من حركات سياسية ترى أحقية أسرة محددة في السلطة الى حركات دينية سياسية .

وفي العربية شيعة فلان أصحابه ومؤيدوه ، فشيعة علي ، حزب علي ، وفيما بعد اقتصر الناس على استخدام عبارة شيعة للدلالة على الحزب الذي تزعمه آل علي بن أبي طالب ، وكان لهذا الحزب جولات مع السلطة الأموية أثرت بشكل عميق للغاية في عقائده وأفكاره ، من ذلك عقيدة الامامة، فقدقيل بأن هناك خلافة وامامة،والخلافة وراثة سياسية لصلاحيات النبي السياسية التي وجدت بعد الهجرة ، والامامة زعامة دينية فيها وراثة لجانب النبوة عند الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحين حاز معاوية السلطة فقد اغتصب الخلافة وبقي لزعماء الشيعة حق الامامة ، ذلك أن هؤلاء أقاموا دعوتهم على حق الوراثة بالتعيين والشريعة للنبي صلى الله عليه وسلم .

ومع الأيام غدت الامامة ذات العلم الموروث محور العمل الشيعي ، وأغنيت فكرتها ، وزودت بكثير من المعاني والصفات بفضل التطور الثقافي والحضاري والسياسي الذي حصل في المجتمع الاسلامي ، وتفتحت جوانبها للنظر والتأمل في كثير من المعاني والصفات والتجارب من تراث الديانات السماوية وغير السماوية ومن الافلاطونية المحدثة ، والغنوصية وحكمة الشرق الأقصى .

وأسهمت ثورات الشيعة بشكل كبير في اسقاط الخلافة الاموية ، لكن الحكم آل الى أبناء عم آل علي من بني العباس ، وكا نلهذا آثاره خاصة على خط الامامة من أبناء الحسين بن علي ، الذي كان يتزعمه الامام السادس جعفر الصادق ، فقد انقسم هذا الخط الى تيارين : متطرف ، ومحافظ .

ودون الدخول في متاهات المقالات « اللاهوتية » وتوزيع الادوار على عدد من الرجالات ، حيث كفانا مؤونة ذلك كتاب الفرق مع عدد من الباحثين المعاصرين ، يكفي القول بأن الجماعة الجديدة قالت بأن الامام بعد الصادق هو ابنه البكر اسماعيل ، وعلى الرغم من وفاة اسماعيل أيام أبيه فقد قالت الجماعة هذه بأن الخلافة انتقلت حكما ونصا الى محمد بن اسماعيل الذي يعرف عادة باسم محمد المكتوم ، ذلك أن دعوة هذا الفرع التياتسمت بالتطرف والعلمية في التنظيم دخلت في مرحلة من التكتم الشديد وباتت تعرف باسم السبعية أو الاسماعيلية وغير ذلك من الاسماء .

لقد شكل القوم الذين تبعوا اسماعيل ، بعد عمل سري طويل ، فرقة فاقت في إعدادها المحكم ، وتنظيمها الدقيق المتقن في مجال الفكر الفلسفي والثقافي العالي مع الاثارة العاطفية والانفعال ، فاقت به كل الفرق التي سبقتها أو نافستها ، ففي مكان العمل المشوش للفرق السابقة ، والايمان البدائي ، والاعتماد على الفورات العاطفية أحكم عدد من العلماء ذوي القدرات الخارقة والعقول الجبارة نظاماً جديداً للعقيدة الاسماعيلية على مستوى فلسفي في غاية الرقي ، وأنتجوا أدباً رفيعاً ، بدأ الآن رجال عصرنا بالاعتراف بقيمته وأثره ٠

لقد قدم الاسماعيليون أمام ذوي الورع احتراماً كبيراً للقرآن والحديث والشريعة ، ومسايرة للعقيدة الشعبية السائدة الظاهرة ، وقدموا للمثقفين شرحاً باطنياً فلسفيا للكون ، اعتمد على توسعة مصادر الثقافات الشرقية القديمة والكلاسيكية ، وخاصة الفكر التأويلي والاشراقي من الافلاطونية المحدثة ٠

وقدم رجال الاسماعيلية للصوفية والروحانيين مادة فيها الدفء العاطفي والعرفان مع الحب السامي المؤدي الى التحام الكائنات ووحدة الوجود ، ودعم هذا كله بأمثلة وشواهد مما عاناه الائمة ومن تضحياتهم في سبيل أتباعهم ، وتم عرض هذا بمجمله وقدم في صيغ معارضة للنظام القائم ، وهادمة له ، فكان في ذلك سحر الثورة ، وحرارة العمل المعارض ٠

وفي الوقت الذي ازدهرت فيه الحركات الفكرية من كل نوع واشتدت النزعات الاجتماعية ، شرع بعض الناس يلتمسون طرقا جديدة وحلولا مبتكرة حتى جنح فريق الى الخيال والآمال فأغنى صور المهدي المنتظر ، وجعله يتمثل في أنواع من الشخصيات وهذا مانشهده في كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد (ت : ٢٢٧ هـ) الذي صنف في مطلع القرن الثالث ٠

وفي هذا القرن قامت الدعوة الاسماعيلية وانتشرت انتشارا واسعا ، وهكذا ما ان حلت نهاية القرن التاسع للميلاد حتى كان قد تم للاسماعيلية البروز في مناهج التفكير الاسلامي ، وفي تفكير الفلاسفة ، وتغلغل تأثيرهم الموجه الى جوف نظم الثورة وأفكارها والى حركات العدالة والمناداة بالمساواة في بلاد الاسلام ، كما حصل لدى العامة شعور بدنو النصر ، وقرب ساعة التحرير ، وروجوا لهذا عن طريق فكرة الامام المهدي المنتظر ، الذي سيخرج



عندما يحين الوقت فيعلن القيامة ، والقيامة هنا ليست نهاية الحياة ، بل نهاية للشرائع والنظم القائمة وتحرير الانسان من كافة الاغلال والقيود والفوارق تحريرا كاملا ومطلقا ٠

لقد ابتغت الدعوة الاسماعيلية اسقاط الخلافة العباسية واستهدفت السيطرة على العالم أجمع بما في ذلك العالم الاسلامي ، وحتى يسهل نشر الدعوة اعتبرت العالم مقسوما الى عدد من الجزر وكل جزيرة الى عدد من المناطق ، ووجد في كل منطقة من يتولى أمر الدعوة وفي كل جزيرة داع ، وسيَّر الدعاة جميعاً من قبل داع للدعاة ارتبط بالامام وسيَّر من قبله ، وأولت الدعوة الاسماعيلية شؤون الدعاة عناية كبيرة مستمرة ودائماً وجد مركز لتدريب الدعاة وتخريجهم ، وكانت الدعوة تختار بعض المستجيبين والمريدين فتبعث بهم من بلدانهم الى مركز تدريب الدعاة وهناك قد يرسلون الى بلدانهم بعد تخرجهم أو يبعث بهم الى مناطق أخرى لتنفيذ مهام محددة ٠

ومن الصعب تعرّف البلدان التي اتخذت مراكز للتدريب والتخريج وذلك قبل قيام الخلافة الفاطمية في أواخر القرن الثالث للهجرة في تونس ، فبعد قيام هذه الخلافة غدا مركز تخريج الدعاة في افريقية ، ويبدو أنه انتقل اليها من جنوب اليمن ، وبعدما انتقلت الخلافة الفاطمية الى مصر ، وبنيت القاهرة ، بني في القاهرة مركز جديد لتدريب الدعاة هو الجامع الازهر الذي ظل يعمل لهذه الغاية حتى الغاء الخلافة الفاطمية من قبل صلاح الدين الايوبي(١) ٠

وتخرج من دار الدعوة في القاهرة عدد من الدعاة الكبار ، لعل من أشهرهم الرحالة الايراني ، والفيلسوف الشاعر ناصر خسرو ، ومن بعده حسن الصباح مؤسس الدعوة الاسماعيلية الجديدة ـ الحشيشية ـ وهنا تجدر الملاحظة أن بعض رجالات الاسماعيلية رحلوا باتجاه القاهرة لكنهم لم يصلوها ، وربما كان ابن سينا أشهر من عرف بين هؤلاء ٠

ليس بودي هنا الوقوف طويلا لاترجم لابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٦ م) فأتحدث عن مراحل حياته وجوانب عبقريته المبدعة ـ فهذه مهمة لاشك أن غيري من المسهمين بهذا العدد قد تولاها بكفاءة اختصاصية ـ بل أريد الحديث عن عصره وخاصة من الجانب السياسي ، فأنتقل من الوصف التقديمي العام ، وسأهتم بالاراضي الشرقية من ديار الخلافة العباسية ٠

لما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد قامت في كثير من المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة ، دان غالبيتها اسميا بالطاعة لخليفة بغداد العباسي ، وأهم الدول التي قامت بالمشرق في خراسان وبلاد ماوراء النهر هي : الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ/٨٢١ - ٨٧٣ م) والدولة الصفارية (٢٥٣ - ٢٩٨ هـ/٨٦٧ - ٩١٠ م) والدولة السامانية (٢٠٤ - ٣٩٥/ ٨١٩ - ١٠٠٥ م) والدولة الخوارزمية (٣٠٥ - ٤٠٧هـ / ٩٩٥ - ١٠١٧ م) والدولة القراخانية (٣٨٢ - ٦٠٧هـ)٩٩٢ - ١٢١١م) والدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٨٢هـ/٩٧٧ - ١١٨٦م)

والذي يعنينا هنا مباشرة هو الحديث عن الدولة السامانية ففيها كانت بداية نشأة ابن سينا ، ثم الغزنوية ، والقراخانية :

تنسب الدولة السامانية الى سامان خداه ، فهو جد الاسرة السامانية ، وكان بالاصل دهقانا من مدينة بلخ ، المدينة العريقة فمنها كان يعبر نهرها - جيحون - الى ماوراء النهر ، وفيها التقت وتفاعلت حضارة الهضبة الايرانية والشرق الأقصى مع الحضارة الهلنستية ·

فرّ سامان خداه الى مدينة مرو ، وفيها أسلم على يد واليها أسد بن عبد الله أخو خالد بن عبد القسري والي العراق لهشام بن عبد الملك ، وكان أسد بن عبد الله قد أكرم سامان خداه حين وفد عليه « وحماه وقهر أعداءه وأعاد اليه بلخ » ولما رزق سامان خداه فيما بعد غلاماً أسماه أسداً لمحبته اياه » ·

وسقطت الخلافة الأموية ، وحل محلها العباسية ، وفي عهد المأمـون خدم أولاد أسد الاربعة الخليفة المأمون العباسي ، فكافأهم بأن عين نوحاً واليا على سمرقند ، وأحمد على فرغانة ، ويحيى على الشاش ، والياس على هراة ، وهكذا وطد السامانيون أنفسهم وحصلوا على مكانة طيبة في منطقة ماوراء النهر ، وفي سنة ٢٦٣هـ/٨٧٥م قام الخليفة المعتمد بتعيين نصر ابن أحمد واليا على جميع بلاد ماوراء النهر ، وبهذا التعيين قامت الدولـة السامانية فعلا ، وغدت منطقة ماوراء النهر الغنية قلباً لها ·

وتولى السامانيون مسؤولية المواجهة مابين الاسلام وبداة سهوب ماوراء النهر ، وأخذ السامانيون على عاتقهم أمر حماية الاراضي الاسلامية مـن غزوات هؤلاء البداة ، وخاصة الاتراك منهم ، مع تأمين استمرار التجـارة



وتدفق البضائع ، ونجحوا في تحقيق ذلك على طريق الدفاع : باقامة الرباطات في الثغور ، وعلى طريق الهجوم بالقيام بحملات على مناطق سكنى الاتراك داخل السهوب ، وبذلك أضعفوا تجمعات الاتراك ، ومدوا نفوذهم وهيبتهم الى داخل السهوب ، وهكذا أمن السامانيون الاستقرار السياسي والاقتصادي لبلادهم مما مكنهم بعد ذلك من الالتفات نحو خراسان ومنذ القرن التاسع تدفق من أراضي السامانيين سيل من الرقيق التركي الأبيض على بغداد وغيرها من مراكز دول الاسلام في المشرق ، ولقد استخدم غالبية هؤلاء العبيد في جيوش خلفاء بغداد وحكام دويلات الشرق .

وكانت مدينة بخارى مركزالدولة السامانية،وفي بلاط السامانيين تجمعت مكتبة كبيرة شاملة ، ووجدت أعداد كبيرة من العلماء ، وعاشت الثقافة العربية الاسلامية مزدهرة ، ولكن الاهم من هذا هو أن هذا البلاط شهد بعث اللغة الفارسية مع الثقافة الايرانية ، وأسهم في نموهما ، ففي زمن السامانيين بدأ الفردوسي بنظم الشاهنامة ملحمة فارس القومية .

ومسألة بعث اللغة الفارسية الجديدة ، وان رافقها في البداية ازدهار للثقافة العربية ، ذات خطر تستحق وقفة خاصة نثير فيها مسألة انتشار اللغة العربية في أراضي الدولة الاسلامية ، ومراحل الاستعراب في الأراضي الشرقية ، ثم بداية انحسار هذا الاستعراب وتعرضه لعظيم الانتكاسات ، وافضائه الى مرحلة حلت الفارسية فيها محل العربية ، فمن المعروف أن اللغة العربية انتقلت الى ايران وخراسان مع الفاتحين العرب ، وعاش الفاتحون العرب في البداية على شكل تجمعات قبلية سكن غالبيتها أولا حول مدينة مرو ، وكان العرب هم جند خراسان ، يحكمون ، يجمعون الجزية والخراج ، بل قد يتحاربون فيما بينهم أثناء الازمات المبكرة لأواخر العصر الراشدي وبداية العصر الاموي ، لكن دون أن يكون للسكان المحليين شأن مباشر أو غير مباشر في كل هذا .

انما نلاحظ منذ أواخر أيام فتنة ابن الزبير وبداية عصر عبد الملك بن مروان قيام عدد من أفراد المسالح العربية بسكنى المدن في خراسان ، كما نسمع عن بداية تحول الى الاسلام من قبل بعض السكان المحليين في خراسان ، وبسرعة كبيرة ازدادت حركة التحول هذه ، وكان المتحولون ينالون الولاء لاحدى القبائل العربية ، فالتحول كان اعتناقا للدين الاسلامي واستعرابا في نفس الوقت ، وأدرك عبد الملك بن مروان هذه القضية الهامة ، فأقدم

الأموي ، وهذا العمل هو ماعرف بتعريب الدواوين والدينار العربي ، وكان أبسط معاني قرار التعريب هو مواكبة العمل الرسمي للعمل الشعبي ، وهكذا استمر الأمر حتى حصلت في خراسان حركة تجانس كبيرة ، ونشطت دعوات تنادي بانشاء الامة الاسلامية المستعربة ، وتجاوبت بعض أجنحة الاسرة الاموية مع تيارات هذه الدعوات وتجلى هذا ووضح يوم تسلم عمر بن عبد العزيز الخلافة ، وعلى الرغم من الانتكاسات التي لحقت تيارات هذه الحركات بوفاة عمر بن عبد العزيز فقد ظلت قوية حتى جاءت الدعوة العباسية ، فقد أراد العباسيون تشجيع جميع القوى المناهضة ، وكان بين هذه القوى ورثة الديانات والعقائد الماضية وحين استهدفت هذه القوى الاسلام استهدفت معه الاستعراب ، ومن هذا المنطلق نفهم منطق التوصيات التي صدرت عن ابراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني بألاّ يُبقي في خراسان عربيا ، كما نفهم انفجار حركات الزندقة والشعوبية وتعاونهما في آن واحد مع قيام الدولة العباسية وهكذا تراجع الاستعراب في خراسان الى درجة حولت فيها الفارسية من لهجات شعبية الى لغة جديدة لها أدبها ٠

وفي عودة الى تاريخ الدولة السامانية نرى أنه في سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ربح اسماعيل بن أحمد ثقة سلطات بغداد وخليفتها ، وذلك بعد أن هزم عمرو بن الليث الصفار ، لذلك عين واليا على خراسان وذلك بالاضافة الى بلاد ماوراء النهر ، وبهذا غدا السامانيون قوة هائلة تحكم أراضي شاسعة تمتد من جهة الى أراضي البويهيين وممتلكاتهم في العراق وايران ، ومن جهة أخرى الى أطراف أفغانستان المتصلة بحدود الهند ، ولما كان السامانيون بشكل عام من أهل السنة ، وكان البويهيون شيعة ، هذا مع تضارب المصالح ومطامع التوسع ، لم يكن بد من أن تصطدم قوى الطرفين ، ولكن هذا أمر لا يمكن استيعاب بحثه هنا ٠

وفي منتصف القرن العاشر بدأت علامات الضعف والتفتت تظهر على جسم الامبراطورية السامانية ٠ لقد بدا هذا في عدد من ثورات وانقلابات في البلاط قادها بعض القادة العسكريين ، لهذا لم يكن صعبا ان انفصلت خراسان عن سلطة بخارى ، ثم لم يكن صعبا على الغزنويين والقراخانيين الاجهاز على الدولة السامانية ووراثتها ٠ القراخانيون فيما وراء النهر والغزنويون في المناطق الأخرى(٢) ٠



لقد احتلت بخارى عاصمة الدولة السامانية ، وطرد منها آخر أمير ساماني من قبل بغراخان هارون(أو حسن) الذي كان يعرف بلقب ايلك خان ، وعرفت أسرة هارون باسم الايلك خانية ، ولكن لما كان الكثير من أفراد هذه الاسرة استعملوا كلمة « قره » ـ تعني أسود أو شديد القوة ـ رديفا لأسمائهم ، فقد أطلق المستشرقون اسم « القراخانية » على هذه الاسرة ، وهكذا فان اسم « القراخانية » هو اذاً اسم محدث بديل للايلك خانية .

لقد ادعى أفراد هذه الاسرة أنهم من نسل أفراسياب البطل التركي الاسطوري في « الشاهنامة » ، ولكن يبدو أنهم كانوا في الواقع عبارة عن البيت الحاكم لاحدى المجموعات التركية التي عرفت باسم « القرلق » وهي مجموعة قد قامت بدور هام ومؤثر في التاريخ القديم للترك من سكان السهوب . وقد أسلم القراخانية في منتصف القرن العاشر ، كما هو مرجح وتبنوا أسماء وألقابا اسلامية ، ويظهر أن بغراخان جد فاتح بخارى هو أول من أسلم ، وتسمى باسم عبد الكريم ، وأقام القراخانية بعد قضائهم على السلطة السامانية امبراطورية واسعة سيطرت على بقاع شاسعة من بلاد ماوراء النهر ، وأقامت هذه الدولة علاقات خاصة بالامبراطورية الغزنوية ، وعلى العموم شكل نهر جيحون لفترة طويلة الحد الفاصل بين هاتين الدولتين .

هذا وفي الحقيقة كانت الامبراطورية القراخانية عبارة عن اتحاد قبلي، ولم تكن قط دولة مركزية متحدة ، فعلى الرغم من أنه كان على رأسها حاكم حمل لقب « خان » فلقد وجد أحيانا عدد من أفراد الاسرة الحاكمة ، وسادة القبائل ، ادعوا لأنفسهم نفس اللقب ، أو ألقابا من الدرجة الثانية ، وبسبب أنه وجد في نفس الوقت أكثر من حاكم من نفس الاسرة حمل نفس الاسم واللقب ، ثم بسبب قيام الخلافات والحروب الداخلية بين أمراء الامبراطورية ، فانه من الصعب ـ إن لم يكن من المستحيل ـ الوصول الى صورة واضحة يقينية مفصلة حول سلسلة حكام القراخانية(٢) .

لقد كان للحروب الداخلية بين وحدات القراخانية والصراعات التي أدت الى تصفية الدولة السامانية آثارها على شعوب السهوب ، حيث حدثت تحركات كبيرة بين قبائل السهوب ، وأقبل بعضها على دخول الاسلام ، ولعل أهم المجموعات التي دخلت الاسلام مجموعة الغز ، التي نبغ بينها قبائل التركمان التي تزعمتها أسرة السلاجقة .

جاء الغزّ الى منطقة بخارى ، وتورطوا في الاعمال والاضطرابات التي أدت الى اسقاط الدولة السامانية ، كما وجدوا أنفسهم طرفا في النزاعات بين أمراء القراخانية ، وهذا يعني أنهم كانوا جاهزين لتقديم خدماتهم لمن يطلبها ويدفع أكثر ، ومع ازدياد الفوضى التي رافقت زوال الدولة السامانية كان هناك حاجة ماسة الى المقاتلين ، وكان هناك من يدفع بسخاء سواء في مناطق ماوراء النهر أو في الجهة الاخرى حيث محمود الغزنوي ومشاريعه التوسعية التي كانت تحتاج الى أعداد كبيرة من المقاتلين(٤)

ان هذا كان نقطة البداية لعبور التركمان الى خراسان الأمر الذي سيقود نحو قيام السلطنة السلجوقية ، وهذه مسألة لا حاجة لبحثها الآن ، فالحاجة تدعو الى تعرف تاريخ الدولة الغزنوية . فلقد ذكرنا أن الدولة الغزنوية كانت شريكة الدولة القراخانية في الاستيلاء على ميراث الدولة السامانية، وتنتسب هذه الدولة الى مدينة غزنة ـ احدى مدن أفغانستان الحالية ، وتقع الى جنوب غربي كابل العاصمة ـ ومؤسس هذه الدولة هو سبكتكين ، الذي كان عبدا تركيا من ضباط الجيش الساماني ، ولقد كان استلامه لحكم غزنة في سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧ م

في الحقيقة ان قصة قيام الدولة الغزنوية تبدأ قبل هذا التاريخ بعدة سنوات ، ففي عام ٣٥٠هـ/٩٦١م توفي الامير الساماني عبد الملك بن نوح ، « ولما دفنوه ثار العسكر وتمردوا ، وطمع كل شخص في الملك ، وظهرت الفتن » (٥) « وكان الاسفهلار (أي القائد) ألبتكين في نيسابور حين بلغه خبر وفاة الأمير ... فقصد الحضرة للقبض على الامير » الساماني الجديد، ومن ثم احلال نفسه محل الامير عبد الملك على عرش السامانيين ، وأخفق ألبتكين وأجبر على الفرار ، فذهب الى غزنة واستقر بها ، وكان بصحبته غلمانه وقواته الخاصة ، وبعد فترة تصالح ألبتكين مع الامير الساماني الجديد لبخارى وهو منصور بن نصر ، ونظرا لقرب الاراضي الافغانية من أراضي الهند غير المسلمة ، شغل ضباط ألبتكين وجنده أنفسهم بالغارة على هذه الاراضي ، وربما كان القصد الاساسي من هذه الغارات كسب المغانم، الى جانب هدفها نشر الاسلام ، وقد لقب الكثير ممن كانوا يقومون بها نفسه بلقب الغازي ،ولقد ظل ألبتكين وضباطه تابعين اسميا للدولة السامانية، وبعد وفاته خلفه أحد ضباطه واسمه سبكتكين .

وبعدما استلم سبكتكين زعامة الجيش لم تنقطع أعمال الغارة على

السهول الهندية ، واستمر بالاعتراف بالسيادة السامانية ، ولكن عقب وفاة سبكتكين في سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م ، لما أصبح ابنه محمودا صاحب السلطة في غزنة غدت الدولة الغزنوية دولة مستقلة عن السامانيين ، ونظم محمود أعمال الاغارة على الاراضي الهندية ، وحولها الى أغراض توسع وفتوح وجهاد، وبذلك نال محمود لقب الغازي عن جدارة، وأصبح من أكثر شخصيات عصره شهرة ، فلقبته الخلافة العباسية بلقب يمين الدولة ٠

ولقد استطاع محمود توسيع رقعة دولته ، فاوصل حدودها الشمالية الى جيحون ، وبعد ذلك تجاوزه فقام بضم واحة خوارزم الى امبراطوريته، وحقق الاتفاق مع الدولة القراخانية ، ثم التفت نحو خراسان فأخذها ، وبات يتطلع نحو بغداد ، لنيل لقب « سلطان » وليقضي على حكم الاسرة البويهية الشيعية فيها ، وأخذ مكانها في التحكم بخلفاء بغداد ، ذلك أن محمودا كان سنياً شافعيا متشددا ٠

لقد حاولت الدعوة الاسماعيلية كسب محمود الى جانبها فأخفقت ، وقام هو بمطاردة أتباعها وشجع على البعث السني الذي سيصل الى ذروة نجاحاته بقيام السلطنة السلجوقية وتأسيس المدرسة النظامية في بغداد، وكان ذلك بعد وفاة محمود ٠

وعندما مات محمود في سنة ٤٢١هـ / ١٠٣٠م كانت امبراطوريته أضخم امبراطوريات عصره ، ومن أعظم الدول التي قامت في تاريخ الاسلام ، وكان جيشه وقواته الحربية على غاية من القوة والعظمة وجودة التسليح ، وفي زمن محمود وبسبب طبعه وشغفه بالابنية تطورت التقاليد الفارسية الاوتوقراطية في الحكم مع الثقافة الايرانية ٠

ومحمود هو الذي جلب التركمان الى خراسان ، وفي أواخر حياته واجه بداية مشاكلهم في خراسان ، فاستطاع أن يتدارك تفجيرها ، وتمكن من أن يؤجل هذا التفجير وذلك بما أوتيه من حزم وبصيرة ، ولكن لما كان ابنه وخليفته مسعود لا يتمتع بصفات والده ومؤهلاته الحربية والادارية ، فقد أخفق في حل مشكلة التركمان عندما واجهها ، واستطاع التركمان فيما بعد أن يقهروا مسعودا ويستخلصوا منه خراسان ، ولكن فقدان خراسان ،ومآلها الى السلاجقة التركمان لم يعن أبدا نهاية الدولة الغزنوية ، بل استمرت هذه الدولة تحكم شرقي أفغانستان وشمالي الهند ، واستمر هذا الحال

حتى قيام الدولة الغورية التي استطاعت تصفية االغزنويين والقضاء على دولتهم في سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ٠

لقد احتاجت الامبراطورية الضخمة التي أسسها محمود مع قواته العسكرية الكبيرة وبلاطه الضخم الى تكاليف باهظة ومبالغ من المال هائلة، وماكانت المبالغ التي كانت تحصل من الغارات على الهند لتكفي سد أكثر من جزء من النفقات ، ولهذا فرض الغزنويون ضرائب ثقيلة على خراسان ، وحصلوها دون تهاون وبأعنف الوسائل ، وأفقرت هذه السياسة المالية خراسان ، وجعلت الحكم الغزنوي غير محبوب على مختلف المستويات ، كما أن هذه السياسة سببت تدهورا اقتصاديا في خراسان وفقرا عاما ، مما أدى الى هجرة بعض التجار والدهاقين الى خارج خراسان ، ولاشك أن هذه الحالة كانت من أسباب نجاح السلاجقة في انتزاع خراسان من الغزنويين ؛ على أنه رغم سوء الاحوال الاقتصادية وثقل الضرائب فقد كانت غالبية عامة الخراسانيين ساكتة عن الحكم الغزنوي ، أو حتى راضية عنه ، لقوة هذا الحكم ، ولاستطاعته تأمين الحماية الخارجية مع الامن الداخلي ، لكن ما إن مات محمود حتى تغير كل شيء(٦٤) ٠

لقد سقطت الدولة السامانية سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م ، وكان ابن سينا وقتذاك في الخامسة والعشرين من عمره ، ومن الظنون أنه في هذه الفترة ترك بخارى وتوجه نحو العراق متطلعا نحو قاهرة الفاطميين ، وكانت بلدان العراق مع أجزاء من ايران تحت ادارة أمراء من آل بويه الديلم ، لذلك نحن بحاجة الى التعرف الى شيء من تاريخ آل بويه ، وخاصة أن ابن سينا أمضى حياته بعد مغادرته بخارى في أراضي البويهيين ولم يصل الى مصر ٠

يقع الى شمال الهضبة الايرانية بلاد مرتفعة سكنت من قبل شعب اتسم بالقسوة وحب القتال والاستقلال ، وقد اعتبر هذا الشعب من قبل سكان الهضبة الايرانية شعبا أجنبيا ، ونظر اليه بخوف وحذر ، ولم يستطع حكام ايران في العصور القديمة اخضاع هذا الشعببشكل عام وفعال،حتى ان الدولة الساسانية قد وجدت من الضروري الاحتفاظ بحصون على الحدود هي خطط دفاعية ضد غاراته ٠

وبعد قيام الاسلام ، والشروع بالفتوحات الكبرى اصطدم العرب بهذا الشعب ، وعرفوه باسم الديلم ، ولم يفلح العرب في اخضاع الديلم بقوة السلاح ، ويروى أن الحجاج بن يوسف الثقفي عندما أراد فتح بلاد الديلم





أمر بتصوير هذ هالبلاد حتى يعدّ خطة لفتحها ، وحدث أن زاره وفد ديلمي فعرض عليه الحجاج الصورة ، ودعا الشعب الديلمي الى الاستسلام قبل أن يغزو بلادهم ، ويخرب أراضيهم ، فنظر رجال الوفد الى الصورة وقالوا : « قد صدقوك عن بلادنا ، هذه صورتها ، غير أنهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال ، وستعلم ذلك لو قد تكلفته » (٧) ٠

ومع مرور الزمن دان شعب الديلم بالاسلام هداية بالتغلغل السلمي ولقد كان هذا الشعب بين آخر الشعوب في المشرق التي دخلت الاسلام ، وبين أوائل الذين أعادوا تأكيد شخصيتهم الذاتية ضمن اطار هذا الدين سياسيا وعقائديا : سياسيا بظهور أسر حاكمة مستقلة ، وعقائديا من خلال تبني مذاهب غير سنية ٠

ولقد حدث منذ نهاية القرن الثامن للميلاد أن وجد عدد من أفراد البيت العلوي ، الذين هربوا من الملاحقة العباسية ، مأوى عند الديلم ، ولقد حول هذا بلاد الديلم الى مركز للنشاط العلوي خاصة الزيدي منه ، ودافع هذا المركز عن استقلاله ضد خلفاء بغداد وسواهم من حكام السنة ، وكان ذلك بعدما ظهر بين صفوفهم الاسرة البويهية ٠ لنر كيف ظهرت هذه الاسرة ، واستطاعت أن تصبح الوصية على خلفاء بغداد ، ولفترة طويلة من الزمن٠

تنسب الأسرة البويهية الى رجل ديلمي كان يعمل صيادا على شواطىء بحر قزوين ، كان يدعى بويه ، وكان بويه هذا فقير الحال ، وكان له من الاولاد : علي ، والحسن ، وأحمد ، وقد دخل هؤلاء في خدمة مرداويج بن زيار ، وكان من قادة الديلم ، علا شأنه سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م ، وأسس في خراسان دولة عرفت بالدولة الزيارية ، وقد قتل سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م (٨)

أظهر أولاد بويه أيام مرداويج ، مقدرة وكفاية ، وترقى منهم علي حتى ولاه مرداويج على الكرج ، فأصاب نجاحاً ، وأظهر له الكرج الحب ، فأثار ذلك شكوك مرداويج ، وكاد الشر يقع بينه وبين أبناء بويـه ، لكـن مـوت مرداويج أزال ذلك وأتاح الفرصة أمام الاخوة الثلاثة ، فاستولى الحسن بن بويه على أصفهان والري وهمذان ، واستطاع علي بن بويه أن يبسط نفوذه على كرمان ٠

وبعد هذا أخذ البويهيون يحاولون مدّ سيطرتهم على أملاك الخلافة في العراق ، ومن ثم السيطرة على بغداد نفسها ، وكانت أحوال بغداد السياسية

في غاية السوء والفوضى، بعدما أخفق نظام امرة الامراء اخفاقاً ذريعا ، وفي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م توفي توزون أمير الأمراء ، فخلفه في منصبه قائد آخر كان يعرف بابن شيرزاد (٩)، وبعد تسلمه لمنصبه هذا ببضعة أشهر تحرك أحمد بن بويه من الأهواز يريد بغداد ، وحين سمع الخليفة المستكفي بذلك استتر خوفا من أتراك بغداد ، واستطاع أحمد بن بويه الوصول الى بغداد دون كبير عناء ، وهنا ظهر المستكفي وعاد الى دار الخلافة ، حيث استقبل أحمد بن بويه ، فتقبل بيعته وخلع عليه ، ولقبه معز الدولة ، كما لقب أخاه علياً بعماد الدولة ،ولقب أخاه الحسن بركن الدولة ، ثم أمر بضرب القابهم وكناهم علـى السكة (١٠)

ورأى معز الدولة بعدما أصبح سيد بغداد الجديد أن يقوم بانهاء النظام القديم بمختلف عناصره بدءاً بالخليفة ، فبعد أيام من دخوله بغداد ، قام معز الدولة باعتقال الخليفة المستكفي واهانته اهانة بالغة حيث سحب عن سريره ، ووضعت عمامته في عنقه ، وجرّ نحو دار معز الدولة فسجن فيها، ثم خلع من منصب الخلافة (١١) .

لقد كان معز الدولة شيعياً ، وكان هدف الشيعة دائما ازالة الخلافة العباسية لتحل محلها خلافة علوية ، وعندما خلع معز الدولة الخليفة المستكفي كان بامكانه ـ حسب بعض الآراء ـ تعيين خليفة علوي أو الاعتراف بالخليفة الفاطمي ، حيث ان هذه الخلافة كانت قائمة في افريقية ، وتتطلع نحو المشرق للسيطرة عليه،، لكن تعيين خليفة علوي أو الاعتراف بالفاطمي كان يعني طاعته والانصياع لأوامره ، وهذا مالم يفضله البويهيون ، لذلك قام معز الدولة بتعيين خليفة عباسي جديد ، وكان يستطيع الدفاع عن نفسه بأنه لم يكن للشيعة غير الاسماعيلية امام آنذاك ، ذلك لأنه كان زيديا ولم يكن من أتباع المذهب الاسماعيلي للدولة الفاطمية .

وهكذا وقعت الخلافة العباسية السنية لأول مرة تحت حكم شيعي ، سيمّ الخلفاء فيه سوء العذاب ، وأذيقوا مـرارة الاهانة ، فبعـد خلع المستكفي عين معز الدولة أبا الفضل بن المقتدر خليفة بلقب المطيع لله ، وجرده من صلاحياته كلها ، وقرر له ولموظفيه راتباً يوميا قدره ألفا درهم(١٢)

ونجم عن استيلاء البويهيين على بغداد نتائج كبيرة ، وردآت فعـل عنيفة عند القوى السياسية للعراق وأعالي بلاد الرافدين ، واصطرع معز



الدولة مع دولة الحمدانيين في الموصل ، ومع البريديين في البصرة ، ومع القرامطة التابعين للدولة الجنابية في الاحساء والبحرين ، ومع قوى أخرى ، وقد خرج معز الدولة من هذه الصراعات ودولته الجديد أعز جانباً وأوسع رقعـــة (١٣) ٠

وفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م توفي معز الدولة ، وقبل وفاته كان قد عين ابنه عز الدولة بختيار ليخلفه في منصبه،وهذا يعني أن معز الدولة استطاع أن يؤسس ـ لأول مرة في تاريخ الاسلام ـ في بغداد حكما وراثيا يتسلط على الخلافة العباسية الوراثية ، وكان معز الدولة قبل وفاته قد أوصى ابنه أن يستشير عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة حاكم فارس ، لكن عز الدولة لم يأخذ بوصايا والده ، مما جرّ عليه المشاكل ، وذلك أنه « عكف على اللهو وعشرة النساء والمغنين » وحاول التخلي عن عدد من كبار رجالات الديلم واستبدالهم، كما أنه جند عدداً كبيرا من العناصر التركية في جيشه ، فأدى هذا الى زعزعة مركزه وقيام الصراع بين عناصر الديلم وعناصر الترك ٠

وساءت الاحوال في العراق ، وعندها تحرك ابن عمه عضد الدولة على رأس قواته نحو بغداد سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م فاستطاع أخذها ، ومن ثم أحلّ نفسه محل ابن عمه سيداً جديدا على الخليفة في الخلافة ، وأمر عضد الدولة خطباء الجمعة بذكر اسمه على المنابر الى جانب اسم الخليفة ، وبهذا العمل صار مشاركا للخليفة في كل شيء الا لقب الخلافة ، وانشغل عضد الدولة مثل عمه وابن عمه في الصراع مع قوى العراق والموصل وخراسان وعُمان وشبه الجزيرة ، واستطاع أن يحقق في هذا المجال مالم يتحقق لهما قبله ٠

ويعتبر عضد الدولة أعظم رجالات الاسرة البويهية ، وكان نشيطاً بعيد الهمة ، يلتزم بالنظام ، ولا يتورع عن سلوك أي سبيل من أجل تحقيق غاياته ومقاصد سلطته ، وظل حكمه قويا حتى سنة وفاته في ٣٧٢هـ/٩٨٣م ، حيث خلفه في منصبه ابنه أبو كاليجار ، الذي عرف بلقب صمصام الدولة(١٤)

وأخذ ملك بني بويه في الانحدار وقوتهم في الضعف بعد وفاة عضد الدولة، ودبّ الانشقاق بين ورثة عضد الدولة ، ووقع الصراع بينهم ، مما مكن بعض القوى المحلية لأعالي بلاد الرافدين وغيرها بالتحرك وتأسيس دول خاصة بها ٠ ولم يمض على وفاة عضد الدولة سنتان حتى قام في الاراضي التي كانت تدين له بالطاعة خمس دول مستقلة في « العراق » و « البصرة »

و « الاهواز وفارس وكرمان » و « الري » و « جرجان » ،ولقد دان استقلال جرجان لموقعها الجغرافي ، وكان لا بد من أن تنضم بقية الدول ، اما الى فارس واما الى العراق ، وهكذا قام صراع بين العراق وفارس ، وكانت فارس من أملاك شرف الدولة الابن الاكبر لعضد الدولة ، واشتبك صمصام الدولة مع أخيه ، وأسفر هذا عن انتصار شرف الدولة ودخوله بغداد سنة ٣٧٦هـ/٩٨٧م حيث اعتقل صمصام الدولة، وأرسله الى احدى القلاع مع أمر بتكحيله ، وفي سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م توفي شرف الدولة ، فخلفه في منصبه أخوه أبو نصر فيروز بلقب بهاء الدولة (١٥)، وكان ماواجهه هو عصيان الجند ومطالبتهم بالمال ، فاستطاع أن يتغلب على هذه الازمة ، ويقوي مركزه حتى استطاع أن يحتفظ بمنصبه لمدة أربع وعشرين سنة ، من سنة توليه حتى سنة ٤٠٣هـ/١٠٢٢م حين توفي ٠

وليس في عهد بهاء الدولة حوادث مثيرة ، انما تميز بالاستمرارية ، فقد بدأ بصراع بين أعضاء الاسرة، وشهد زوال الاسرة السامانية في المشرق وقيام الامبراطورية الغزنوية ٠

وبعد وفاة بهاء الدولة خلفه ابنه أبو شجاع سلطان الدولة ، وقد وقع منذ بداية حكمه تحت نفوذ عدد من الموظفين استأثروا دونه بجميع السلطات، وأتاح هذا الفرصة أمام أخيه شرف الدولة ، حيث انتزع لنفسه بعض الاملاك، وتطلع نحو بغداد ، وقام صراع بين الاخوين ، وقد أوقف هذا الصراع سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢ م باقتسام الدولة بينهما ، ونتيجة لذلك صار العراق لشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة ، وتحرك شرف الدولة نحو بغداد ، فاستقبله الخليفة ، وكان من حسن حظه أن توفي سلطان الدولة في سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤ م وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، وبات الآن مصير اختيار الامير الجديد بيد الجيش الذي كان قد صار معظم عناصره مرة أخرى من الاتراك(١٦)

وتحيّر الفرقاء في أمر اختيار أمير جديد بين اثنين هما : جلال الدولة أخو شرف الدولة ، وأبو كاليجار بن سلطان الدولة ، وبعد طول خلاف واضطراب وفتن اختير جلال الدولة ، فاستدعي من البصرة ، وعندما قرب من بغداد ، خرج الخليفة لتلقيه ، فدخل بغداد سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م حيث نصب سيداً جديدا في الخلافة ، وبقي في منصبه هذا حتى سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م حين توفي ، وكان جلال الدولة هذا شبه ألعوبة في يد جند بغداد ، خاصة الاتراك منهم، وفي زمنه شهدت مناطق البويهيين الأخرى خارج العراق مزيدا من المشاكل

والاضطرابات ، كما بدأت مناطق الشرق في خراسان تشهد تحولات جديدة وخطيرة في القوى بظهور الغز بزعامة السلاجقة على مسرح الاحداث .

وبعدما توفي جلال الدولة ، كان ابنه الاكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط، فكاتبه زعماء الجند الاتراك واستدعوه الى بغداد شارطين عليه دفع مبالغ كبيرة من المال ثمناً لبيعته ، ولم يستطع الملك العزيز تلبية مطالبهم، فتحرك أبو كاليجار صاحب الاهوار نحو بغداد ، واستطاع شراء موافقة الجند ، وبعدما دخل بغداد سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م استحصل من الخليفة على أمر تفويضه بأمور سلطات الخلافة ، ولقب « بالملك الرحيم » ، وأعطاه الخليفة هذا اللقب بعد تردد، لأن الله تعالى هو « الملك الرحيم » ، ولا يجوز لانسان أن يتسمى باسم من أسماء الله ، وكان « الملك الرحيم » آخر حكام الاسرة البويهية في بغداد، حيث دخل الغز الى العراق ، وأقاموا السلطنة السلجوقية ، وكانت سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥ آخر سني الملك الرحيم والدولة البويهية (١٧) .

وحكم خلال العصر البويهي خمسة خلفاء هم المستكفي والمطيع والطائع والقادر ، والقائم ، وكان الخلفاء في هذا العصر قد جردوا من كل شيء الا ألقابهم ، ولقد تعرضوا للاهانة ، وكان حكام بني بويه يرون في الخلفاء العباسيين جماعة مغتصبة للخلافة ، ولم يبق البويهيون على هؤلاء الخلفاء الا للتمويه ولتسيير الامر ، وشعر البويهيون بقوة مكانة الخلفاء الدينية لدى شعب العراق ، لذلك حرصوا على اظهار الطاعة لهم أمام الجمهور وفي المواسم الدينية .

وحرص البويهيون على القيام ببعض الاصلاحات في العراق وغيرها من البلدان خاصة في ميدان الري والزراعة ، وكانت دولهم دائما بحاجة الى مزيد من المال ، لذلك لجأ بعض البويهيين الى منح الجند قطاعات من الارض لاستغلالها ، فكان هذا بداية قيام الاقطاع العسكري الذي سيتطور في العصر التالي تطوراً كبيرا الى حد أنه سيصبح أحد ركائز العمل الزراعي ، وأدى قيام الاقطاع العسكري الى تحكم الجند بالاراضي وبزراعتها وانصرافهم عن مهنتهم الأصلية ، ثم ان الجند كانوا يستغلون كل موارد الارض، ولم يدفعوا شيئا يذكر لخزانة الدولة ، مما أدى الى العجز المالي للدولة ، وتقويض النظام السياسي والاقتصادي .

واتسم الحكام البويهيون بعد عضد الدولة بقلة التجربة ، وانعدام الحنكة والمقدرة السياسية والادارية ، والانغماس باللهو واللعب ، ونجم عن هذا

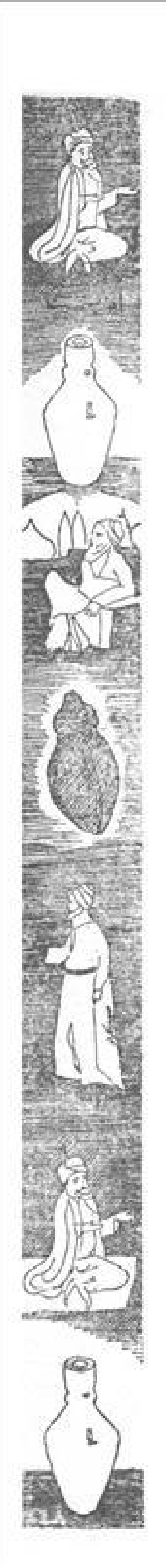
تضاعف الاضطراب والفوضى ، ولقد ارتكب البويهيون خطأ مميتا حين أكثروا من استخدام العناصر التركية وغيرها في جيوشهم · فكان أن خرج الامر من أيديهم،ووجدصراع دائم بين عناصر الجيش وأسلحته ،وأضعفهذا الصراع الجيش ومنعه عن القيام بوظيفته في المحافظة على وحدة الدولة وحماية حدودها ، ولقد أهملت الجبهة البيزنطية زمن البويهيين اهمالا شديداً ، وترك أمرها لأهل الثغور وللدولة الحمدانية في حلب ، وكانت بيزنطة في هذا العصر قد عاشت فترة انتعاش وقوة ، لذلك استطاعت قواتها أن تستولي على مناطق كبيرة من الثغور وتحتل أنطاكية وتدخل حلب وتدمرها ، وتحاصر دمشق ، وتدمّر حمص وتتجول في بلاد الشام بدون معارضة تقريبا ·

وكانت السياسة الدينية للبويهيين غير موفقة ، فلقد تعصبوا للشيعة، وأدى هذا الى احداث الفرقة بين صفوف الشعب ، فتدمرت « الوحدة الوطنية » للأمة ، وعاش الناس في صراع مذهبي مستمر ·

وشهد عصر بني بويه تحولات اجتماعية كبيرة وتغييرات اقتصادية ، فازداد الفقر وانعدم الأمن بين صفوف الغالبية العظمى للشعب ، فنجم عن ذلك قيام بعض الحركات الاجتماعية كان أبرزها في العراق حركة العيارين ، ووسم معظم المؤرخين العيارين باللصوصية وحب الفوضى والفساد ، لكن عندما يتفحص المرء هذه الحركة يلاحظ أنها كانت وليدة الفوضى السياسية والظلم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي ، وأنها ابتغت العدالة والمساواة وعدم الاستغلال ، وواضح في سير كثير من رجالات العيارين صفات الرجولة والانسانية ، ويبدو أنه قد كان لحركة العيارين صلة قوية بحركة الفتوة ، الحركة التي ازدهرت في العصور الأخيرة للدولة العباسية (١٨) ·

وفي الوقت الذي اضطربت فيه أحوال البويهيين كانت الاوضاع السياسيةفي بلاد الشام أيضا غير مستقرة ، فقد وجد في أعالي بلاد الرافدين دولة بني عقيل في الموصل والدولة المروانية في ميافارقين ودياربكر ، وحكمت حلب من قبل الدولة المرداسية، ودمشق وجنوبي بلاد الشام من قبل الخلافة الفاطمية ، وقد عانت هذه الخلافة من مشاكل عقائدية كبيرة ومن أزمات اقتصادية خانقة ، وقاد هذا الى اضطرابات داخل الجيش الفاطمي انتهت باستيلاء بدر الجمالي ـ وكان ضابطا من أصل أرمني ـ على مقاليد الامور في القاهرة، ومن ثم بدأ يتحكم بالخلفاء حسب الطريقة التي قامت في بغداد ، وحين سقطت الدولة البويهية للسلاجقة ، كانت جموع من التركمان قد اجتاحت بلاد الشام والجزيرة حيث أحدثت تخريبا كبيرا وتغييرات عميقة للغاية(١٩)·





(١) انظر كتابي اخبار القرامطة : ٣ ــ ٣٠.

(٢) تاريخ بخارى للنرشخي : ٨٦ ــ ٨٧ ، ١٠٥ ــ ١٤٩ .

Four studies of the history of central Asia 1, 12 - 13, 21. Turkestan dawn to the Nongol invasions 222 - 45. The Cambridge history of Iran, V, 10 - 11. The Ghaznavids, 27 - 34. The Islamic dynasties. 101 - 102.

The Islamic dynasties, 112 - 114. The Cambridge history of Iran, V, 11-12.

(٣) تاريخ بخارى للنرشخي : ١٤٣ ــ ١٤٩ . ديوان لغات الترك للكاشغري: ١ / ٣٩٣ .

Four studies on the history of central Asia, 21 - 26. Turkestan, 45 - 305

(٤) مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٣٢ ــ ٣٧ .

(٥) تاريخ بخارى : ١٣١ ــ ١٣٣ .

Four studies of the history of central Asia, 1, 25 - 26. Turkestan, 274 - 302. The Cambridge history of Iran, V, 11 - 16. The Islamic dynasties, 181 - 183.

هذا وان كتاب : C. E Boaworth, the Ghaznavids, Edinburgh, 1963.

هو احسن ما كتب حتى الان عن تاريخ الغزنويين .

(٦) تاريخ بخارى : ١٣١ ــ ١٣٣ .

Four studies on the history of central Asia, 1, 25 - 26. Turkestan, 274 - 302. The Cambridge history of Iran, V, 11 - 16. The Islamic dynasties, 181 - 183. The Ghaznavids.

(٧) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه : ٣٨٣ .

(٨) المنتظم : ٦/٢٠٧ ــ ٢٠٨ ، ٢٦٨ ــ ٢٧١ .

(٩) تجارب الامم لمسكويه : ٢/٨١ ــ ٨٣ .

(١٠) مسكويه : ٢/٨٤ ــ ٨٥ .

(١١) مسكويه : ٢/٨٦ ــ ٨٧ .

(١٢) نفس المصدر : ٢/٨٧ ــ ٨٩ .

(١٣) نفس المصدر : ٢/٨٩ ــ ٩٤ .

(١٤) مسكويه : ٢/٣٨٠ ــ ٤١٧ . المنتظم : ٧/٣٨ ــ ١١٨ . ابن خلدون : ٤/٩٤٧ ــ ٩٧٥ .

(١٥) المنتظم : ٧/١٣٣ ــ ١٥٠ . ذيل تجارب الامم : ٣/٥٣ ــ ١٧٥ . ابن خلدون : ٤/٩٨٣ ــ ٩٨٥ .

(١٦) المنتظم : ٨/١٧ ، ٢١ ــ ٤٤ . ابن خلدون : ٤/١٠٠٤ ــ ١٠١٣

(١٧) المنتظم : ٨/١٦٢ ــ ١٦٦ . ابن خلدون : ٤/١٠٤٠ ــ ١٠٤٤

(١٨) ان كتاب المنتظم لابن الجوزي افضل مصدر فيه أخبار الفتن الدينية للعصر البويهي مع نشاط العيارين وأعمالهم . فلينظر .

(١٩) لقد عالجت هذا كله بشكل واف في كتابي «مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية فلينظر» .



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد : ٢٩ ـ صفر ١٤٠٨ تشرين الأول « اكتوبر » ١٩٨٧ ـ السنة الثامنة

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول ـ اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ ـ ☎ ٢٤٤٢٩٩ ـ ٢٤٤٣٢٩

مع ابن العديم وكتابه
بغية الطلب في تاريخ حلب

د. سهيل زكار

عرفت ابن العديم للمرة الأولى عام ١٩٦١ ، وكنت آنئذ طالباً في قسم التاريخ في جامعة دمشق، وقد عرفته آنذاك من خلال كتابه « زبدة الحلب من تاريخ حلب » ، ثم مرت الأيام فأوفدت لتحضير الدكتوراه في جامعة لندن ، وهناك جعلت موضوع أطروحتي البحث في تاريخ إمارة حلب خلال القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، ولدى شروعي بالعمل وجدت أن أهم مصادري المتوفرة هو كتاب « زبدة الحلب » ، وعدت الى هذا الكتاب فتعرفت من جديد على محتوياته ، وبدأت معرفتي بابن العديم تتأكد وتتأصل ، ومن خلال البحث عرفت من مقدمة محققه المرحوم الدكتور سامي الدهان له ، أن لابن العديم عدداً من المؤلفات أهمها كتاب اسمه « بغية الطلب في تاريخ حلب » ، وقد تحدث الدكتور الدهان عن هذا الكتاب ونسخه الخطية وجاء في ثنايا هذا الحديث قوله : « ولن نفيض في وصف هذه النسخ هنا ، ولن نبسط طريقتنا في التعرف اليها وترتيبها ، وانما نحيل القارىء الى الجزء الأول من « بغية الطلب » ، فنحن نطبعه في القاهرة المعزية ، ونصدره بدراسة مطولة يدرك معها القارىء سبب سرورنا ، ومبلغ سعادتنا في تسلمها جميعاً في القرن الرابع عشر كما ذكرها السخاوي في القرن العاشر » ، [ص : ٥٥] .

وبحثت عن كتاب بغية الطلب في مكتبة المعهد فلم أجده ، وعجبت للأمر ، خاصة أن هذا حدث معي عام ١٩٦٧ ، أي بعد مرور ما يزيد على ست عشرة سنة على نشر المجلدة الأولى من كتاب زبدة الحلب .

وبعد بحث طويل تأكد لدي أن الكتاب لم ينشر ، ولم يدفع قط لمطبعة ، وهنا أخذت أبحث عنه فوجدت المرحوم الأستاذ الطباخ يذكره في كتابه « أعلام النبلاء » ، انما يبين بأمانة أنه لم يره انما سمع بوجوده في استانبول .



وتبعاً لهذا يممت وجهي شطر استانبول، وأخذت أبحث عن الكتاب وعن مصادر اضافية أعود اليها اثناء البحث في موضوع اطروحتي، وفي استانبول عرفت بوجود عشر مجلدات من هذا الكتاب جميعها بخط المؤلف ، وهي موزعة على ثلاث مكتبات ، وتمكنت من الحصول على مصورة لهذه المجلدات ·

وبعد عودتي الى لندن عرفت أن بين محتويات مكتبة المتحف البريطاني مجلداً من كتاب بغية الطلب ، وأن المكتبة الوطنية في باريس تحوي أيضاً واحداً من أجزاء الكتاب كما ان مكتبة المرحوم داود جلبي في الموصل فيها أحد أجزاء الكتاب ، ولدى البحث والمقارنة تبين لي بان هذه الأجزاء ليست بخط المؤلف وأن محتوياتها موجودة بين الأجزاء العشرة التي صورتها من مكتبات استانبول ·

وفي لندن قرأت أجزاء كتاب بغية الطلب وتعرفت الى محتوياتها ، فأدركت مدى أهمية هذا الكتاب وأهمية محتوياته ليس كمصدر لتاريخ شمال بلاد الشام بل كمصدر أساسي لتاريخ بلاد الشام جنوباً وشمالاً ثم تاريخ الاسلام بشكل عام ، وانه تبعاً لهذا ينبغي نشره ·

وبعد عودتي الى دمشق أخذت أخطط لنشر المجلدات العشرة الموجودة من كتاب البغية ، وتأكد لدي أنه لا يوجد في العالم غيرها ، ومعروف أن ابن العديم كان قد وضع خطة لكتابة مصنفه هذا في أربعين مجلدة ، انما لا ندري هل تمكن من كتابة مسودة هذه المجلدات جميعاً ، أم أن المنية حالت بينه وبين ذلك ، ثم نحن لا ندري الآن ماذا تحتل المجلدات الموجودة من حجم الكتاب الأصلي ، لانها في وضعها الحالي هي على غير الحال التي كانت عليه حين صنفها ابن العديم: « أوراقها مدشوته » وقد أخذ كل جزء من أجزائها مكاناً غير مكانه ، ويعني هذا أنها كانت قبل تسفيرها الاخير عبارة عن مجموعة من الأجزاء والأوراق ، وأن الذي تولى تسفيرها لم يكن من ذوي العلم والدراية ···

ليس في نيتي القيام بوصف هذه المجلدات العشر بشكل مسهب في هذا البحث ، بل انني سأدع ذلك كله الى بحث متكامل أصنعه عن ابن العديم وعن كتابه بغية الطلب ، وسأقوم - بعونه تعالى - بالحاق هذا البحث بفهارس الكتاب العامة وذلك بعدما أفرغ من نشره ·

ومن حسن الحظ أن الموجود من كتاب بغية الطلب فيه المجلدة الأولى مع المجلدة الأخيرة منه ، وهذا سيمكننا من التعرف على الخطة العامة للكتاب ، وهي خطة اقتبسها ابن العديم من كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، فقد وقف ابن العديم المجلدة الأولى من الكتاب على الحديث عن فضائل شمالي بلاد الشام مع وصفها الجغرافي وأخيراً أخبار فتوحها على أيدي المسلمين ، وبعد ذلك أخذ يترجم لأعلام شمال بلاد الشام ممن ولد هناك أو مرّ أو سكن أو ··· ، على حروف المعجم ولم يقتصر على أعلام حقب تاريخ الاسلام بل تناول أعلام ما قبل الاسلام مثل الفيلسوف أرسطو وسواه ·

ويختلف عمل ابن العديم عن عمل « أستاذه » ابن عساكر ، كاختلاف مهنتيهما مع سيرة حياتهما ، فابن عساكر كان محدثاً أولاً وآخراً ، وابن العديم كان سياسياً وريث أسرة أرستقراطية جمعت بين العلم والقضاء والحكم والسياسة والتجارة والنشاط الزراعي·

بعد هذا كله أرى من الأحسن التعرف الى الملامح العامة لحياة ابن العديم ومن ثم نعود الى الحديث عن كتابه بغية الطلب ٠

ان مصدرنا الأول والأساسي عن حياة ابن العديم مع تاريخ أسرته هو كتاب بغية الطلب ، حيث ضمنه العديد من تراجم أفراد أسرته ، كما تحدث هنا وهناك عن نشاطات رجال أسرته في مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية للقسم الشمالي من بلاد الشام ، وبالاضافة الى هذا المصدر الأساسي نجد ياقوتاً الحموي صديق ابن العديم يذكر أنه اعتمد في ترجمته له على كتاب اسمه « الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة » ، وقال ياقوت : « أنا سألته جمعه فجمعه لي ، وكتبه في نحو أسبوع ، وهو عشرة كراريس » ٠

وابن العديم هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ٠٠٠ بن أبي جرادة ، وقد ولد في مدينة حلب في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة ، وعندما بلغ السابعة من عمره حمل الى المكتب للدراسة ، وهناك ظهرت استعداداته مما بشر بنبوغه المبكر ، وقد كان نحيف البنية لذلك عني به أبوه عناية كبيرة ، فحدب على رعاية صحته ، وسهر على تربيته وتعليمه ، ونظراً لمنزلة والده ولما تمتعت به أسرته من مكانة نال ابن العديم حظه وافياً من معارف عصره الدينية والدنيوية ، ويروى بأن أباه حضه على اتقان قواعد الخط ، ذلك أنه ـ أي الأب ـ كان رديء الخط ، فأراد أن يجنب ابنه هذه الخلة ، ونجح في هذا المجال نجاحاً كبيراً للغاية ، وقد وصف ياقوت اتقان ابن العديم لقواعد الخط العربي بقوله : « وأما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقلة لأبي عبدالله بن مقلة ، وبدر ذو كمال عند علي بن هلال » ، ويؤكد شهادة ياقوت هذه المجلدات العشرة من كتاب بغية الطلب التي وصلتنا بخط ابن العديم ، حيث نرى فيه واحداً من ألمع النسّاخ في تاريخ العربية وأكثرهم ضبطاً وبراعة وأمانة ويقظة ودراية ٠

وفي باب العناية في انشاء ابنه وتثقيفه صحب أحمد بن هبة الله ولده عمر في رحلاته وأسفاره ، حيث زار دمشق أكثر من مرة كما زار بيت المقدس ورحل الى العراق والحجاز ٠

وعندما بلغ سن الشباب وجد ابن العديم السبل أمامه كلها مفتوحة لمستقبل لامع ، وكان لمواهبه وثقافته وأسرته الفضل الأكبر في تحقيق نجاحاته ، وهنا يحسن التوقف قليلا للتعرف الى أسرة ابن العديم ، وذلك قبل متابعة الحديث عن مراحل حياته :

يعرف الجد الأعلى للصاحب كمال الدين باسم ابن أبي جرادة ، وكان صاحباً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ينتسب الى ربيعة من عُقيل احدى كبريات قبائل عامر ابن صعصعة العدنانية ، وكان يقطن مدينة البصرة ، وفي هذه المدينة عاش أولاد آل أبي جرادة وأحفادهم ، وفي مطلع القرن الثالث للهجرة قدم أحد أفراد أسرة أبي جرادة الى الشام في تجارة وكان اسمه موسى بن عيسى وحدث آنئذ أن ألمّ بالبصرة طاعون ، لهذا قرر موسى البقاء في الشام ، واستوطن مدينة حلب ، وفي هذه المدينة التي كانت عاصمة شمال بلاد الشام ، ومفتاح الطريق الى العراق وبلاد المشرق الاسلامي مع آسية الصغرى والأراضي البيزنطية ، فيها خلف موسى بن عيسى أسرة نمت مع الأيام عدداً



ومكانة وثروة وشهرة ، وتملكت هذه الأسرة الأملاك ، كما ساهمت في جميع ميادين الحياة في حلب من سياسة وعلم وقضاء وادارة وتجارة وغير ذلك ، وبهذا غدت أسرة آل أبي جرادة من أبرز أسر حلب ، وظلت هكذا حتى حل بحلب الدمار على أيدي جيوش هولاكو ، كما ظلت محتفظة باسمها ذاته طوال تاريخها، انما في القرن الأخير من حياتها كسبت اسماً اضافياً ، أخذ رويداً رويداً يعم في الاستعمال أكثر من الاسم الأصيل ، لكنه لم يلغه ، وكان الاسم الجديد هو « العديم » ، ونحن لا نملك تعليلا لسبب هذه التسمية ، فقد قال ياقوت : « سألته أولاً لمَ سميتم ببني العديم ؟ فقال : سألت جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه ، وقال : هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا » .

ودانت أسرة ابن أبي جرادة بالتشيع حسب مذهب الإمامية ، وظلت هكذا حتى بدأ التشيع بالانحسار في حلب، وذلك منذ النصف الثاني للقرن الخامس/الحادي عشر ، هذا وان كنا لا نعرف بالتحديد تاريخ أخذ هذه الأسرة بمذاهب السنة أمكننا أن نقدر ذلك ، بحكم سقوط سلطة الشيعة في حلب مع عصر السلطان السلجوقي ألب أرسلان [وهو أمر بحثته بالتفصيل في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية] ونظراً لعلاقات أسرة آل أبي جرادة الخاصة مع سلطات حلب ، لا بد أن الحال اقتضى المسايرة والتحول الى السنة، ولربما حسب المذهب الحنفي .

وفي عودة نحو سيرة الصاحب كمال الدين نجده يحدثنا بأن والده خطب له وزوجه مرتين، فقد أخفق في الزواج الأول ، لذلك طلق زوجته وتزوج ثانية بابنة الشيخ الأجل بهاء الدين أبي القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله ـ المعروف بالعجمي ، وكان شيخ أصحاب الشافعي ومن أعظم أهل حلب منزلة وقدراً وثروة ومكانة سياسية ودينية واجتماعية ، ومن زواجه الثاني رزق الصاحب كمال الدين أولاده ، ولم يمت والده حتى كان ابنه أحمد طفلاً يدب على الأرض، ويمكننا التعرف الى هذا الابن من خلال استعراضنا لكتاب بغية الطلب حيث سمع الكتاب على أبيه وقام بعد وفاة والده باستدراك بعض المواد التي حالت المنية بين والده وبين تدوينها في كتابه ، فمن المقرر أن ابن العديم مات دون أن يقوم باعادة النظر في مؤلفه « بغية الطلب » ، ولم يقم بتبييضه ، والذي وصلنا هو مسودة الكتاب ، انما نظراً لبراعة المؤلف وحسن طريقته وجودة خطه ، نرى أن مكانة الكتاب وأهميته هي هي ، ذلك أن أهمية الكتاب نابعة مما حواه من مواد تاريخية نهلها ابن العديم من وثائق ومصنفات غيبها الزمن عنا ، فابن العديم كان مصنفاً ممتازاً ولم يكن « مؤرخاً » حسب مصطلحات أيامنا هذه ، فهو قد جمع في كتابه المواد الاخبارية ونسقها ، لكنه لم يحاول تعليلها ومعالجتها كما يفعل الباحث في التاريخ في جامعات أيامنا هذه ...

ومنذ أن بلغ الصاحب كمال الدين سن الشباب أخذ يشارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب ، فقد كان يحضر مجلس الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ـ فيكرمه ويقربه ويقبل عليه أكثر من اقباله على غيره ، رغم صغر سنه ، وفي ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة ولّي ابن العديم أول عمل رسمي ، لقد ولي التدريس في مدرسة شاذبخت وكانت من أجل مدارس حلب وأرقاها كل « هذا وحلب أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ ، والفضلاء الرواسخ ،الا أنه رؤي أهلاً لذلك دون غيره ، وتصدر،

وألقى الدرس بجنان قوي ، ولسان لوذعي ، فابهر العالم وأعجب الناس» [ياقوت: ١٦/أ٤٤]، ويبدو أنه تولى بعد هذه المدرسة التدريس بالمدرسة الحلاوية ، التي كانت أجل مدارس حلب ، وهي مدرسة ما زالت قائمة حتى الآن ، تعلو واحداً من جدرانها لوحة حجرية كتبها ابن العديم بخطه ٠

ومع مرور الأيام علت مكانة ابن العديم، فسفر عن ملوك حلب الى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى، والى سلاطين القاهرة وخلفاء بغداد ، وكانت خزائن كتب ووثائق كل بلد زارها تحت تصرفه ، فنهل منها ما لم ينهله سواه ، وأودع جلّ ذلك في كتابه بغية الطلب ، ومن هذه الزاوية يمكن أن نرى أهمية هذا الكتاب ، ومن ناحية أخرى يمكننا أن نرى المدى الذي وصلت اليه خزائن المشرق العربي قبيل وقوع الطامة الكبرى على يد المغول بسنوات ٠

وفي كل مكان زاره ابن العديم كان يلقى الحفاوة من رجال السلطة ، وكان بنفس الوقت يلتقي بالعلماء وشيوخ العصر فيأخذ عنهم ، ولقد أودع ما أخذه عن علماء عصره، وما رآه من أحداث أو شارك به ، أودعه في كتابه بغية الطلب ، حتى غدا هذا الكتاب أشبه بمنجم للمعلومات لا ينضب معينه ٠

وظل نجم ابن العديم يصعد في سماء السياسة في حلب وسواها حتى وصل الى مرتبة الوزير ، ولكن مشاغل السياسة والحياة العامة لم توقف العمل الفكري ولم تعطله ، وهكذا صنف ابن العديم عدداً كبيراً من الكتب ، غلب على معظمها سمة التاريخ ، ولعل أشهر كتبه « كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب » و « كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري » ، وكتابنا الذي نتحدث عنه اليوم ، وقد طبع كتاب الزبدة في أجزاء ثلاثة في دمشق ، أما كتاب « الانصاف » فقد طبعت قطعة منه للمرة الأولى بحلب ثم أعيد طبعها في القاهرة، وأقول قطعة ذلك أن الكتاب لم يصلنا كاملاً بشكل مباشر ٠

وعندما قلت بشكل مباشر أردت أن أقول بأن الكتاب وصلنا بشكل غير مباشر ، فواحد من أحفاد ابن العديم ممن عاش بعد جده في القاهرة ، صنف كتاباً حول القاضي الفاضل دعاه باسم « سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل » ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وفي ثنايا الكتاب ورد في احدى رسائل القاضي الفاضل بيت من شعر المعري ، وأراد حفيد ابن العديم أن يعرّف بالمعري ، فقال قال جدي في كتابه الانصاف والتحري ، وأثبت نص الكتاب بكماله ، ويوجد هذا الكتاب مصوراً على شريط في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ٠

ويعود سبب انتقال ابن العديم الى القاهرة ، الى تعرض مدينة حلب الى الدمار سنة ٦٥٧ هـ على يد جيوش هولاكو ، وكان ابن العديم غادر مدينته الى دمشق ، ثم منها الى غزة فالقاهرة ، ويبدو أنه عاد بعد عين جالوت الى دمشق ، وربما أراد التوجه الى

حلب ، أو توجه اليها فعلاً ليعاين الدمار الذي لحقها ، وفي أثناء ذلك عرض عليه هولاكو منصب قاضي حلب ، فرفض ، وعاد الى القاهرة ، حيث أمضى بقية حياته ، وقد وافته منيته في مصر في العشرين من جمادى الأولى سنة ستمائة وستين للهجرة ·

ان التشتت الذي لحق بابن العديم في سنوات حياته الأخيرة ، ثم ما آلت اليه الحال في بلاد الشام ، قد ترك أبعد الآثار على مكتبة ابن العديم مع مؤلفاته ، وخاصة كتابه « بغية الطلب » ، فاذا قبلنا فرضاً بأن ابن العديم قد أنجز تسويد مؤلفه ، من المؤكد أنه لم يتمكن من تبييضه وبالتالي لم تقم أمام الكتاب الفرصة لنسخه وتداوله ·

ان من يقرأ بعض المتبقي من كتاب « بغية الطلب » يدرك عظمة ابن العديم ، فيرى فيه أعظم مؤرخ أنجبته بلاد الشام بلامنازع ، وبلا شك علَماً بارزاً للغاية بين أعلام فن التأريخ الاسلامي ، ومن هذا المنطلق رأيت من المتوجب العمل في سبيل تحقيق الكتاب ونشره ، وبالفعل فرغت عام ١٩٧٢ من تحقيق المجلدة الأولى من الكتاب ، وشرعت في العمل في المجلدة الثانية ، وأخذت أبحث عن ناشر يتعهد نشر الكتاب وتوزيعه ضمن شروط تصون الكتاب وتبعده عن طرائق الوراقين في النشر ، فلم أوفق ، وكانت القضية بحاجة الى مساعدة من جهة حكومية أو غير حكومية ، ولقد رأيت في المبادرات التي تمت تجاه تاريخ ابن عساكر ما يشجع ، انما بعد اطلاعي على التجربة ، ملت نحو عدم طلب المساعدة الحكومية ، فأنا شخصياً أرى في التراث شيئاً مقدساً ، انه يحوي النتاج الفكري لأمتي خلال أجيال وهذا النتاج جزء من الماضي ، ولا يجوز أن تطلب من الماضي أكثر من الماضي ، وانه لإثم عظيم أن يُسيَّس تراثنا ، وانه لكفر ما بعده كفر أن يلقي التراث المعاملة التي يلقاها الآن من الوراقين ومن أنصاف المتعلمين فالذي يحل بالتراث الآن على أيديهم أعظم شناعة من جريمة هولاكو وجنده ·

⋆ ⋆ ⋆

توجد مخطوطة المجلدة الأولى من كتاب « بغية الطلب » في خزانة جامع أيا صوفيا باستانبول وهي نسخة فريدة بالعالم ، لا نعرف بوجود نسخة أخرى عنها ، وجاءت هذه النسخة ـ كما سلفت الاشارة ـ بخط المؤلف ، وتحوي مائتين واحدى وعشرين ورقة من الكتاب ، ألحق بها بضع أوراق عليها ملاحظات وتمليكات كتبت بشكل أخص من قبل متملك النسخة الأخير في القرن التاسع للهجرة واسمه محمد بن محمد بن محمد بن السابق الحموي الحنفي ، وسألحق نصوص هذه الملاحظات والتمليكات بهذه المقدمة ·

ان النسخة التي بين أيدينا هي بلا شك تشكل المجلدة الأولى من كتاب بغية الطلب حسب خطة المؤلف ، وحسب الموجود بين أيدينا الآن ، وهذا أمر لا نستطيع تقريره بالنسبة للمجلدات الأخرى من الكتاب اللهم الا بالنسبة للمجلدة الثامنة من مجلدات مكتبة أحمد الثالث باستانبول ، حيث أعتقد أنها تحوي نص المجلدة الأخيرة من الكتاب ، أي المجلدة الاربعين اذا صح خبر تصنيف ابن العديم لكتابه في أربعين مجلدة ·



وقد وصلتنا نسخة المجلدة الأولى ناقصة الاول والآخر ، فُقد من أولها جزء واحد فيه ما لا يقل عن عشر أوراق ، ولا بد أنه حوى خطبة الكتاب مع بداياته ، هذا ومن الصعب تحديد كمية الأوراق الناقصة من آخر المجلدة، انما يخيل لي أنها ليست كثيرة ، ربما تماثل ما نقص من المطلع تقريباً ٠

هذا ولم تكن مشكلة النقص هي المشكلة الوحيدة التي أصابت هذه المجلدة ، بل ـ كما سبق وأشرت ـ اضطربت أجزاء الكتاب وتداخلت الأوراق ، ولقد قمت باعادة ترتيب أوراق هذه المجلدة بشكل متيقن من صحته ، انما باستثناء ورقة واحدة لم أهتد الى مكانها لذلك ألحقتها بآخر الكتاب ، والذي مكنني من اعادة ترتيب الكتاب هو الترابط بين الموضوعات، علماً بأن ابن العديم لا يستخدم « الرقاص » في نهاية الصفحات ، يضاف الى ذلك أن ابن العديم سمع الكتاب من أولاده ، وتم السماع عبر عدة مجالس ، وكان من حسن الحظ أن قلم المؤلف بتدوين تاريخ كل مجلس سماع ، ولقد مكن وجود التواريخ المتلاحقة من اعادة ترتيب الكتاب ، ويكفي هنا أن نضرب بعض الأمثلة على حالة الاضطراب التي كانت مسيطرة على الكتاب، فالورقة رقم /١/ الآن كانت من قبل تحمل رقم /٤٧/ ورقم /٢٧/ الآن كانت من قبل تحمل رقم /٧٣/ والورقة رقم /١٥٧/ كانت من قبل تحمل رقم /١٠/ وهكذا ٠٠٠

وعلى العموم وصلنا كتاب بغية الطلب بحالة لا بأس بها ، انما لا بد من أن نشير الى مسألة هامة ، وهي أنه رغم جودة خط ابن العديم وضبطه ، فقد كان من عادته الاقلال من استخدام التنقيط ، وهذا الحال عبارة عن مزلقة كبيرة تقود الى التصحيف ، أن لم يتم العمل بحذر شديد مع الاستعانة بالمصادر اللازمة ٠

لقد أنجزت تحقيق القسم الأعظم من مجلدات بغية الطلب ، وقمت أثناء عملي باعادة ترتيب أوراق كل جزء منها لأنها كانت « مدشوتة » وفي شتاء عام ١٩٧٨ دفعت المجلدة الأولى للطباعة ـ في دار الفكر ببيروت ـ وأملي كبير بأن تخرج هذه المجلدة الى السوق الشهر المقبل ليتم طبع المجلدة الثانية ٠

ومرد تأخير طباعة هذه المجلدة غيابي السنوات الماضية في المغرب ، لكن الآن وقد عدت مجدداً الى دمشق الأمل عظيم بأن تتم أعمال طباعة هذا الكتاب العملاق خلال العامين المقبلين ٠

ان المنهج الذي اتبعته في تحقيق كتاب بغية الطلب ، استهدف أولاً ضبط نصه ، واخراجه بالصورة التي ابتغاها مؤلفه ، مع الاقلال الى أكبر الحدود من الحواشي ، وفقط اثبات الضروري منها ، هذا ومن الملاحظ أن ابن العديم نهل جلّ مواد كتابه من مصادر متوفر بعضها والبعض الآخر هو في حكم المفقود ، أو من المتعذر الوصول اليه ، ولقد قمت بتخريج النصوص التي تمكنت من الوقوف على أصولها ، ونبهت الى الفوارق ان وجدت ، ولقد تجلى لدي أثناء عمليات التخريج مدى دقة ابن العديم ، وعلو أمانته ، وخلصت الى نتيجة هامة مفادها أن « نقول ابن العديم » يمكن اتخاذها مرجعاً للضبط والتصحيح ، ولا شك أن هذا يزيد من قيمة كتاب بغية الطلب وقيمة محتوياته ٠

ولقد ارتأيت في البداية القيام بالتعريف بأصحاب المصادر التي نقل منها ابن العديم، ولكنني أقلعت عن ذلك ، كيما لا أثقل الحواشي وأتجنب عمليات التكرار ، ورأيت الاستعاضة عن ذلك أثناء وضع الفهارس العامة للكتاب ، بوضع فهرس على قاعدة - البيبلوغرافيا - أوضح فيه مصادر ابن العديم بذكر اسم المؤلف وسنة وفاته ، مع اسم كتابه أو كتبه المنقول عنها مع موضوعات النصوص المنقولة، وأخيراً أرقام الصفحات والمجلدات التي جاءت فيها بعد طباعة كتاب البغية ، وأملي كبير بأن يأتي هذا الفهرس كمفتاح عام للكتاب ، وأن يكون فيه بعض التجديد بالنسبة لأعمال تحقيق النصوص خاصة الطويلة منها(١) .

كتب ابن السابق الحموي بخطه على الصفحة الأولى :

١ - نوبة جمال غفر انه تعالى محمد بن محمد بن محمد بن السابق الحنفي عفا الله عنهم أجمعين ، بالقاهرة المحروسة في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الآخر في سنة ست وخمسين وثمانمائة ، أحسن الله عاقبتها في خير آمين .

٢ - يقول كاتب هذه الأحرف فقير عفو الله تعالى محمد بن محمد بن محمد بن الحموي الحنفي عامله الله بلطفه الخفي :انه يروي تاريخ حلب للصاحب كمال الدين عمر بن أحمد المعروف بابن أبي جرادة وبابن العديم عن الشيخ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي ، مؤرخ الديار المصرية، عن ناصر الدين محمد الهواري الطبردار عن الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي عن مصنفه الصاحب كمال الدين ابن العديم تغمدهم الله تعالى برحمته ورضوانه .

٣ - وجاء أيضاً على الصفحة الثانية بخط ابن السابق :

١ - عمر بن أحمد بن أبي الفضل هبة الله بن أبي غانم محمد بن هبة الله ابن قاضي حلب أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن هرون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد ابن أبي جرادة عامر بن ربيعة ابن خُوَيلد بن عوف بن عامر بن عُقيل ، الصاحب العلامة ، رئيس الشام كمال الدين أبو القاسم الهواري العُقَيلي الحلبي، المعروف بابن العديم .

---

١ - لقد ألحق بالمجلدة الأولى من الكتاب بضع أوراق فيها ملاحظات وتمليكات . ومعظم الملاحظات كتبت من قبل الجمال بن السابق الحموي ، الذي كان من أصحاب السخاوي ، وقد أتى على ذكره في كتابه الاعلان بالتوبيخ (ص : ١٤٤ . من مطبعة القدسي) ونظراً لأهمية هذه الملاحظات لأنها ارتبطت بترجمة لابن العديم ثم لتعلقها بفن التاريخ ولانها حوت ترجمة قصيرة للشريف الادريسي صاحب نزهة المشتاق الذي زار حلب فترجم له الصاحب كمال الدين ابن العديم : وقام ابن السابق بدوره بالاقتباس من هذه كما هو مرجح ، يضاف الى هذا أن ابن السابق ذكر في احدى الملاحظات تلقيه الكتاب من المقريزي مؤرخ مصر الاسلامية ، والمقريزي نهل من كتاب ابن العديم ما شاء له القدر ، لكن كما هي عادته لم يشر الى الكتاب ، فهو نادراً ما يشير الى مصادره ، ومايرد أحياناً في نصوصه من ذكر لبعض المصادر ، ينبغي الايلتبس على القارىء ، فالمصادر ليست مصادره ، بل مصادر صاحب النص المنقول عنه ، ووضح هذا الأمر لدي أثناء عملي في كتاب « المقفى » للمقريزي الذي شرع في تصنيفه أواخر حياته ، وأراد أن يجعله مشابهاً لتاريخ دمشق وبحجمه ، لكن المنية لم تسعفه ، وعندي الآن نسخة مصورة من هذا الكتاب فيها خمس مجلدات ، أربع منها بخط المقريزي وقد عملت في هذا الكتاب ، ونشرت بعض مواده ، وفي نيتي أن أنشر مزيداً من مواده قريباً فأعالج هذه المسألة بشكل اوفى .

لهذا كله رأيت مفيداً الحاق بحثي هذا بما دونه ابن السابق ، ذلك لأنني أرى أن تكون أبحاث مجلة كمجلة التراث مقرون كل منها بنص تراثي .

ولد سنة ست وثمانين وخمسمائة وتوفي سنة ستين وستمائة ، وسمع من أبيه ومن عمه أبي غانم محمد ، وابن طبرزد ، والافتخار ، والكندي ، وابن الحرستاني ، وسمع جماعة كثيرة بدمشق ، وحلب ، والقدس ، والحجاز ، والعراق، وكان محدثاً حافظاً، مؤرخاً صادقاً، فقيهاً ، حنفياً ، مفتياً ، منشيا بليغاً ، كاتباً مجوداً ، درس وأفتى ، وصنف وترسل عن الملوك ، وكان رأساً في الخط المنسوب اليه بالنسخ والحواشي ٠

أطنب الحافظ شرف الدين الدمياطي في وصفه ، وقال : ولّي قضاء حلب خمسة من آبائه متتالية ، وله الخط البديع ، والخط الرفيع ، والتصانيف الرائقة ، منها تاريخ حلب ، أدركته المنية قبل اكمال تبييضه ، وروى عنه الدواداري وغيره ، ودفن بسفح المقطم بالقاهرة ٠

قال ياقوت : سألته لم سميتم ببني العديم ؟ فقال : سألت جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه ، وقال : هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون به ، ولم يكن في نساء أهلي من يعرف بهذا ، ولا أحسب الا أن جدّ جدّي القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة مع ثروة واسعة ، ونعمة شاملة ــ كان يكثر في شعره من ذكر العدم ، وشكوى الزمان ، فان لم يكن هذا سببه ، فلا أدري ما سببه ٠

قال : ختمت القرآن ولي تسع سنين ، وقرأت بالعشر ولي عشر سنين ، ولم أكتب على أحد مشهور ، الا أن تاج الدين محمد بن أحمد بن البورنطي البغدادي ورد الينا الى حلب ، فكتبت عليه أياماً قلائل ، لم يحصل منه فيها طائل ، وله كتاب « الدراري في ذكر الذراري » جمعه للملك الظاهر ، وقدمه اليه يوم ولد ولده الملك العزيز ، وكتاب « ضوء الصباح في الحث على السماح » صنفه للملك الأشرف ، وكتاب « الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة » وكتاب « في الخط وعلومه ووصف آدابه وطروسه وأقلامه » وكتاب « دفع التجري على أبي العلاء المعري » وكتاب « الإشعار بما للملوك من النوادر والأشعار » ٠

وممن كتب اليه يسترفده سعد الدين منوجهر الموصلي ، وأمين الدين ياقوت المعروف بالعالم ومنوجهر ياقوت الكاتب الذي يضرب به المثل ٠

وكان في بعض سفراته يركب في محفة تشدّ له بين بغلين ، ويجلس فيها ويكتب ، وقدم الى مصر رسولاً ، والى بغداد ، وكان اذا قدم مصر يلازمه أبو الحسين الجزار ، وله فيه مدائح ٠

٤ ــ وجاء على الصفحة الثالثة بخط ابن السابق أيضاً :

١ ــ للادريسي :

اذا عرف الانسان اخبار من مضى	توهمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر دهره	الى الحشر ان أبقى الجميل مع الذكر
فقد عاش كل الدهر من كان عالماً	كريماً حليماً فاغتنم أطول العمر

٢ ـ محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس بن يحيى بن علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عُبيدالله بن عمر بن ادريس [بن ادريس] بن عبدالله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب ، الشريف الادريسي ، مؤلف كتاب رُجَّار ، وهو « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، نشأ في أصحاب رُجَّار الفرنجي صاحب صقلية ، وكان أديباً ، ظريفاً ، شاعراً ، مغوى بعلم جغرافيا ، صنف لرُجَّار الكتاب المذكور ، ومن شعر الادريسي المذكور :

ليت شعري أين قبري ... ضاع في الغربة عمري
لم أدع للعين ما تشـ ... ـتاق في برٍّ وبحر
وخبرت الناس والأر ... ض لدى خير وشر
لم أجد جاراً ولا داراً ... كما في طيِّ صدري
فكأني لم أسر ... الا بميت أو بقفر

٣ ـ لأبي الخطاب محمد بن محمد بن أحمد البطائحي ـ روى شعره ابن النجار عن ثلاثة عنه :

يا راقد العين عيني فيك ساهرة ... وفارغ القلب قلبي منك ملآن
اني أرى منك عذب الثغر عذبني ... وأيقظ الجفن جفن منك وسنان

أخذ هذا المعنى شهاب الدين أحمد بن عبدالملك العزازي أحد من روى عنه الشيخ فتح الدين بن سيد الناس ، فقال في قصيدته التي أولها :

دمي بالحلال ذات الخال مطلول ... وجيش صبري مهزوم ومغلول

منها :

يا راقد العين عيني فيك ساهرة ... وفارغ القلب قلبي منك مشغول

فغير القافية لا غير .

٥ ـ وجاء على الصفحة الرابعة بخط ابن السابق ايضاً :

١ ـ فصل في فوائد التاريخ

منها واقعة رئيس الرؤساء مع اليهودي الذي أظهر كتاباً ، زعم أنه كتاب رسول الله ﷺ ، باسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة جماعة من الصحابة ، منهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، فحمل الكتاب الى رئيس الرؤساء ، ووقع الناس به في حيرة ، فعرضه على الحافظ أبي بكر خطيب بغداد ، فتأمله ثم القاه ، وقال : هذا مزوَّر ، فقيل له : من أين لك كل ذلك ؟ فقال : فيه شهادة معاوية ، وهو أسلم عام الفتح ، وفتوح خيبر قبل ذلك سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وهو مات يوم بني قُريظة قبل خيبر بسنتين ، ففرج ذلك عن المسلمين غماً .



وروي عن اسماعيل بن عياش أنه قال : كنت بالعراق ، فأتاني أهل الحديث، فقالوا: ها هنا رجل يحدث عن خالد بن معدان ،فأتيته فقلت: أي سنة كتبت عن خالد بن معدان؟ فقال: سنة ثلاث عشرة ـ يعني ومائة ـ فقلت : أنت تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين لأن خالداً مات سنة ست ومائة ٠

وروي عن الحاكم أبي عبدالله أنه قال: لما قدم علينا أبو جعفر محمد بن حاتم الكشي ـ بالشين والسين معاً ـ وحدث عن عبد بن حُميد ، سألته عن مولده ، فذكر أنه ولد سنة ستين ومائتين ، فقلت لأصحابنا هذا يزعم أنه سمع من عبد بن حُميد بعد موته بثلاث عشرة سنة ٠

وذكر قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان ، قال : وجدت في كتاب الشامل في أصول الدين لامام الحرمين ، وذكر طائفة من الثقات الأثبات : ان هؤلاء الثلاثة تواصوا على قلب الدول ، والتعرض لافساد المملكة ،واستعطاف القلوب واستمالتها ، وارتاد كل واحد منهم قطراً ٠ أما الجنابي فأكناف الأحساء ، وابن المقفع توغل في أطراف بلاد الترك ، وارتاد الحلاج بغداد ، فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن درك الأمنية لبعد أهل العراق عن الانخداع، هذا آخر كلام إمام الحرمين ٠

ثم قال شمس الدين بن خلكان : وهذا لا يستقيم عند أرباب التواريخ، لعدم اجتماع الثلاثة المذكورين في وقت واحد ٠ أما الحلاج والجنّابي فيمكن اجتماعهما ، ولكن لا أعلم هل اجتمعا أم لا ، وذكر وفاة الحلاج في سنة تسع وثلاثمائة ، وذكر وفاة الجنابي في سنة احدى وثلاثمائة ، وذكر ابن المقفع فقال :كان مجوسياً ، وأسلم على يد عيسى بن علي عم السفّاح والمنصور ، وكتب له ، واختص به، وذكر أنه قتل في سنة خمس وأربعين ومائة٠

ثم ان ابن خلكان قال : لعل إمام الحرمين أراد المقنع الخراساني ، وانما الناسخ حرّف عليه ، ثم فكرت في أن ذلك أيضاً لا يصح ، لأن المقنع الخراساني قتل نفسه بالسم في سنة ثلاث وستين ومائة ، ثم قال :واذا أردنا تصحيح ما ذهب اليه إمام الحرمين فلا يكون الا ابن الشلمغاني لأنه أحدث مذهباً غالياً في التشيع والتناسخ ، وأحرق بالنار في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ٠

٢ ـ فائدة :

رأيت مشايخ الكتابة لا يشكلون الكاف اذا وقعت آخراً ، ولا يكتبونها مجلسة ، أما اذا وقعت أولاً وفي بعض الكلمة حشواً فانهم يجلسونها ويشكلونها بردة الكاف ، ورأيتهم لا يجوزون في السطر الواحد أكثر من ثلاث مدّات ، فأما الكلمة نفسها فلا يمدون فيها الا بعد حرفين ، ويعدون ذلك كله من لحن الوضع في الكتابة ٠

٣ ـ فائدة أخرى :

لا تنقط القاف ولا النون ولا الياء اذا وقعت أواخر الكلم ٠ برهانه أن الإعجام انما آتي به للفارق ، فان صورة الباء والتاء والثاء ، والحاء والخاء ، والدال والذال ،

متشابهة، والقاف والنون والياء آخر الكلمة لا تشبهها صورة أخرى ، أما اذا وقعن في بعض الكلمات وجب نقطهن لان الفارق بطل ٠

٤ ـ فائدة أخرى :

لا يكتب المضاف في آخر السطر الأول ، ويبتدأ بالمضاف اليه في السطر الثاني كعبدالله، وأبي بكر ، والمغاربة يفعلون ذلك ، وليس بحسن ، وأبلغ من هذا أن يكتبوا الكلمة الواحدة مفصولة الحروف في السطرين ،كالزاي ، والياء ، والدال ، والواو ، في السطر الأول آخراً ، والنون من تتمة زيدون في أول السطر الثاني ، وهو أقبح من الأول ٠

٦ ـ وجاء على الصفحة الخامسة بخط ابن السابق أيضاً :

١ ـ فائدة ينبغي للمؤرخ حفظها والعمل بها :

ينبغي للمؤرخ أن يقدم اللقب على الكنية ، والكنية على العلم ، ثم النسبة الى البلد ، ثم الى الاصل ، ثم الى المذهب في الفروع ، ثم الى المذهب في الاعتقاد ، ثم الى العلم ، او الصناعة ٠والخلافة او السلطنة ،او الوزارة ، او القضاء ، أو الإمرة ، او المشيخة ، أو الحج ، أو الحرفة ، كلها تقدم على الجميع ، فتقول في الخلافة : امير المؤمنين الناصر لدين الله ، ابو العباس السامري ، ان كان ولد بسر من رأى ، البغدادي ، فرقا بينه وبين الناصر الأموي صاحب الأندلس، الحنفي الماتريدي ، ان كان يتمذهب في الفروع بفقه ابي حنيفة ، ويميل في الاعتقاد الى ابي منصور الماتريدي، ثم يقول القرشي الهاشمي٠

ويقول في السلطنة : السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحي ـ نسبة الى أستاذه الملك الصالح ـ التركي ،الحنفي ، البندقدار ، أو السلاح دار ٠

وتقول في الوزراء : الوزير فلان الدين أبو كذا فلان ، وتسرد الجميع كما تقدم ، ثم تقول : وزير فلان ٠

وتقول في القضاة كذلك : القاضي فلان الدين ، وتسرد الباقي كما تقدم ٠

وتقول في الأمراء كذلك : الأمير فلان الدين وتسرد الباقي الى أن تجعل الآخر وظيفته التي كان يعرف بها قبل الإمرة ، مثل الجاشنكير ، أو الساقي ، أو غيرهما ٠

وتقول في أشياخ العلم : العلامة ، أو الحافظ ، أو المسند ، فيمن عُمِّر وأكثر الرواية ، أو الإمام ، أو الشيخ ، أو الفقيه ،وتسرد الباقي الى أن تختم الجميع : بالأصولي أو النحوي أو المنطقي ٠

وتقول في أصحاب الحرف : فلان الدين، وتسرد الجميع الى أن تقول الحرفة ، إما البزاز أو العطار ، أو الخياط ٠

فان كان النسب الى أبي بكر الصديق(رضي الله عنه) ، قلت : القرشي ، التيمي ، البكري ، لأن قرشياً أعم من أن يكون تيمياً ،والتيمي أعم من أن يكون من ولد أبي بكر

(رضي الله عنه) • وان كان النسب الى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، قلت : القرشي، العدوي ، العمري ، وان كان النسب الى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، قلت : القرشي ، الأموي ، العثماني ، وان كان النسب الى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، قلت : القرشي ، الهاشمي ، العلوي ، وان كان النسب الى طلحة (رضي الله عنه) ، قلت ، القرشي، التيمي ، الطلحي ، وان كان النسب الى الزبير (رضي الله عنه) ، قلت : القرشي ، الاسدي ، الزبيري ، وان كان النسب الى سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) ، قلت : القرشي ، الزهري ، السعدي ، وان كان النسب الى سعيد (رضي الله عنه) ، قلت : القرشي ، العدوي ، السعيدي الا أنه ما نسب اليه فيما أعلم • وان كان النسب الى عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه) ، قلت : القرشي، الزهري، العوفي من ولد عبدالرحمن ابن عوف ، وان كان النسب الى ابي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) ، قلت : القرشي من ولد أبي عبيدة ، على أنه ما أعقب •

هذا والذي ذكر هو القاعدة المعروفة ، والجادة المسلوكة المألوفة عند أهل العلم ، وان جاء في بعض التراجم ما يخالف ذلك من تقديم وتأخير ، فانما هو سبق قلم ، وذهول من الفكر ، وانما قررت هذه القاعدة ليردما خالف الأصل اليها ، وبالله التوفيق •

٢ ـ فائدة أخرى :

كلما رفع المؤرخ في أسماء الآباء والنسب ، وزاد في ذلك ، انتفع به ، وحصل له الفرق بين المترجمين ، فقد حكى أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني ، قال : حججت في سنة ، وكنت بمنى أيام التشريق ، فسمعت مناديا ينادي : يا أبا الفرج ، فقلت : لعله يريدني، ثم قلت : في الناس كثير ممن يكنى أبا الفرج، فلم أجبه ، ثم نادى : يا أبا الفرج المعافى ، فهممت باجابته ، ثم قلت : قد يكون اسمه المعافى وكنيته أبا الفرج ، فلم أجبه ، فنادى: يا أبا الفرج المعافى بن زكريا ، فلم أجبه ، فنادى : يا أبا الفرج المعافى بن زكريا النهرواني ، فقلت : لم يبق شك في مناداته اياي ، اذ ذكر كنيتي ، واسمي ، واسم أبي ، وبلدي ، فقلت : ها أناذا ، فما تريد ؟ فقال: لعلك من نهروان الشرق؟ فقلت: نعم ، فقال: نحن نريد نهروان الغرب ، فعجبت من اتفاق ذلك • انتهى •

وكذلك الحسن بن عبدالله العسكري أبو أحمد اللغوي صاحب كتاب التصحيف ، والحسن بن عبدالله العسكري ، أبو هلال صاحب كتاب الأوائل ، كلاهما الحسن بن عبدالله العسكري ، الأول توفي سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ، والثاني كان موجوداً في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، فاتفقا في الاسم واسم الأب والنسبة والعلم ، وتقاربا في الزمان ، ولم يفرق بينهما الا بالكنية لأن الأول أبو أحمد ، والثاني أبو هلال ، والأول ابن عبدالله بن سعيد بن اسماعيل ، والثاني ابن عبدالله بن سهل بن سعيد ، ولهذا كثير من أهل العلم بالتاريخ لا يفرقون بينهما ، ويظنون أنهما واحد •

وكذلك أبو بكر محمد بن علي الشاشي الشافعي ، هذه الكنية ، والاسم ، واسم الأب، والنسبة الى البلد ، والى المذهب ، الجميع مشترك بين الإمامين المشهورين : أحدهما

الفقيه المحدث الاصولي اللغوي الشاعر،المعروف بالقفال الكبير ، والآخر الفقيه صاحب الطريقة المشهورة ، والاول وفاتهسنة خمس وستين وثلاثمائة ، والثاني وفاته سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، الاول محمد بن علي بن اسماعيل ، والثاني محمد بن علي ابن حامد ؛ وكذلك محمد بن علي ، كلاهماشرح المقامات الحريرية ، أحدهما محمد بن علي بن أحمد أبو عبدالله ، يعرف بابن حميدةالحلي ، توفي سنة خمسين وخمسمائة ، والاخر محمد بن علي بن عبدالله ، أبو سعيدالجاواني الحلوي ، توفي سنة احدى وستين وخمسمائة ٠

٧ ـ وجاء على الصفحة السادسة بخط ابن السابق أيضاً :

١ ـ فائدة : كانت العرب تؤرخ في بني كنانة من موت كعب بن لؤي ، فلما كان عام الفيل ، أرخت منه ، وكانت المدة بينهما مائةوعشرين سنة ٠

قال أبو الفرج صاحب الأغاني : انهلما مات الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو ابن مخزوم، أرخت قريش بوفاته مدة لاعظامها اياه ، حتى اذا كان عام الفيل جعلوه تاريخاً ، هكذا ذكر ابن داب ٠

وأما الزبير بن بكار فذكر أنها كانتتؤرخ بوفاة هشام بن المغيرة تسع سنين الى أن كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة ،فأرخوا بها ، انتهى ٠

وأرخ بنو اسماعيل عليه السلام من نار ابراهيم عليه السلام الى بنائه البيت ، ومن بنائه البيت الى تفرق معد ، ومن تفرق معد الى موت كعب بن لؤي ٠

ومن عادة الناس أن يؤرخوا بالواقع المشهور والأمر العظيم ، فأرخ بعض العرب بعام الختان لشهرته ، وكانت العرب قديماًتؤرخ بالنجوم ، وهو أصل قولك نجمت على فلان كذا حتى يؤديه في نجوم ٠

وقال بعضهم : قالت اليهود : ان الماضيمن خلق آدم عليه السلام الى تاريخ الاسكندر ثلاثة آلاف سنة وأربعمائة سنة وثمانيةوأربعون سنة ، وقالت النصارى : انها خمسة آلاف سنة ومائة وثمانون سنة ٠

وأما المدة المحررة من هبوط آدم عليهالسلام من الجنة الى الأرض لتاريخ الليلة المسفرة عن صباح يوم الجمعة الذي كان فيهالطوفان عند اليهود ، ألف سنة وستمائة وخمسون سنة ، وعند النصارى ألفا سنةومائتان واثنتان وأربعون سنة ، وعند السامرة ألف وثلاثمائة سنة وسبع سنين ٠

وقال آخر: المدة التي بين خلق آدم ويوم الطوفان ألفا سنة ومائتان وعشرون سنة وثلاثة وعشرون يوماً ٠

وأما تاريخ الاسكندر المذكور في القرآنالعظيم [كذا؟] وتاريخ بخت نصر فمعلومان، وتاريخ الطوفان مجهول ، فأردنا تصحيح ذلكوتحريره ، فصححناه بحركات الكواكب ، وأوساطها ، من وقت كون الطوفان الذيوضع فيه بطليموس من أوساط الكواكب في



المجسطي ، فبمقارنة هذين الاصلين صححناتاريخ الطوفان بحركات الكوكب، كما تصحح حركات الكواكب بالتاريخ طردا فعكسنا ذلك الى خلف، وجمعنا آزمنته وحررناه ، فوجدنا بين الطوفان وبخت نصر من السنين الشمسيه على آبلـغ ما يمكن مـن التحرير آلفي سنة واربعمائة سنة وثلثي سنه وربع سنة ، ومنه الـى تاريخ السُريان أربعمـائة سنة وست وثلاثون سنه ، وجمعنـا ذلك فكان ما بـين الطوفان وذي القرنين بعد جبر الكسور آلفين وتسعمائه واثنين وثلاثين سنة ، ثم زدنا على ذلك ما بيننا وبين ذي القرنين الى عامنا هذا وهو سنة احـدى وسبعين وستمائه للهجرة ،فبلغ من آدم عليه السلام الى الآن ستة آلاف سنه وسبعمائة وتسعا وسبعين سنة على أبلغ ما يمكن من التحرير ·

وقال وهب : عاش آدم الف سنة ، وفي التوراة تسعمائة وثلاثين سنة ، وكان بين آدم وطوفان نوح آلفـا سنة ومائتان وأربعـون سنة ، وبين الطوفان وابراهيم عليه السلام تسعمائة وسبعة وأربعون سنة ، وبين ابراهيم وموسى عليهما السلام سبعمائة سنة ، وبـين موسى وداود عليهما السلام خمسمائة سنة ،وبـين داود وعيسـى عليهما السلام آلف سنة ومائة سنة ، وبين عيسى ومحمد نبينا (صلوات الله وسلامه عليهما) ستمائة وعشرون سنة ، والله آعلم بالصواب ·

وأقـدم التواريخ التي بأيدي الناس :

زعم بعضهم أن أقـدم التواريخ تاريخ القبط ، لأنه بعد انقضاء الطوفان ، وأقرب التواريخ المعروفة تاريخ يزدجرد بن شهريار الملك الفارسي ، وهـذا هـو تاريخ أرخـه المسلمون عند افتتاحهم بلاد الأكاسرة ، وهي البلاد التي تسمى بلاد ايران شهرة · وأما التاريخ المعتضـدي فما آظنـه تجاوز بلاد العراق ، وفيما بـين هـذه التواريخ تواريخ القبط والروم والفرس ، وبني اسرائيل ،وتاريخ عام الفيل ، وأرخ الناس بعـد ذلك من عام الهجرة ·

وأول من أرخ الكتب من الهجرة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ، وكـان سبب ذلك أن أبا موسـى الأشعري ، كتب الـى عمر (رضي الله عنهما) : انه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندري على أيهـا نعمل ، قد قرأنا صكاً منها محله شعبان ، فما ندري أي الشعبانين ، الماضي أو الآتي ، فعمـل عمر (رضي الله عنه) على كتب التاريخ ، فأراد أن يجعل أوله رمضان ، فرأى أن الأشهر الحرم تقع حينئذ في سنتين ، فجعله مـن المحرم ·

٨ ـ وجاء على الصفحة السابعة ، بغير خط ابن السابق :

١ ـ الحمد لله · من تاريخ ابن العديم ، بخطه ، رحمة الله عليه ، واسمه زبدة الحلب في تاريخ حلب ·

٢ ـ وجاء بخط ابن السابق : نوبة فقـير عفـو الله تعالى محمد بن محمد بن محمد بن السابق الحنفي عفـا الله عنهـم أجمعـين ،بالقاهرة المحروسة في سنة اثنتـين وأربعـين وثمانمائة ، أحسن الله عاقبتها في خير، آمين ·



أثر علم التاريخ العربي على التدوين التاريخي في أوروبا الغربية خلال العصور الوسطى

د. سهيل زكار ❖

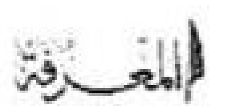
على رأس مزايا عصر المعلوماتية الذي نعيشه، سهولة نقل المعارف وزيادتها وتكديسها، ومن ثم توفر فرص إعادة النظر بكثير من المعطيات القديمة، لدى السعي الجاد لمعرفة الذي حدث في التاريخ حقيقة، ومن بعد ذلك إلغاء الزيف، والاختراع، والأساطير، ولا سيما التي غلفت بألوان وهمية مقدسة، وإعادة تقويم أخبار وقائع كثيرة، والكشف عن ينابيع الحضارات الأولى والكبرى، وإيضاح كيفية انتقال المعارف، وكيف تواصلت الحضارات، وتثاقفت وتمازجت وتطورت.

(❖) د سهيل زكار: باحث من سورية، دكتوراه في التاريخ، أستاذ في كلية الآداب - قسم الدراسات التاريخية.

وتاريخيًا -لاسيما في الوطن العربي- جاء هذا مترافقًا مع ازدياد أعمال الكشف الأثري، ولاسيما في العقد الأخير، حيث تولى هذه الأعمال اختصاصيون، وبذلك ضعف دور الهواة واللاهوتيين، وما يزال دور هؤلاء لم يدرس بعد، ولا أثرهم في توجيه وتزييف دراسات التاريخ القديم لصالح الصهيونية والعهد القديم، وهذا واضح تمامًا بالنسبة للقدس وفلسطين، وبابل وآشور، ومصر.

ولقد أعطت أعمال الكشف الأثري، وزيادة التقصي في البحث عن المزيد من المصادر، في جميع أنحاء أوروبا الغربية، لاسيما ما تعلق بحوض البحر المتوسط، وبشكل خاص اسبانيا، نتائج جديدة باهرة، أحدثت ثورة في ميادين البحث التاريخي، ومع نتائج ثورة المعلوماتية يعيش الباحث في التاريخ الآن مرحلة جديدة متميزة، سوف تكون لها نتائجها وتوجهات اهتماماتها، ولسوف تقود إلى قيام مدارس جديدة لتفسير التاريخ، وتعليل قواه الفاعلة، لأن التاريخ خبر ورؤية وتعليل، فلقد ضعف الآن الحديث عن أثر الفاعل المادي الاقتصادي في صنع الحدث التاريخي، ومثله الأحاديث عن قوى فاعلة أخرى: اجتماعية، وغريزية، وغيبية، مما شهدناه في مدارس التفسير التاريخي الماضية، وبما أن الحدث التاريخي الكامل هو الممثل لجميع قوى الإنسان الظاهرة والكامنة، ولأن الزبدة الصالحة لإنجاز الإنسان ومعطياته البناءة التي لها القدرة على الاستمرار والتأثير، والتفاعل الإنساني، هي التي يطلق عليها اسم حضارة، بات الآن لابد من قيام مدارس جديدة، محورها الاهتمام بالحضارات، ويقتضي هذا أولاً وقبل كل شيء إعادة تعريف اصطلاح حضارة، وتبيان مدى تطابق هذا الاصطلاح مع الديانات، لأن الديانات اللاعنصرية، لا تعد فقط الأرقى في تاريخ البشرية، بل هي القوى الأكثر فعالية وديمومة في حياة البشر، وهنا نجد أن الإسلام تميز بالتماسك، وانعدام التناقض وبالصلاح للبشرية كلها، ومع القيام بعمل إعادة التعريف المطلوب لمصطلح حضارة، من الواجب إعادة تصنيف الناس لا على الأساس العرقي والقومي، ولا على أساس القوة المادية والثروة، والجبروت والبطش، بل على أساس التميز الأخلاقي الحضاري الإنساني المتسامح، أو الهوية الحضارية، وكلما كانت هذه الهوية أكثر شمولية وإنسانية، وأكثر تجذرًا ونقاء، وقابلية للتطور، ازدادت قبولاً وتأثيرًا.

والباحث المنصف في تاريخ الأمة العربية، يجد أن هذه الأمة، تمتلك تجربة حضارية هي الأغنى والأكثر أصالة في تاريخ الإنسانية، وأن العرب، وإن شكلوا أمة واحدة عظيمة التجانس، لم تعرف هذه الأمة الانغلاق والعنصرية والتزمت، بل



كانت دومًا عربية إنسانية، وما من حضارة وجدت أو موجودة، إلا وفيها العناصر الأكثر أصالة وفاعلية وشمولية ذات أصل عربي، لأن الباحث في تاريخ الحضارات، أو العقائد والديانات، يجد أنها نشأت في الوطن العربي، ومنه انتقلت إلى جميع بقاع الأرض، فالله جلت قدرته، منح الأمة العربية وطنًا وسطًا بين أوطان الأمم، وبناء عليه كانت الأمة العربية هي الأمة الوسط، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس﴾، ومن ثم كانت الأمة العربية ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾، ومن الوطن العربي انتشرت عقائد الديانات السماوية، التي وصلت إلى الكمال المطلق بالإسلام، وفي أيامنا هذه طرحت أفكار كثيرة حول نهاية التاريخ، وحول صراع الحضارات، وفي الحقيقة لم ينته التاريخ بالانتصار الأمريكي أو الغربي، لأن أمريكا لم تنتصر بعد، ولا تمتلك الآن مؤهلات الانتصار الحضاري والعقائدي الأخلاقي الشامل، وكذلك الغرب، بل تمتلك إمكانات التدمير الشامل، والحضارة بناء ورقي لا همجية تدمير، ثم إن الحضارات تتواصل وتتفاعل لا تتصارع، لأن في الصراع: غالب ومغلوب، ومنطق الحرب قائم على الدمار وعلى القتل، وهو بالتالي يتنافى مع المفاهيم الأساسية للحضارة، يضاف إلى هذا أن التاريخ انتهى وتوقف مرة واحدة فقط، مع كمال الدين، حين أعلن النبي ژ عن ذلك في حجة الوداع -بموجب الوحي- حيث بين أن الزمان قد استدار كيوم خلق الله الدنيا.

ولقد شكل حوض البحر المتوسط صلة للوصل بين مشرق الوطن العربي ومغربه، وبين الوطن العربي وبين العالم أجمع، وقد تبين من خلال الحفريات الأثرية أن بلدان هذا الحوض في الألف الثاني قبل الميلاد، في بعض أجزاء أوروبا الغربية، وفي أكثر الأجزاء الشرقية، كانت عربية، ومن الأدلة الساطعة المتبقية شاهدة على ذلك، أنّ جل مدن اسبانيا وفرنسا، وسواهما عربية التأسيس، مثل قادش الأندلس، ومرسيليا الفرنسية، أي مرسى-ايل (ميناء الرب)، وينطبق هذا على روما، فاللغة الأتروسكية لمؤسسي روما، أمكن حل رموزها فقط على أساس العربية، ولعل الأتروسكيين هم أهل الرس الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم.

والحديث عن الدور العظيم للعرب قبل الإسلام، يعلل اختيار هذه الأمة العظيمة لحمل رسالة الإسلام-مع التسليم المطلق لإرادة الله جل وعلا- وبوساطة الاسلام صار العرب أمة واحدة، حملت الرسالة، وحررت شعوبًا كثيرة، وبعثت فيها روح العطاء الحضاري، وتولت هذه الأمة مع الشعوب التي دخلت بالإسلام صنع الحضارة الأعظم في التاريخ الإنساني، فلمدة تفوق الألف سنة ظلّ الإسلام يقود

الحضارة الإنسانية بشكل هو الأمثل، والأعظم أخلاقًا وإنسانية، وما تزال معلوماتنا عن معطيات هذه الحضارة مجزوءة، ودراساتنا حولها قاصرة، ولنأخذ مثلاً نستشهد به هو محتويات المكتبة العربية، فعدا عن الذي ضاع، لم ينشر من هذه المكتبة إلاّ القليل القليل، والذي أمكن التعرف إليه هو الأقل، ولو تضافرت جهود مؤسسات الأمة للتعرف إلى محتويات هذه المكتبة في جميع أنحاء الأرض لاحتاجت إلى ما لا يقل عن قرن من الزمان.

وبعد قيام الإسلام، ونجاح حركة الفتوحات الكبرى، تأثرت بلدان العالم أجمع بعقيدة التوحيد، وتوفرت خطط منذ أيام عبد الملك بن مروان لتعريب العالم أجمع، فهو قد عرب الدواوين والنقود، وقام بإنجازات أخرى، فقد حصلت مؤخراً على صورتين لمخطوط جرى تصنيفه أيام هذا الخليفة العظيم فيه عرض لاثنتين وتسعين لغة، مقابلة باللغة العربية، ومن هذه اللغات ما انتمى إلى الشرق الأقصى، وإلى أوروبا، كما كانت هناك المصريات القديمة (الهيروغليفية وغيرها) والآرامية والسريانية.

وكانت أوربا من أكثر قارات العالم تأثرًا بنجاح الفتوحات العربية، ويرجح انه نتيجة لهذه الفتوحات قامت في أوروبا الغربية العصور الوسطى، أو عصور الانغلاق، والظلام، وابتعد الأوربيون بعض الشيء عن شواطئ المتوسط، واتجهوا شمالاً، وبسبب الانغلاق، وإخفاق حركة الفتوحات المنظمة بعد معركة بواتيه (بلاط الشهداء)، وعدم التمكن من فتح القسطنطينية، ازدهر في أوروبا الغربية نظام الإقطاع، وتنامت مؤسسة البابوية، وتهيأت الفرصة لتأسيس الامبراطورية الرومانية المقدسة، ومن ثم تعميم نشر المسيحية بين الشعوب الأوروبية التي كان أكثرها وثنيًا.

وامتلكت أوروبا الغربية عدة منافذ على الوطن العربي، كان أهمها عبر الأندلس، ثم عبر صقلية وجزر البحر المتوسط وجنوبي ايطاليا، مع النشاطات التجارية، وازدياد وتيرة الحج إلى فلسطين، لكن كان لاستشراء حروب الاستغلاب (الاسترداد) في الأندلس، واضطرار أعداد كبيرة من الأندلسيين إلى الدخول إلى فرنسا، أو للبقاء في ظل الحكم الاسباني، أبعد الآثار وأعمقها على الثقافة الأوروبية في العصور الوسطى، وأنتجت الحروب الصليبية مؤثرات أكبر من هذه، فقد هدمت الحركة الصليبية جميع جدران العزلة للكيانات البشرية والسياسية لأوروبا الغربية، وأخذ الأوروبي يغادر قريته وبلدته، ومدينته وإقليمه، ويتعرف إلى ما سواه، وبذلك زالت العقلية المنغلقة، وباتت عقلية

الأوروبي قابلة لتلقي المؤثرات، وللتعرف على حضارات الآخرين وعقائدهم، ومن الممكن ملاحظة هذا في محتويات نشيد رولاندو، الذي ختم تأليفه بعد الحملة الصليبية الأولى.

لقد أخذ الأوروبيون يكتشفون الحضارة العربية، ويحاولون التعرف إلى الإسلام، وهكذا شهدت ساحات الأندلس نقاشات مفيدة بين الإسلام والمسيحية، نشهد نماذج عنها لدى ابن حزم، والباجي والطرطوشي، وفي كتب مثل مقامع الصلبان، ونقض قواعد التثليث، وفي كثير من المصنفات الأوروبية، كما اهتم الأوروبيون بالترجمة من العربية، وميدان الحديث عن الترجمة والمترجمين حديث واسع ومتشعب، يهمني منه الآن الجانب التاريخي.

فلقد حمل الصليبيون الذين عادوا من المشرق معهم معلومات كثيرة وأسئلة صعبة، توجب على رجال الكنيسة الإجابة عنها، كما رغب المتطوعون في الحملات التالية أن يعرفوا إلى أين وجهتهم، ولماذا، و ما هي الأهداف، وكيف يتحقق النجاح، وما هي المرابح، وغير ذلك كثير، كما رغب بذلك رجال الكنيسة والسلطة، وتركز الاهتمام في البداية حول شخصية النبي ﷺ، وحول القرآن وحول بعض التقنيات، والزاد الفلسفي والمنطقي، لإقناع رعايا الكنيسة، ولمتابعة خوض معارك الجدل الديني، وتنامى هذا مع نشوء الجامعات الأولى في فرنسا وانكلترا.

ولدى دراسة تاريخ الحروب الصليبية توفر اعتقاد بأن الحملة الأولى اتسمت بكثير من الفوضى، ولذلك جاءت الإعدادات للحملة الثانية أكثر دقة، وكان الداعية الأكبر لهذه الحملة هو القديس برنارد الباريسي، ففي الوقت الذي نشط فيه بالتبشير بالصليب، أسهمت ديرة طوائف الرهبان بدورها الفعال، وكان أبرز هذه الديرة دير كلوني Cluny.

وكان دير كلوني في بيرغندي في مطلع القرن الثاني، مكانًا له أهمية قصوى في أوروبا، حيث أنه تأسس سنة ٩١٠م، واستقطب منذ تأسيسه حركة الإصلاح الرهباني، ولذلك تمتع بامتيازات كبيرة جداً، وامتلك الحماية المباشرة من البابوية، والسلطة والمال والنفوذ العظيم، ومنه تخرج رهبان صاروا بابوات، وكرادلة، ورعاة ديرة، ومستشارون للأباطرة والملوك.

وفي عام ١١٢٢م جرى انتخاب بيير موريس دي مونتبوسيير Montboissier راعياً لدير كلوني، وهو الذي عرف فيما بعد باسم «بطرس المبجل»، وأدهش انتخابه كثيراً من معاصريه، لكن أصله ومكانة أسرته، ونشاطه الرهباني شفع له، فجده كان من قبله راعيًا لدير كلوني، وهو التحق بالرهبانية في السادسة عشرة من عمره،

وكان شاباً موهوباً، تسلم زعامة أكبر المؤسسات الكنسية دوراً في أيامه، خلال العصور الوسطى، واهتم بطرس بإعادة تنظيم ديره، وببعض المشاكلات المسيحية لأيامه، لكن شغله الشاغل كان التعرف إلى الإسلام بشخص نبيه وإلى العقلية الإسلامية.

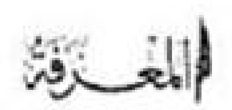
وفي ذلك الوقت كان برنارد راعياً لدير كليرفو Clairvoux التابع لطائفة رهبان السسترشيان، وتوفرت العداوة بين طائفتي برنارد وبطرس، وعلى الرغم من ذلك دفعت المصلحة العامة بالرجلين إلى عقد صداقة متينة وتنسيق الأدوار؛ في أن يتولى برنارد الدعوة إلى الحملة الثانية وأن يذهب بطرس إلى الأندلس ليتعرف على الإسلام.

وغادر بطرس المبجل كلوني في عام ١١٤٢م، ليسافر إلى إسبانيا، ومع أنه كان ما يزال شاباً، لكن السفر لم يكن سهلاً بالنسبة له، كما أن هذا السفر احتاج إلى مدة طويلة، ومن ثم البعد عن ممارسة مسؤولياته الديرية المباشرة، المهم أنه أخذ الطريق، ليتفقد الديرة التابعة لطائفته، وليحج إلى مزار سانتياغو Santiago (القديس يعقوب) في كومبوستيلا Com-postella وكان في الوقت نفسه قد تلقى دعوة من الامبراطور ألفونسو السابع، الذي كان داخلاً في صراع مرير مع دولة المرابطين، التي قامت بناء على دعوة إسلامية مالكية سنية مثالية.

ولا يسمح لنا المكان والوقت هنا للحديث عن تاريخ التصور الغربي للإسلام، لكن يلاحظ أن رجال الكنيسة لم يقروا بنبوّة النبي محمد (ژ) وبالتالي ألّهوه في غالب الأحيان لاتهام المسلمين بالوثنية، وأنه حين ذهب بطرس لدراسة الإسلام، لم يفعل ذلك ليغير مفاهيمه، بل استهدف الحصول على المعلومة.وهكذا عندما كتب مرة إلى الملك اللاتيني في القدس سماه «المدافع عن عقيدة المسيح والعدو لأعدائه»، وعدّ العرب والمسلمين «أعداء صليب المسيح».

وتابع بطرس الكتابة إلى برنارد يخبره عما توصل إلى معرفته، وأنه بصدد كتابة رسائل في الرد على الإسلام، وفي ترجمة سيرة النبي (ص)، والقرآن الكريم، وبعض الرسائل الفلسفية، فقد اكتشف وجود مساجلات مسيحية إسلامية، والذي حصل عليه وترجم له هو: «رسالة عبد الله بن اسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن اسحق الكندي، ورسالة الكندي إلى الهاشمي».

فقد وصل إلى طليطلة، التي كانت قاعدة للترجمة من العربية إلى اللاتينية وسواها، وفي هذه المدينة تعرف بطرس المبجل إلى أكثر من مترجم، تولى أحدهم



ترجمة رسالة الكندي، وتولى آخر عرف باسم المعلم بطرس مونوز سنديو Mu-nozsendino ترجمة مختصرة للسيرة النبوية، ويرجح أن هذا المعلم كان من خريجي جامعة باريس، وقد تعاون مع مترجمين آخرين، وبذلك حصل بطرس المبجل على منتخبات من السيرة النبوية، وهنا لا ندري هل كانت هذه المنتخبات متوفرة بكتاب منفرد أم أنها انتخبت من عدة كتب في السيرة النبوية، وكانت مكتبات الأندلس فيها من كتب السيرة النبوية: مغازي موسى بن عقبة، ومغازي الواقدي، وسيرة ابن اسحق، وسيرة ابن هشام، وغير ذلك من المصادر، ويرجح أن بطرس المبجل أعاد صياغة الذي ترجم له بلاتينيته، ولدى فحص مادة بطرس المبجل، يتضح أن المترجمين نقلوا أيضا من بعض كتب الشمائل النبوية، وفي الحقيقة إن ما صنفه بطرس المبجل يستحق وقفة تفصيلية خاصة، والذي يهمنا هنا أن نخلص إلى أن بطرس المبجل كان أقدم المستشرقين في التاريخ، وأنه كان- ربما- الأول الذي نقل بشكل غير مباشر أول مؤثرات عربية تاريخية إلى الوسط اللاهوتي في أوربا الغربية.

وسندع الآن طليطلة مع الأندلس، على أمل العودة مؤخرًا، ونرتحل إلى فلسطين حيث المملكة اللاتينية في القدس، والكيانات الصليبية الأخرى، وكان بعض رجال الدين الفرنجة الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى، قد دونوا بعض اليوميات بشكل بدائي فج، وظل الحال هكذا حتى قام وليم رئيس أساقفة صور بتأسيس علم التاريخ اللاتيني للحروب الصليبية.

وهناك خلاف حول أصل وليم الصوري، ولا يوجد اتفاق حول تسمية البلد الأوروبي الذي قدم منه والداه معًا، أو كل على حده، والمهم هو أن وليم ولد في مركز مملكة القدس اللاتينية، ربما سنة ١١٣٠م، وقد نشأ وسط مؤثرات شامية، وعدَّ من الصليبيين البلديين، وقد انخرط في السلك اللاهوتي منذ صغره، وتعلم مع اللاتينية، العربية، ولربما الإغريقية أيضًا، وترقت به المناصب الكنسية حتى صار رئيسًا لأساقفة مدينة صور، ومرشحًا لمنصب بطريرك القدس.

ونشأت بينه وبين عموري الأول ملك القدس صداقة، فصار حاجب المملكة منذ عام ١١٧٤ حتى تاريخ وفاته في ١١٨٥، كما أنه شغل منصب رئاسة أساقفة صور من عام ١١٧٥ إلى عام وفاته، وعهد إليه عموري بشؤون تربية ابنه بلدوين الرابع، حيث اكتشف وليم فيما بعد أن تلميذه كان مصابًا بالجذام.

وعندما كان عموري ملكًا على القدس،

واجه على أرض الشام نور الدين محمود بن زنكي، فقد تمكن نور الدين من توحيد بلاد الشام شمالاً وجنوباً، ووضع الخطط العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمذهبية لتحرير القدس ولطرد الفرنجة من بلاد الشام، وفي هذا الوقت كانت مصر المحكومة من قبل الخلافة الفاطمية تعيش في حالة فوضى سياسية مأساوية، فالخليفة كان محكوماً عليه، وكانت السلطة بيد الوزير، الذي قاد الجيوش الفاطمية، وكثرت الصراعات على الوزارة، واستعان بعض الوزراء بالصليبيين، وهنا تدخل نور الدين، وخاض سباقاً مع عموري حول مصر.

وكان عموري قد أعدَّ خططه للاستيلاء على مصر، وعدَّ هذا الاستيلاء أعظم حدث في تاريخ الصليبيين منذ قدومهم إلى المشرق، وهو جدير بالتاريخ، وهنا وقع اختياره على وليم رئيس أساقفة صور ليكون مؤرخه، والمدون لإنجازه العظيم بالاستيلاء على مصر.

وفي هذه الآونة كان الفارس الشاعر والمؤرخ الأديب أسامة بن منقذ الشيزري في مصر، قد شغل دوراً مهمّاً في الصراعات على السلطة في القاهرة، مما أرغمه على مغادرة مصر والفرار نحو دمشق، مخلفاً في القاهرة أسرته ومكتبة خاصة عامرة بعدة آلاف من المجلدات، وبعد استقراره بعث إلى أسرته للقدوم إلى دمشق، وقدمت هذه الأسرة بحراً، ومعها مكتبة أسامة، فقام عموري بالاستيلاء على هذه المكتبة وعلى كنوز أسامة الأخرى، وحوّل المكتبة إلى مستشاره التاريخي وليم رئيس أساقفة صور، وقرأ وليم كتب التاريخ التي حوتها هذه المكتبة، وتعلم منها المنهج، ونهل منها المعلومات، ونتيجة لذلك امتلك القدرة على كتابة التاريخ بصورة راقية، شكلت نقلة نوعية تختلف عن الكتابات البدائية الفجة، التي استفاد من موادها، وبذلك أرسى قواعد أدب التأريخ اللاتيني للحروب الصليبية، وقام بصنع كتابين: أولهما عن تاريخ أمراء المشرق، أرخ به- كما يعتقد- للمسلمين منذ البعثة المحمدية حتى أيامه، وهذا الكتاب يعدّ بحكم المفقود، وأرخ وليم بكتابه الثاني لأعمال الملك عموري، حسب التكليف الذي صدر إليه من هذا الملك، وأخفق كما هومعروف مشروع عموري، وأنقذ نور الدين مصر، ووحدها مع بلاد الشام، وشرع يعد الخطط لتحرير القدس، غير أنه توفي بشكل مفاجئ، فقام صلاح الدين بالاستيلاء على ميراثه، ثم بدأ يخطط لما خطط له نور الدين، ونجح بذلك سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٧م.

وكان عموري الأول، قد مات بعد عدة أشهر من وفاة نور الدين، مما ألزم وليم

القيام بإعادة نظره بالكتاب الذي جعل محوره أعمال عموري، فكتب عدة فصول جاءت بمثابة مقدمات ثم ألحق به عدة فصول أخرى حتى قبيل تاريخ وفاته، وهكذا أخرج إلى الوجود كتابًا كبيرًا بات هو الأساس للتاريخ للحروب الصليبية، وبات يعرف باسم «تاريخ هرقل» لكن شهر باسم «تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار».

وقدم لكتابه بالحديث بشكل مختصر عن تاريخ الإسلام والمسلمين، وجاء ذلك بمثابة مدخل للحديث عن أسباب الحروب الصليبية ووقائعها حتى أيامه، وهو في عمله لم يستفد فقط من معلومات المصادر العربية، بل استفاد أكثر في ترتيب مواده وعرضها، وجاء هذا العرض في ثلاثة وعشرين كتابًا، وعملية التبويب وترتيب المعلومات وطرائق عرضها، ولغة العرض وأساليبه هو ما تعلمه وليم من كتب التاريخ العربية، ولذلك لاقى كتابه الانتشار والقبول العام، وقام آخرون بالتذييل عليه، وهنا يلاحظ أن الذين ذيلوا على تاريخ وليم تعمدوا طمس أسمائهم احترامًا منهم لوليم، واستمرت أعمال التذييل حتى عام ١٩١٧، حيث كتب أحد البريطانيين وصفًا شاملاً لوقائع استيلاء الجنرال أللنبي على القدس.

وفيما يتعلق بأهم الذيول على تاريخ وليم، التي تعلقت بالحروب الصليبية، ودونت في فلسطين هي ثلاثة، يتصدرها الذيل الأول، الذي نسب إلى فرنجي اسمه أرنول، أوصل أخبار الكتاب حتى سنة ١١٩٧، وهو ممن شارك في معركة حطين، ووصف تحرير القدس ثم التصدي للحملة الصليبية الثالثة، وقد كتب هذا الذيل باللغة الفرنسية القديمة، وهو أقدم أثر بهذه اللغة، وقد نشر محققًا مؤخرًا في فرنسا، وكنت قبل سنوات قد ترجمت تاريخ وليم إلى العربية، ودفعت الآن إلى المطبعة هذا التاريخ مع ذيوله، بعد ترجمتها جميعًا.

ولايمكن وصف الذيل الأول لتاريخ وليم بالرقي إلى مستوى تاريخ وليم، لكن المؤثرات العربية عليه واضحة تمامًا، ثم إن نسخه الأولى كتبت في عكا، ففي هذه المدينة التي باتت مقر المملكة اللاتينية الثانية للقدس، تمت كتابة أكثر من ذيل على تاريخ وليم، صنفت من قبل مجهول وجمعت في كتاب واحد وعرفت تجاوزًا باسم «تواريخ هرقل»، وهكذا نشرت للمرة الأولى في فرنسا سنة ١٨٨١ في مجموعة راشيل Reuail.

والذيل الثاني لتاريخ وليم هو الذي عرف باسم «ذيل روثلين»، وقد اعتمد مصنفه على مواد دوّنت في عكا، وظل الذيل الثالث يعرف باسم «تاريخ هرقل»، أو بدقة أكبر «ذيل عكا»، وفي وسط

المجموعات الهائلة التي كتبت حول الحروب الصليبية باللاتينية والفرنسية القديمة يظل تاريخ وليم يحتل مكانة فريدة، لأنه الأساس والقاعدة المنهجية فنيًا وفكريًا، فوليم رأى بأن القدس انتزعها العرب المسلمون من هرقل امبراطور بيزنطة، وأن الفرنجة قد استردوها، ووصف مؤرخ حديث في بحث له عن مصادر تاريخ الحروب الصليبية، المهمة التي تولاها وليم بقوله: «لقد وجدت هذه الحركة العظيمة مؤرخها المناسب في شخصية وليم الصوري، فهو مؤرخ يتفوق إلى حد كبير على جميع زملائه المؤرخين الذين عاشوا في العصور الوسطى، وذلك في مجال التناسق الفني لمصنّفه»، ولم يبدع وليم هذا التناسق بل تعلمه من كتابات المؤرخين العرب، وبالمناسبة جدير بالذكر أن الذين أرخو للحملات الصليبية بعد وليم قلدوه في منهجه، وكتبوا مصنفاتهم في المشرق.

وفي عودة ثانية إلى الأندلس نجد أن البحث في التاريخ القديم لهذه البلاد، قد أعطى نتائج على درجة عالية من الأهمية، فجميع مدن هذه البلاد قد تأسست للمرة الأولى وتطورت على أيدي العرب الفينيقيين، وأنها عندما فتحت من قبل المسلمين كانت محافظة على هذا الحال، وأن الفيزقوط ما كانوا إلاّ قوة جرمانية محتلة، ولهذا حدث التمازج سريعًا بين الفاتحين المسلمين وبين الأندلسيين المحليين، وكان هذا دفعًا قويًا في نشوء الحضارة العربية الإسلامية في هذا الفردوس المفقود، ويقتضي هذا المزيد من التعمق مع إعادة للنظر، ولنضرب هنا مثلاً يتعلق بصيغ الأسماء الأندلسية مثل: خلدون، وفرحون، وحفصون، وعبدون، فهذه جاءت نتيجة للمواريث الفينيقية هناك، مثلها في ذلك مثل الذي هو موجود حتى الآن في الساحل الشامي، وفي مدن الداخل مثل حمص وحماه، ولذلك جاء الاندماج سريعًا بين الفاتحين المسلمين والأندلسيين الذين كانوا يدينون بالمسيحية، ونتج عن ذلك طائفة المولدين، واحتفظ المولدون بلهجة خاصة بهم، كانت وراء تجديد الشعر العربي وظهور فن الموشحات، ومع المولدين كان هناك المستعربون، الذين تقمصوا السلوك العربي باللسان والمآكل والملبس والعادات الاجتماعية، وحافظوا على مسيحيتهم، لأن الإسلام كفل الحرية الدينية بشكل مثالي.

وفي القرن الخامس هـ/ الحادي عشر ميلادي استشرت حرب الاستغلاب، وضاعت طليطلة سنة ١٠٨٥م، لكنها ظلت مركزًا ثقافيًا عربيًا، ومقرًا لنقل المؤثرات إلى أوروبا، ويمكن القول أن مدرسة للترجمة من العربية تطورت في هذه المدينة، وفي القرن الثالث عشر تنامت هذه المدرسة، بفضل تأثير ألفونسو العاشر، الذي عرف بلقب العالم، وشرع كثيرون

يدونون باللغة القشتالية بدلاً من اللاتينية، واستعان ألفونسو العالم بعدد كبير من العلماء المسلمين والمستعربين وبعض اليهود، ونتج عن مدرسة طليطلة عددٌ من المصنفات التاريخية التي بنيت في مناهجها وفي جل معلوماتها على علم التاريخ العربي، وظلت هذه المدرسة قائمة حتى القرن السابع عشر، ونظراً للتمازج المبكر بين المسلمين الفاتحين والأندلسيين، ظهرت منذ القرن الثامن الميلادي بعض المصنفات التاريخية كتبت من قبل بعض المستعربين، فيها روايات تاريخية عربية، فضلاً عن المنهج العربي التاريخي، ومن هذه المصنفات:

١- التاريخ البيزنطي العربي لعام ٧٤١ م، وهو تاريخ عام فيه بعض الأخبار عن بعض ملوك القوط، وعن بعض أباطرة بيزنطة، وعن العرب في المشرق وفتحهم للأندلس، ومن الممكن عقد مقارنة بين مواد هذا الكتاب، وتاريخ ابن القوطية، ولقد أبدى صاحب هذا الكتاب إعجابه بالنبي محمد (ﷺ)، واعتمد على مصادر أندلسية محلية، وعربية، وإغريقية بيزنطية.

٢- التاريخ المستعرب لعام ٧٥٤م، وهو تاريخ مجهول المؤلف، لمدينة قرطبة، بدأ على القاعدة العربية ببداية الخليقة، وانتهى بحوادث سنة ٧٥٤ م، وهو مصنف إخباري عام، فيه مواد عن العرب وعن البيزنطيين، وأكثر عن الإسبان، وخاصة الكنيسة الإسبانية، مما يشير إلى أن المصنف ربما كان من رجال اللاهوت، مع أنه كان مستعرباً، لكن شديد العداء للإسلام، ولدى مقارنة مواد الكتابين يتبين أنهما نهلا- مع قليل من التصرف- من المصادر العربية نفسها، وكذلك البيزنطية.

٣- تاريخ البلدة، ويرجح أن هذا التاريخ كتب في الشمال الإسباني المسيحي، وفيه أخبار مختصرة عن ملوك القوط، وتاريخ مختصر للعرب منذ قبل الإسلام، ويصل هذا التاريخ بأخباره حتى سنة ٨٧٦ م، أي أيام حكم الملك ألفونسو الثالث.

٤- تاريخ النبوءة، وقد كتب عام ٨٨٣ م، وحمل هذا الاسم نتيجة انتشار نبوءة قالت بأن الحكم العربي سوف ينتهي في الأندلس بعد مائة وسبعين سنة، أي في سنة ٨٨٣، ولقد كان مما دعم هذه النبوءة انتصارات ملك ليون آنذاك ألفونسو الثالث، وكان مصنف هذا الكتاب مستعرباً، اعتمد على مصادر عربية، خاصة في طليطلة، وفي هذا الكتاب مادة عن أنساب العرب ووقائعهم في الأندلس.

٥- التاريخ القوطي، وينقلنا هذا الكتاب بشكل غير متواصل متدرج إلى القرن الخامس هـ/ الحادي عشر ميلادي، ومؤلفه مستعرب من طليطلة، تحدث فيه عن تاريخ

الرومان والقوط، وعن الفتح العربي للأندلس، وهنا مصادره عربية، حيث أورد حكاية ابنة يوليان، التي وردت في مختلف المصادر العربية، ويرجح أن مصنف هذا التاريخ نهل من تاريخ الرازي-أحمد بن محمد، الذي صنف:

-أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم.

- كتاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس، في خمسة مجلدات كبيرة.

- كتاب في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها.

- كتاب الموالي الأندلسيين.

وكان والد هذا المؤرخ مؤرخًا أيضًا اسمه محمد بن موسى الرازي، له كتاب الرايات، ذكر فيه دخول موسى بن نصير إلى الأندلس، وعدد الرايات التي دخلت معه، وخشية من الانزلاق نحو مزيد من التفاصيل عن حركة التأريخ في الأندلس، تكفي هنا الإشارة، إلى نقل صاحب التاريخ القوطي عن الرازي وعن غيره من مؤرخي الأندلس.

٦- التاريخ السيليسي، ومصنفه مستعرب إسباني، كان من أهل القرن الثاني عشر، كما كان راهبًا من رهبان دير سيليس silles،اودع في كتابه كثيرًا من الروايات والأساطير التي كانت متداولةفي الأندلس، والتي ورد كثير منها في مصنف عبد الملك بن حبيب (١٧٩- ٢٣٨هـ/ ٨٥٤-٩٩٦م) حسبما قرأته في مخطوط أكسفورد (البودليان Marsh 288).

٧- تاريخ الطليطلي، وكان مصنف هذا الكتاب أسقف طليطلة ردريغو جيمريغودي رادا Rodrigo De Rada (١١٧٠-١٢٤٧م) ، الذي أتقن العربية، واستفاد من محتويات المكتبة العربية، ولاسيما من مؤلفات أحمد بن محمد الرازي، وعمله أكثر اتقانًا وجودة من سواه، ولانعرف هل اطلع بطرس المبجل على كتابه، لأنه قدم مادة جيدة عن السيرة النبوية، وهنا اعتمد التأريخ الهجري لا الميلادي.

٨- التاريخ العام الأول لإسبانيا، وهذا الكتاب حوليات تاريخية كبرى، صنفت تحت إشراف الملك الفونسو العاشر (العالم)، وكُتبت بالقشتالية في القرن الثالث عشر ميلادي، وأسهم في إخراج هذا التاريخ عدد من المستعربين وبعض اليهود، وكانت مصادره بالدرجة الأولى العربية، ثم اللاتينية والبيزنطية، والتواريخ الإسبانية السالفة الذكر، وبشكل خاص تاريخ الطليطلي المذكور أعلاه، ويلاحظ أن النقول كانت شبه كاملة عن بعض المصادر العربية، مثل كتاب «البيان الواضح في الملم الفادح» للصدفي البلنسي (ت ٥٠٩ هـ/ ١١١٥م) ومن تاريخ ابن الكردبوس «الاكتفاء

في أخبار الخلفاء»، وعاش عبد الملك بن الكردبوس في أواخر القرن السادس الهجري، وفي تاريخ ألفونسو العاشر هذا مع التاريخ بعض الملاحم الشعرية التاريخية، ومن المعروف أن كتابة التاريخ شعرًا قد ازدهرت في الأندلس، وبين أبرز الملاحم الإسبانية ملحمة السيد El- Cid، التي صنعت على نمط ملاحم السير العربية الكثيرة (حمزة البهلوان- عنترة- ذات الهمة....)

٩- التاريخ العام، وينسب هذا الكتاب أيضًا إلى ألفونسو العالم، وهو تاريخ منذ الخليقة فيه ذكر للأنبياء والشعوب القديمة، ومواده كلها مستقاة من المصادر العربية.

وستظل التجربة الحضارية الإسلامية في الأندلس، ومن ثم آثارها ومنجزاتها ودورها في نقل أوروبا من ظلام العصور الوسطى إلى عصور النهضة، بحاجة إلى المزيد من التعمق، وكنت أثناء إقامتي في فاس قد اطلعت على كثير من المصادر الأندلسية في بعض المكتبات الخاصة، وأتمنى قيام جهد بحثي حول المكتبة الأندلسية، والتراث العربي الأندلسي لما قبل الإسلام وبعده، مع متابعة ظهور هذا التراث من جديد في أمريكا اللاتينية.

وتعطي دراسة التراث الحضاري العربي دراسة علمية الفرصة لإعادة تقويم مكانة الحضارة العربية ودورها المؤثر قديمًا ووسيطًا، مع معرفة طبيعة العلاقات مع أوروبا والغرب ومع شعوب الأرض قاطبة، وتبرهن أن العرب لم يكونوا قط سوى رسل سلام ومحبة وأخلاق، فالحضارة سلام ومحبة وأخلاق وازدهار، وهذا كله قد حققه الإسلام، وفي الإسلام طريق الخلاص للإنسانية لأن في الوحدانية الخالصة للخالق مع مفاهيم الإسلام العظيم، وخاصة مفهوم الحلال والحرام والضوابط والالتزامات الأخلاقية ضمانات لبقاء بني البشر وعيشهم بمساواة ومن دون تهديد أورعب. ففي القرآن الكريم نقرأ قوله تعالى: «من قتل نفسًا بغير نفس أوفساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا» (المائدة: ٣٢)، فوفق هذا الأساس يمكن للبشرية تفادي الدمار، والتعاسة، والفناء، لأنه عن قريب سيكون بالإمكان لمن يرغب امتلاك أسلحة الدمار الشامل.

وفي الختام إن أهم ما يمكن استخلاصه مما تقدم هو أن الحضارة تواصل لاصراع، فالحق لايصطرع مع الحق، والسعادة تتعاون مع السعادة، وفقط الخير يصطرع مع الشر، والشر إلى زوال، والخير هو الدائم.



مجلة ثقافية شهرية

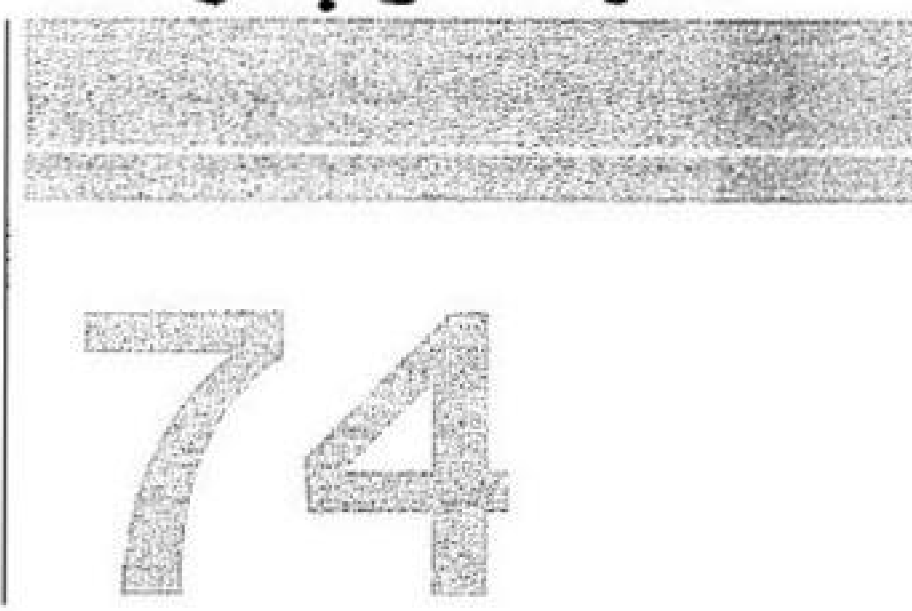
تصدرها

وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية



السنة 41 ـ العدد 467 آب « أغسطس » 2002

الدراسات والبحوث

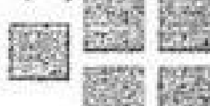


تاريخ القدس بين حقائق التاريخ وزيف الإسرائيليات

أ. د. سهيل زكار ❖

ما من مدينة حظيت باهتمام المؤرخين مثل مدينة القدس، وكذلك باهتمام غير المؤرخين من رجال دين ولاهوت وسياسة، وبشكل خاص، ويلاحظ أن جلّ الكتابات بغير العربية لم تتحرر بعد من التأثيرات المنبعثة من أساطير الكتاب المقدس، لا بل إن غالبيتها يداري هذه الأساطير ويخشى من أتباعها، أو يسعى لتسويقها بطرق التفافية، فيها مكر وبراعة متناهية. وقد يكون هذا مسوغاً بالنسبة للمنتمين للمجتمعات الغربية، مع أن السمة الأساسية للمؤرخ هي الحيادية والصدق، والصراحة، وصحيح أن التاريخ خبر ورؤية، لكن لايجوز اعتماد الخبر الزائف، كما لايجوز أن تتحول الرؤية إلى تأويل، لأن في التأويل تعطيل.

(❖) أ.د. سهيل زكار: باحث من سورية. أستاذ التاريخ في كلية الآداب بجامعة دمشق.



والذي يثير الحزن والحيرة هو الكتابات العربية، فبعض هذه الكتابات هي نسخ مصنعة بمهارة كبيرة مع اقتباس كامل للكتابات الغربية، وبالتالي تستهدف بمختلف الطرق تسويق المزاعم الصهيونية، أو بالحري أساطير العهد القديم، أو مايسمى بالكتاب المقدس، ومافيه من أخبار ليست تاريخ، وبعض الكتابات الأخرى، ولاسيما الصادر عن الوعاظ والخطباء المتحمسين ملوث بوباء الإسرائيليات، وبالتالي أشد خطراً من الكتابات الأخرى، ويمثل بعضها طيش التعصب الديني الأحمق، فقد تصدى واحد من العلماء المرموقين مؤخراً للبحث في صحة الأحاديث المتعلقة بالصخرة، وخلص إلى القول بعدم صحة جميع الأحاديث وأن الصخرة حق اليهود، اغتصبه المسلمون، ولم يتنبه هذا المتخلف أنه حين قال بالاغتصاب، اتهم النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، حين صلى هناك بالأنبياء جميعاً يوم الإسراء، وإن المعراج لم يكن من فوق صخرة القدس إلا لحكمة ربانية، أقلها أن طريق السماء يمر عبر القدس إلى مكة والمدينة، والتفريط بأي جزء من القدس مقدمة للتفريط بمكة والمدينة، ولم تقتصر التهمة هنا على النبي صلى الله عليه وسلم، بل شملت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، حين قدم إلى القدس فتسلمها، وفتش عن موقع الصخرة، وإلى جانبها اختط محراب المسجد العمري، أو المسجد الأقصى.

هذا ومامن أمر أضر بالفكر الإسلامي، خاصة بالتفسير، مثل الإسرائيليات، وعجباً كيف اقدم بعضهم على تفسير كلام الله، بكلام الحاخامات، ومازالوا يفعلون، أو ليس هؤلاء ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؟

إن مصادر تاريخ القدس هي نتائج الحفريات الأثرية فيها، وفي جميع أرجاء بلاد الشام، وبلاد الرافدين، ومصر، والأجزاء الجنوبية من آسيا الصغرى، لابل بلدان حوض البحر المتوسط، ومع الآثار والكتب والمدونات إن توفرت، وفحصت رواياتها وفق قواعد البحث التاريخي، وشهدت القدس الحفريات الأثرية، التي تولاها الغربيون منذ عام ١٧٩٩م، وأضرت معظم هذه الحفريات أكثر مما أفادت، لأنها شوهت المواقع الأثرية، بسبب أنها جرت على أيدي هواة ولاهوتيين، استهدفوا البرهنة على صحة مرويات العهد القديم، وليس كشف الحقيقة، وينبغي التعامل مع تقارير هذه الحفريات بكل حذر، علماً بأن الحفريات قد بدأت تكتسي الطابع العلمي إلى حد ما، منذ تسعينات أواخر القرن الماضي، ولقد تبين بشكل مطلق أن جميع مرويات العهد القديم شيء والتاريخ الصحيح شيء آخر تماماً، وبناء عليه إن تقارير الآثاريين الغربيين هي حتى الآن

تحمل من التناقضات أكثر مما تحمله مرويات العهد القديم. وعلى كل باحث عدم تصديق قراءات النصوص مع التفاسير، وإعادة النظر بكل شيء، هذا وكان بودي هنا تقديم عرض لتاريخ تدوين أسفار العهد القديم، مع تبيان مراحل تطور العقيدة الموجودة في هذه الأسفار، ولعله تكفي الآن الإشارة إلى أن أول محاولة لتدوين ما نسب إلى النبي موسى عليه السلام، جرت بعده بحوالي عشرة قرون على الأقل، وأن ذلك كان في بلاط الدولة الاخمينية الفارسية، هذا وينبغي أن نميز دوماً بين اليهود وبين بني إسرائيل، وأن نعرف أن أكثر من تسعين بالمئة من يهود العصر الحديث هو من أصل خزري، وهذه كلها مواضيع جديرة بالبحث العلمي الدقيق، والموثق.

وفي تمهيد للحديث عن تاريخ القدس القديم سوف أشير إلى تواريخ بعض الأحداث المزعومة حسب مرويات العهد القديم، وبالمقابل إلى التواريخ المعطاة من خلال الحفريات الأثرية، اعتماداً على الكربون المشع / ١٤ / وعلى التحليل بالطيف:

٢٠٠٠ - ١٥٠٠ق.م الزمن الذي عاش فيه إبراهيم وإسحق ويعقوب.

١٢٦٠ - ١٢٥٠ ق.م الخروج من مصر بقيادة موسى.

١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م الاستقرار في أرض كنعان بقيادة يشوع بن نون.

١٠٠١ - ٩٦٩ ق.م تأسيس مملكة داود في القدس.

٩٦٩ - ٩٣١ ق.م ملك سليمان وبناء الهيكل الأول.

٩٣١ - ٩١٢ ق.م ملك رحبعام بن سليمان وانقسام المملكة إلى مملكتين: في الشمال مملكة إسرائيل، وفي الجنوب مملكة يهوذا.

٩٣١ - ٩١٠ ق.م ملك يربعام بن سليمان على مملكة إسرائيل.

٨٨٥ - ٨٧٤ ق.م قيام مملكة بيت عمري التي كانت حاضرتها ماعرف باسم مدينة سمر أو السامرة.

٨٧٤ - ٨٥٣ ق.م ملك أحاب بن عمري.

٧٢٣ - ٧٢٢ ق.م استيلاء الآشوريين على سمر (السامرة) وتهجير أهلها وإحلال قوم جدد محلهم.

٦٠٥ - ٥٨٦ ق.م سقوط الدولة الآشورية وقيام دولة بابل الثانية (الكلدانية).

٥٨٧ - ٥٣٨ ق.م السبي البابلي.

٥٣٨ ق.م استيلاء قورش على بابل.

٥٣٨ - ٣٣٢ ق.م الحكم الاخميني لبلاد الشام وكذلك مصر.

٣٣٦ ق.م ظهور الاسكندر المقدوني.

١٤١ ق.م قيام كيان الحشمونيين او المكابيين.

٦٣ ق.م استيلاء بومبي باسم روما على بلاد الشام.

٣٧ ق.م - ٤م ملك هيرود الكبير

٦٦ - ٧٣م تدمير فسبسيان الروماني لفلسطين وإبادة أهلها.

ولدى التعامل مع هذه التواريخ المفترضة، لم يمكن العثور على ما يؤكد دخول إبراهيم إلى فلسطين، وتبين أن أخباره أضيفت في تاريخ لاحق حوالي القرن الميلادي الأول إلى سفر التكوين، ثم إن عمليات المسح للبحر الميت لم تكشف عن غرق مدينتي سدوم وعمورة فيه، وحين ذهب باحثان أمريكيان الى أن «باب الذراع» هي سدوم و«النميرية» هي عمورة، تبين أن هذين الموقعين قائمان على مقربة من البحر الميت وليس فيه، وأن الحياة توقفت فيهما في سنة /٢٣٥٠ ق.م /، وليس في البقايا الأثرية مايشير إلى حياة غير عادية، لاسيما بعد اكتشاف المقابر هناك وفحص بقايا الهياكل العظمية، ولا أستهدف هنا نفي خبر إبراهيم الخليل، ولاخبر قوم لوط، بل أريد التذكير بأن حياة إبراهيم مرتبطة مع مكة المكرمة وبناء البيت الحرام فيها، وأن الشذوذ الجنسي لم يمارس في بلاد الشام، وأن القرآن الكريم حين أتى على ذكر ماحل بقوم لوط لم يحدد لا الزمان ولاالمكان (انظر سورة هود الآيات: ٧٣ - ٨٢).

أما الخروج، فسوف أعالجه بعد قليل بشكل أوفى، لكن يتوجب التبيان هنا أن وصف البلاد التي كان منها الخروج لاينطبق على مصر، وأن الحفريات الأثرية والمسح الشامل لشبه جزيرة سيناء برهن أنها لم تعرف ما يسمى بالتيه، هذا ولم يفصل سيناء عن مصر أي بحر (قبل حفر قناة السويس)، وشكلت سيناء دوماً جسراً بين بلاد الشام ومصر، وهذا الجسر لم تتوقف قط الحركة عليه بين البلدين، وما من واحد من حكام مصر حمل لقب فرعون، ولم يكتشف أي ملك مصري غرق في البحر، وملك مصر لم يكن شيخ عشيرة يستنفر اتباعه ليقوم بمطاردة مفاجئة وسريعة، وماقيل عن عبودية اليهودية في مصر وتسخيرهم في بناء الأهرامات، هراء، لأن الأهرامات بنيت في حوالي (٢٥٠٠ ق.م) وتم الكشف عن مقابر الذين أسهموا في بناء هذه المقابر العملاقة فتبين أنهم من أهل مصر، لكن اليهود حملوا دوماً البغضاء لمصر، ودأبوا في العصر الحديث على التشهير بها وبتاريخها المجيد، بأعمال التبشير، وبالأفلام السينمائية، وظلوا يضغطون على حكامها حتى ورطوها في كامب ديفيد، مما ألحق أضراراً بها وبالأمة العربية لايمكن تقديرها.

ودللت نتائج الحفريات الأثرية على عدم دخول هجرة بشرية مدمرة أو غير مدمرة إلى أرض كنعان منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، لذلك مال الكتاب

الغربيون والذين يدورون في فلكهم إلى القول بأنه لم تكن هناك هجرة، بل تسرب سلمي، أو بالحري لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل، وأريحا لم تدمر في هذا التاريخ ومثلها في ذلك بقية مدن فلسطين آنذاك.

وذهبت مرويات التوراة إلى أن موسى لم يدخل إلى فلسطين، بل وصل إلى منطقة مُآب في أردن اليوم، وصعد إلى قمة جبل نبو، من حيث شاهد «الأرض المقدسة» أو «أرض الميعاد»، ثم توفي، ومن الصعود إلى قمة هذا الجبل هذه الأيام لايمكن مشاهدة أي شيء مما ورد ذكره في التوراة، ومن المؤكد أن موسى لم يصل إلى هذا الجبل، وأن كتبة التوراة تبنوا اسم هذا الجبل، وقالوا بأن موسى قد دفن فيه، لقداسة هذا الجبل منذ القديم، فقمته وسفوحه والوادي دونه، فيها مقابر كثيرة.

فقد جرت الحفريات الأثرية في هذا الجبل منذ عام ١٩٣٣، وتبين أنه استخدم بمثابة مقبرة منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وأن أقدم أنواع القبور فيه هي عرفت باسم «دولمن Dolmens» وهي منشآت حجرية كبيرة جداً، لها شكل مستدير، ولها فتحة من جهة الشرق، وكان بين ما تّم العثور عليه في هذه القبور، هو بعض الأدوات التي استخدمت في الحفر والبناء وبعض الجرار، وإلى جانب مقابر «الدلمن» جرى اكتشاف مجموعة أخرى من القبور تاريخها يعود إلى أكثر من ألفين قبل الميلاد، وأفادت هذه المكتشفات أن العرب القدماء، خاصة البداة منهم، اعتادوا على القدوم إلى جبل نبو، حيث توفر نبع غزير من الماء، مع بعض المراعي، القدوم منذ أيام الربيع، حاملين معهم أجساد موتاهم لإعادة دفنها، وهذه عادة مورست في أجزاء أخرى من فلسطين، هذا ولم يتحدث كتبة التوراة عن كيفية موت موسى، والذي قاموا به فيه فقط هو ادعاء جبل نبو لأنفسهم، لأنه اتسم بالقداسة من قبل، وكان يضم عدداً من المقابر.

❖ ❖ ❖

ومع أنني سوف أتطرق ثانية إلى قضية داود وابنه سليمان، أشير هنا إلى أنّ الحفريات الأثرية لم تظهر ولا أدنى إشارة إلى بناء هيكل سليمان، وأهم من هذا أن مدينة القدس، كبلدة أو مدينة لم تكن موجودة قبل القرن الثامن قبل الميلاد، وارتبط قيام هذه البلدة مع تهديم حاضرة مملكةبيت عمري العربية [1]، واكتشاف نبع سلوان، ثم انهيار الدولة الآشورية، واسترداد مصر لقوتها، مع التبدلات التي رافقت ذلك في الاستراتيجيات، وطرق التجارة والقرب من شواطئ البحر

(١) بهذه المملكة تتعلق الإشارة إلى آحاب ومشاركته في معركة قرقر على العاصي، ضمن التحالف الآرامي ضد الآشوريين.

المتوسط، وتصدي المصريين للتوسع الكلداني في فلسطين، هذا التوسع الذي هدد مصر، وأعاد إلى الذاكرة الاحتلال الآشوري لها، هذا ولسوف أعالج مسألة السبي البابلي فيما بعد، مع غيره من المسائل قبل العصور الكلاسيكية، وبودي التنويه هنا أن كل واحدة من القضايا المتقدم ذكرها تحتاج إلى أبحاث مستفيضة، وهذا من غير الممكن أن يقوم به فرد، بل يحتاج إلى مؤسسات بحث مختصة، وقد آن الآوان أن يكون في كل جامعة في المشرق والمغرب العربي مركز للدراسات الإسرائيلية، وأعجب في الوقت نفسه من إقدام المؤسسات المالية والصناعية والتجارية في الغرب على تأسيس مراكز للبحث، ونحن لانفعل ذلك، مع أن أمتنا هي أمة الأوقاف وإنشاء المدارس والإنفاق على العلم والعلماء، وتأسيس المكتبات!.

ومن القواعد المتوجب الالتزام بها في الأبحاث التاريخية الجادة، التمهيد بتقديم دراسة لأهم مصادر الموضوع، وأن تكون هذه الدراسة نقدية، ونظراً لخطورة موضوع تاريخ القدس القديم ، رأيت الاقتصار اليوم على دراسة بعض المصادر المتداولة، ولعلني سوف أجد الفرصة في المستقبل للحديث عن أعمال الكشف الأثري، عندما أستوفي أحدث الدراسات، أي ما صدر بعد ١٩٩٣م، لكن مبدئياً سوف يكون حديثي المقبل عن تاريخ القدس القديم.

اهم المصادر (دراسة تحليلية ونقدية) :

مصادر تاريخ القدس القديم كثيرة، تتصدرها - كما سلف القول - نتائج الحفريات الأثرية فيها وفي فلسطين كلها مع جميع أنحاء بلاد الشام، والنقوش المصرية القديمة، ونقوش بلاد الرافدين، ولاسيما الآشورية، ولابد من التنبه أولاً إلى أن جميع نصوص النقوش تحتاج إلى إعادة قراءة وضبط، لأن الزيف لحق قراءة النصوص التي لها علاقة بالقدس، ومابرح الباحثون العرب يعتمدون - في الغالب - على قراءات غير العرب لهذه النصوص، مع أن العدد الكبير من أوائل الأثريين كانوا إما من رجال اللاهوت، أو تحت تأثيرهم، وصار الأثريون فيما بعد يعملون بتوجيه من الصهيونية، وظل هدف الأجيال الأثرية الغربية، كلها تثبيت ماورد من أخبار في العهد القديم (٢).

(٢) انظر ...The Ancient near Eact, Edited by James B. pritchard, princton 1958 والأبحاث: ١ - ٥ في بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس، المنعقد في القاهرة ٣/٢١ - ١٩٩٨/٣/٢٢ ج١ - ط. القاهرة ١٩٩٨. القدس مدينة واحدة - عقائد ثلاث، تأليف كارين آرمسترونغ، ترجمة عربية. ط القاهرة ١٩٩٨ . الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، تأليف الياس شوفاني - ط. بيروت ١٩٩٦، الفصل الثاني والثالث. الموسوعة الفلسطينية - القسم الثاني، ج٢ ص١٠٢ - ١٠٧، ج٦ ص٧٩٧ - ٨٠٠. الموسوعة الفلسطينية - القسم الأول، ج٢ ص٥٠٨ - ٥١١.

وما عثر عليه في مصر كثير جداً، سأقف فقط عند بعضه الأهم، وهو نصوص اللعنة، ونقش مرنبتاح، ورسائل تل العمارنة.

من المقدر أن نصوص اللعنة تعود إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وقد كتبت هذه النصوص على أوان من فخار، ودمى بالخط الهيراطيقي، ومثلت هذه الدمى أسرى موثوقين، كشف عنها في سقارة وطيبة، وهي محفوظة في كثير من المتاحف في أنحاء العالم، ويوجد منها نماذج في متحف القاهرة، والأسماء التي وردت في هذه النصوص: مصرية، ونوبية، وآسيوية[٣]، ويقول أحد النصوص بعد ذكره لاسم الشخص الملعون وأسرته: «وحلفائهم، والمشتركين معهم، الذين يثورون أو يتآمرون، أو يقومون بالحرب، أو يفكرون بالثورة في جميع أنحاء البلاد» أو «جميع الرجال، وجميع الناس، وجميع الشعب، وجميع الذكور، وجميع الخصيان، وجميع الإناث، وجميع الذين يحاولون الثورة، أو التآمر، ويفكرون بالحرب... وكل كلمة شر، وكل مقالة سوء، وكل مؤامرة».

وبعد كتابة الأسماء والمطالب، كان المصريون القدماء يكسرون هذه القطع الفخارية، وكأنهم كانوا يعتقدون أنه بهذه الواسطة يمكن إحباط أي عمل عدواني منوي ضد مصر، ورواسب هذه العادة ماتزال تمارس حتى الآن في مصر وبلاد الشام، وكأن لها فعل السحر وتأثيره و وذلك مع الاعتقاد القديم بأن الحرف هو كائن حي، ومن الأسماء الآسيوية التي وردت في نصوص اللعنة: بيبلوس (مدينة جبيل) وعسقلان، وأوزو، أمام صور، و«أشام م».

وأقدم الباحثون الغربيون على القول فوراً بأن «أشام م» هي مدينة «أورشليم»، وفي هذا تدليس مكشوف، لأن المعطيات الأثرية بينت أن مدينة القدس، لم تكن قد تأسست قبل القرن الثامن قبل الميلاد، وسنرى أنها حملت اسم «أورشليم» في العصر الاخميني الفارسي ربما في المئة الرابعة قبل الميلاد، ومن الواضح أن الذي قصد بـ «أشام م» هو بلاد الشام، التي غزيت مصر دوماً من خلالها، متذكرين أن تاريخ نصوص اللعنة يتزامن مع بدايات ظهور الهكسوس في مصر[٤].

أما نقش مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) فقد كتب على صخرة سوداء، وهو يتكون من ثمانية وعشرين سطراً، تحدث

---

(٣) آسيا آنذاك هي المنطقة التي امتدت من منطقة القدس حتى منطقة حمص.

(٤) القدس الخالدة في الوثائق المصرية القديمة والأكدية والكتاب المقدس للأستاذ الدكتور عبد الحميد أحمد زايد، في بحوث مصادر تاريخ القدس، ج١ ص٥٦ - ٥٨. مدينة القدس في النصوص المصرية القديمة خلال عصر الدولة الحديثة للدكتورة فايزة محمود صقر، في الكتاب نفسه ج١ ص١٥٥ - ١٥٨. هذا وكانت هناك مدينة على الفرات في الجانب العراقي في عصر ماري كان اسمها «أورشومو».

فيه هذا الملك عن انتصاراته وإنجازاته ضد الليبيين ثم على بعض مدن فلسطين حيث قال في السطر السادس والعشرين: «وانبطح كل الزعماء طالبين السلام، ولم يعد أحد يرفع رأسه من بين التسعة، وأمسكت التحنو، وخاتي هدأت، وأصيبت كنعان بكل أذى، واستسلمت عسقلون، وأخذت جزر، وينعم أصبحت كأن لم تكن، «ويزريل» اقفر، ولم يعد له بذور، وخارو أصبحت أرملة».

ولدى التمعن في هذا النص، نجد أن الذين جاء ذكرهم في الترجمة هم ثمانية وليسوا تسعة، وهؤلاء الثمانية هم: «تحنو١، وخاتي٢، وكنعان٣، وعسقلون٤، وجزر٥، وينعم٦، ويزريل٧، وخارو٨» فأين ذهب الاسم التاسع؟

وقبل طرح هذا السؤال، يلاحظ صدور دراسات كثيرة، احتارت كيف تتعامل مع الاسم «يزريل» وكلها استسلم أن المعني هو «إسرائيل» وكثرت الاجتهادات والتفسيرات، لكن قبل الغرق في بحار التزييف أعدنا النظر بقراءة النص فتبين، أن تزييفاً لحق بالقراءة ودمج هذا التزييف بين الاسمين السابع والثامن وبذلك باتت الأسماء التسعة هي: «تحنو١، وخاتي٢، وكنعان٣، ويسقراني٤،وجزر٥، وينعم٦، ويازير٧، ويار٨ ،وخال٩»، هذا ومن المعتقد أن «يازير» هو «يازور» أي «بيت الزور» على ستة كم إلى الشرق من يافا، وأما جزر فتل يقع على بعد ثمانية كم إلى الجنوب الشرقي من الرملة[٥]، ومن المعتقد أن «يار» هي يارين في جنوب لبنان.

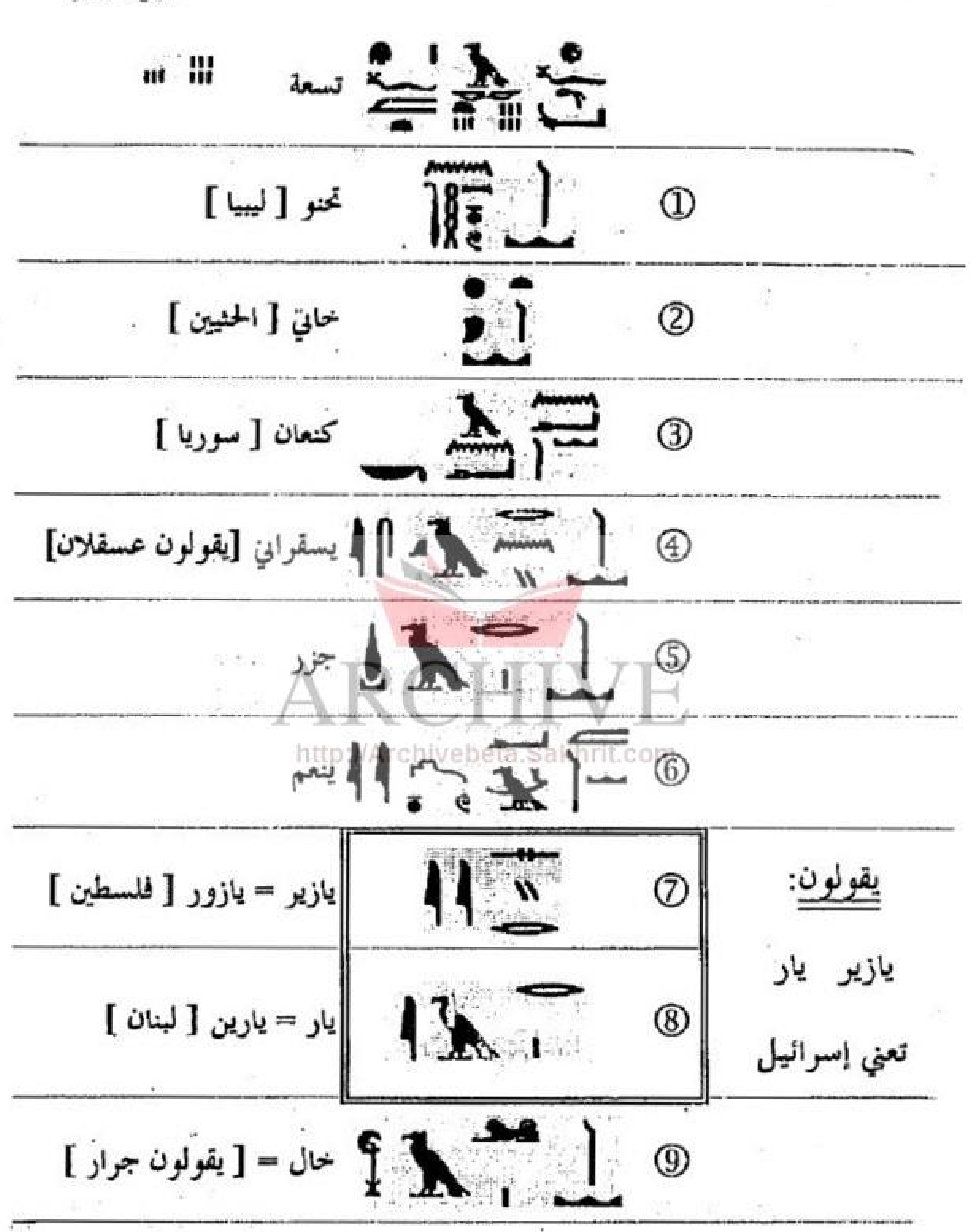
وكان عدد من الباحثين قد ذهب - بناء على القراءة المزيفة - إلى القول أن مرنبتاح هو «فرعون الخروج» وليس والده رعمسيس الثاني، وبشكل ملطف أن «يزريل» هو سهل يسيرارو، الذي صار فيما بعد يعرف باسم «سهل سدرالون» وبعد الإسلام «سهل أو مرج ابن عامر».

ونلتفت الآن إلى «رسائل تل العمارنة»:

في عام ١٨٨٧، كانت فلاحة مصرية تحرث قطعة أرض في خرائب «تل العمارنة» عاصمة الملك أخناتون أي أمنحوتب الرابع (حوالي ١٣٧٩ - ١٣٦٢ ق.م) الواقعة على دلتا النيل، فعثرت على لوح طيني مجفف عليه كتابات بلغة غريبة، فعرضته على أحد السماسرة، فتبين أنه مكتوب باللغة الأكادية (الكنعانية)، وبادر المهتمون بالآثار، وأخذوا يبحثون، فبلغ عدد ماعثروا عليه ثلاثمئة وسبعة وسبعين لوحاً، فيها رسائل من بلاد الشام، نصفها تقريباً من فلسطين، وجلها أرسل إلى أخناتون،

(٥) معجم بلدان فلسطين، لمحمد محمد شراب، ط. دمشق ١٩٨٧، انظر مادتي: «يازور وجزر»، وجزر الفرات في الجانب الآخر هي الآن «تل أبو شوشة» ومن أجل بقية الأماكن، انظر الموسوعة الفلسطينية - القسم الثاني، ج٢، ص٩٩- ١٠٢.

لوحة مرنبتاح



تفصيلات السطر ٢٦



مومياء رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) الذي قالوا أولاً بأنه كان فرعون الخروج ووالد مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) صاحب النقش الذي قالوا بأن كلمة إسرائيل قد وردت فيه، وأنه هو فرعون الخروج

فلسطين القديمة



واحد من الرقم الفخارية لرسائل تل العمارنة

وتحتوي الرسائل على تقارير عن أوضاع فلسطين، وعن صراعات بين ملوك محليين، وأسماء هؤلاء الملوك كلها عربية، من ذلك: عبدوهبه، ولبآيو (اللبوي) ومليكو، وايلملكو، وكان هؤلاء حكاماً صغاراً، تذللوا كثيراً في رسائلهم إلى الملك المصري، وشكوا إليه من الصراعات وبعض الاضطرابات الأمنية، وطلبوا المساعدات العسكرية، مثل بعض النبالة، وهناك في النصوص إشارات إلى مجموعة بدوية اسمها «العفيرو» «الخبيرو» وأرادوا من وراء ذلك القول بأن «العفيرو» وأخرى أعرابية اسمها «شاسو».

وقرأ الأوائل اسم «عبده هبه» «عبدي خيبا»، و«لعفيرو» «الخبيرو» وأرادوا من وراء ذلك القول بأن «العفيروا» هم «العبرانيين». وبداية لابد من التمييز بين «الخبيرو» و«العفيرو» زمنياً وجغرافياً، فالخبيرو ورد ذكرهم في رسائل من ماري على الفرات (١٧٣٠ - ١٧٠٠ ق.م) وذلك نسبة إلى الخابور(٦) . أما العفيرو ، فهم بداة فلسطين، وفي العربية التراب هو العفر، «وعافره:صارعه... والعفرة: غبرة في حمرة... والعفرة: المختلطون من الناس، وعفرة الحرب والشر: شدتها... ورجل عفر، وعفرية، وعفراه... أي خبيث منكر... ومعافر: قبيلة من اليمن... والعفر: السهام(٧)»، ويقابل كلمة «شاس» في عربية القرآن الكريم «جاس»، وفي سورة الإسراء (٥): (فجاسوا خلال الديار) يضاف إلى هذا أن معنى شاسو في الهيروغليفية «الأعرابي»، والمتتبع لتاريخ فلسطين عبر العصور يجد أنه بالإضافة إلى سكان المدن والأرياف، كان هناك دوماً بداة، وأعراب، وهذا ما هو موثق في العصر الفاطمي، وفي كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ في حديث عبوره من مصر إلى الشام، وفي أواخر القرن الخامس عشر في رحلة فيلكس فابري(٨).

وبعد رسائل تل العمارنة، استمر ذكر «العفيرو» يرد في الكتابات المصرية، من ذلك نقوش معبد هابو التي تصور انتصار رعمسيس الثالث (١١٨٨ - ١١٥٧ ق.م) على شعوب البحر (فرستي - فلستي)، وفي بردية هاريس، أهدى رعمسيس هذا نفسه عدداً من «العفيرو» إلى معبد الإله رع في عين شمس، كما استخدم ابنه رعمسيس الرابع (١١٥٧ - ١١٥١ ق.م) ثمانمئة من «العفيرو» في قطع الأحجار في وادي الحمامات(٩).

---

(٦) - the Ancient Near East, Volume I, Edited by James B. pritchard , Princeton 1958, (العفيرو)276 - 269)(الخبيرو) - pp261-262.

(٧) المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد، ج٢ ط. بغداد ١٩٧٨ (مادة عفر).

(٨) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية للدكتور سهيل زكار ج١٢ ص١٤٤ - ١٤٥ ج٤٣ ص١٢٥٩ - ١٢٩٢ .

(٩) بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس ج١ ص١٧٠ - ١٧٣ .

وحاولت بعض البحوث الالتفافية أن تجدد القول بأن هذه الإشارات، تعني دخول العبرانيين إلى مصر ، حسبما ورد في العهد القديم، كما أن القران الكريم في إشارته لموسى عليه السلام وليوسف عليه السلام ذكر مصر خمس مرات(١٠)، وأن حاكمها يعرف بفرعون، مع أننا سنقف مع موضوع تدوين العهد القديم وتقويم مواده الإخبارية - نوضح بداية، أن أرض الكنانة كان اسمها في العصور القديمة «كمة أوكميت» - أي الأرض السمراء، ومامن واحد من ملوكها حمل لقب فرعون(١١)، وظلت أرض الكنانة تحمل اسمها، هذا حتى مابعد عصر الاسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد ، بدليل نقش جبل رم (٢)، الواقع إلى الشمال من خليج العقبة، وقد كتب هذا النقش بحرف الجزم (القرآني) والمسند والهيروغليفية، وجاء فيه: «قاد عليّ جيشه، وانتهى بأرض ترضى لكلب ، جيشه عدا إلى الكمة كوم رع رب».

مومياء رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) الذي قالوا أولاً بأنه كان فرعون الخروج ووالد مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) صاحب النقش الذي قالوا بأن كلمة إسرائيل قد وردت فيه، وأنه هو فرعون الخروج.

ولعل أرض الكنانة كسبت اسم «مصر» على أيدي القوى المشرقية التي استولت عليها منذ العصر الأخميني أو قبل ذلك بأمد قصير، الذي كانت لغته الرسمية هي اللغة الآرامية، فبالأكدية «مصر» تعني التخم، وفي الآرامية المجري، ومازلنا نستخدم كلمة «مصران» أكثر من كلمة أمعاء، وفي النصوص الآشورية وردت كلمة «مسري، مسرو» لتعني مجرى الفرات كله أو بعضه، ويقودنا هذا إلى المعنى القرآني، حيث جاء في سورة البقرة (٦١) قوله تعالى: «وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن

---

(١٠) انظر سورة يونس - الآية ٨٧، وسورة يوسف الآيتين ٢١، ٩٩، وسورة الزخرف - الآية ٥١، وسورة البقرة - الآية ٦١.

(١١) مرفوض التأويل اليهودي أن كلمة فرعون هي تعسيف لكلمة «بارا - عون» أي صاحب البيت الكبير. وانظر أيضاً مادة «كميت» في كتابي «المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم» ط. دمشق ١٩٩٧ .

لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله»، وهنا إذا افترضنا أن الخروج كان من أرض الكنانة، فهل من المعقول أن يطلب منهم موسى عليه السلام العودة إليها، وكيف سيكون هناك انشقاق للبحر مرة ثانية، ومجدداً بالمناسبة من المعروف جغرافيًا أنه لايوجد بحر يفصل بين مصر وشبه جزيرة سيناء، وأن الإسرائيليين أثناء احتلالهم لشبه جزيرة سيناء فتشوا في كل مكان فلم يجدوا أي دليل على صحة حكاية الخروج حسبما وردت في العهد القديم، يضاف إلى هذا أن الخليل بن أحمد الفراهيدي بيّن في معجم العين (في مادة مصر): «وقوله تعالى: (اهبطوا مصرا) من الأمصار، ولذلك نونه، ولو أراد مصر الكورة بعينها لمانون، لأن الاسم المؤنث في المعرفة لايجري»، وعلاوة على ماتقدم هناك حاجة لدراسة الوصف الطبوغرافي لمنطقة جبل كاترين في سيناء، والبحث في كتب التفاسير والبلدان، واللغة عن معنى ومكان «طوى».

ودفعت النتائج المحبطة لأعمال الكشف في شبه جزيرة سيناء الصهاينة والذين يعملون بتوجيه منهم إلى القول بأن جبل الطور أوبالحري جبل موسى لم يقع في سيناء، وأن البحر انشق عند خليج العقبة، لأن سيناء كانت دوماً بيد القوات المصرية التي انتشرت فيها من أجل البرونز واللازورد (الفيروز)وبالتالي مسرح أحداث الخروج كان الشمال الغربي لشبه جزيرة العرب، أو بالتحديد منطقة تبوك حيث جبل اللوز، وقاد هذا إلى خروج عدد كبير من الدراسات المشبوهة حول جغرافية التوراة(١٢). وتتمثل مشكلة هذه الدراسات المغوية، في طرحها أن التوراة كتاب، وهو ليس كذلك، وهو ليس تاريخ ولا كتاب دين ولاميثولوجيا، إنه مواد جمعت من مشارب كثيرة، واستغرق تدوينها حوالي الألف وخمسمئة سنة، والفرضية الأساسية في هذه الدراسات هي اللغة، لكن من دون توثيق معاصر ولا ماضي، فمواد العهد القديم تحتاج كل منها إلى التحليل ، وإلى الإعادة إلى مصدرها، وعصرها، ومكانها، ووسطها وكاتبها، مع الاهتمام بالمناخ والتضاريس والزراعة والحياة الاجتماعية، وغير ذلك الكثير.

ويبدو أنه في الوقت الذي اكتسبت

(١٢) من ذلك التوراة جاءت من جزيرة العرب «لكمال صليبي»، «وخفايا التوراة» له، «وحول اطروحات كمال صليبي» لفرج الله صالح ديب، «التوراة اليمانية أو الصنعانية» له، «وجغرافية التوراة» لزياد مني، «وجغرافية التوراة في جزيرة الفراعنة» لأحمد عيد وانظر ايضًا: "the Gold of Exodas " by Howard Blam, london 1998

وقف عند الخرائط والصور في مطلع الكتاب، وما بين صفحتي ١٧٧- ١٧٨ وهذا ما تبناه جيمس برتشرد حيث اشرف قبل وفاته في عام ١٩٩٦ على: "the Harfe Rcollensconcies Athas of the Bibale" san Francisco 1997

(١٣) اناشيد البعل لحسني حداد وسليم مجاعص، ط. بيروت ١٩٩٥ ص٤٢.

فيه أرض الكنانة اسماً آرامياً جديداً، نالت أيضاً تسمية إغريقية، انتقلت إلى اللغات الغربية، وأعني بذلك «ايجبت Egypt» وأهلها بالتالي قبط، وأصل هذه التسمية هو أن المصريين القدماء أطلقوا اسم «حكفكت» أو «حكفت» على العاصمة «منوفر» التي دعاها الإغريق باسم «ممفيس» وحوّر الإغريق اسم «حكفت» إلى إيجبت، ومع الأيام أصبحت هذه التسمية تعني البلاد كلها(١٣).

إن ماتقدم يشكل نماذج حول مكانة المصادر المصرية القديمة، وأن الحاجة ملحة لنقل النصوص القديمة إلى العربية مباشرة، وليس عبر لغة غربية وسيطة، وينطبق هذا أيضاً إلى المصادر الرافدية من بابلية وآشورية، علماً بأن المصادر الرافدية ليست بالقدم نفسه مثل المصادر المصرية ، وأقدم المصادر الرافدية هي التي جاءت من دولة بابل الأولى، وأهمها التي جاءت من الدولة الآشورية ثم دولة بابل الثانية، ومعلوم أن العراق بلد قاري، لذلك سعى حكام العراق نحو السيطرة على بلاد الشام، والوصول إلى شواطئ البحر المتوسط، وقاد هذا نحو أعمال توسع أكبر، ولم تكن لدولة بابل الأولى كبير علاقات بفلسطين، ولا بالقدس لأنها لم تكن قد تأسست، إنما في العصر الآشوري تبنى الآشوريون منذ «سلمان نصر» مايمكن وصفه بسياسة مرسومة نحو فلسطين، ومع ذلك لم يرد للقدس ذكر في مصادر الدولة الآشورية إلاّ مرة واحدة فقط، هي في نص يعود إلى أيام الملك سنحريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م)، وفي هذا النص تناقضات أكثر مما ورد في نصوص آشورية أخرى حول اسم ملك القدس آنذاك(١٤) وعلى العموم اتسمت النصوص الآشورية بالغلو والمبالغة بالمعلومات التي حوتها، وقد استمرت دولة آشور بالوجود حتى سنة ٦١٢ ق.م، حيث سقطت لدولة بابل الثانية - الكلدانية، والمهم بالنسبة لموضوعنا بين ملوك الكلدانيين هو نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) والنصوص التي وصلتنا عن حملاته إلى سورية، لاسيما وأن النصوص الكتابية تعزو إليه أحداث مايعرف باسم «السبي البابلي»(١٥).

ولم تعمر الدولة الكلدانية طويلاً بعد نبوخذ نصر، وسقطت بابل سنة ٥٣٩ق.م إلى الملك الفارسي قورش، حيث سلمه إياها كهنة مردوخ، وفي أيام الملك قمبيز احتل الفرس بلاد الشام ، وكذلك مصر، كما أن جيوشهم منذ ذلك الوقت شرعت بالتوغل في آسيا الصغرى وصولاً حتى بلاد الإغريق، وبقيت فلسطين

(١٤) The Ancient Near East, Vol I, PP 199 - 201. An Cient Records of Assyria and babylonia, by James Henry Breasted, chicago 1926, Vol 2.pp 119 - 121, 143.

(١٥) The Ancient Near East, vol I, pp 203 - 205. the third Edition, the samebook, princeton, 1969, pp, 307 - 308.

والقـدس تحت الحكم الفـارسي قـرابة القرنين، كانا من أخطر الحقب التاريخية، لكن أقلها من حيث المعلومات والمصادر، وهنا يعد تاريخ هيرودوت مـصدراً هـاماً جداً، فهو مفيد بالنسبة للتقسيمات الإدارية الامبراطورية الاخمينية، وبالنسبة لاسم مدينة القدس، فهي عنده قد حملت هذا الاسم[١٦]، وبالإضافة إلى هيرودوت جميع محتويات المكتبة الكلاسيكية التاريخية والجغرافية هي مفيدة.

واعتاد الكتاب الغربيون الاعتماد على أسفار: عزرا، ونحميا، ودانيال، وأستير، وعلى أعمال المؤرخ اليهودي يوسفيوس، ثم على بعض نتائج الكشوف الأثرية، ومشكلة الأسفار، التداخل بين موادها واضطرابها الشديد، والوثائقية، فسفر دانيال - على سبيل المثال - المفترض أنه كتب في البلاط الاخميني في أيام الامبراطور أرتا اكزساكس الثالث Artaxerxes (٣٥٩ - ٣٣٨) يحتوي على أخبار تغطي حقبة تاريخية امتدت منذ أيام نبوخذ نصر حتى حوالي سنة ١٥٠م، أي سبعة قرون ونصف القرن، وهذا معناه أن هذا السفر كتبه مئات من الكتبة، وعزوا ما كتبوه إلى دانيال، أما يوسفيوس فمن غير الممكن الوثوق به لانحيازه، ولاعتماده في القرن الأول للميلاد على أسفار العهد القديم، وعلى الرغم من نشاط الكتبة الذين سيعرفون فيما بعد، باسم اليهود، فإن الديانة التي ازدهرت في ظل الحكم الأخميني كانت هي الزرادشتية، ويلاحظ هنا أن ما سيعرف باسم اليهودية، كانت حتى قبيل سنة ٧٣م، زرادشتية إلى أبعد الحدود، مع أن بعضهم يسميها ميثراوية، والميثراوية هي نسخة سورية معدلة عن الزرادشتية، وصحيح أن الامبراطورية الأخمينية استخدمت اللغة الآرامية وتأثرت كثيراً بالحضارة البابلية، لكن الفرس كانوا من الشعوب الآرية - الهندو - أوروبية ونشر ديانتهم الزرادشتية في بلاد الشام والجزيرة وصولاً حتى مصر، كان مسعى حضارياً آرياً[١٧].

ولم يكتب لهذا المسعى دوام النجاح، لأن الدولة الأخمينية سقطت سنة ٣٣٣ ق.م للاسكندر المقدوني، وتمكن الاسكندر

---

(١٦) - هذا أمر سوف نعود إليه بالتفصيل في مكانه، واعتمادنا هنا على طبعة تاريخ هيرودوت بالإنكليزية لندن ١٩٦٥.

(١٧) The Heritage of persia, by richard N. frye london 1965, pp 94 - 121. fron, by R. chirshaman, London 1954, pp 127 - 201. History of persion Emfire, by A.T. dmstead, chicago 195, pp, 34-162. A His Tory of persia, by percy sykes, New York. 1963. p/50-170.
The work of Flaveus jose phus, London. p41.

وهناك ترجمة عربية لقطعة من تاريخ يوسفيوس حول حروب اليهود، ط. دار صادر، بيروت ١٨٧٢م. وانظر أيضاً بحث د. محمود السعدني في بحوث مصادر تاريخ القدس، ص١١٩ - ١٥٣. هذا ويعد كتاب: Judaisn from cyrasto Hadreon, by Lesterl. Grabbe. أفضل كتاب حوى دراسات نقدية مع تعريف بمصادر الحقبة الفارسية الأجنبية، مع خلاصة لأهم الدراسات الناقدة للعهد القديم في أوروبا، انظر الكتاب كله - ط. لندن١٩٩٢. chicago 195, pp, 34 - 162.

فيما بين (٣٣٤ - ٣٣٠) من تصفية الامبراطورية الفارسية، لكنه لم يعمر بعد انتصاراته، وتوفي، ومن بعده تمزقت امبراطوريته، وكان أن ورثه في بلاد الشام الدولة السلوقية، وفي مصر دولة البطالمة، وكان الاسكندر المقدوني قد حمل معه مشروع أغرقة العالم، ومن بعده تابع خلفاؤه في مصر والشام هذه المحاولة الأوربية الجديدة، إنما ليس من دون معارضة شديدة، وبناء عليه إن مصادر كل من السلوقيين والبطالمة هي مصادر لتاريخ القدس، في عصر جديد بات يعرف باسم «العصر الكلاسيكي»، وقد استمر هذا العصر بأشكال عدة حتى الفتح الإسلامي لهذه المدينة.

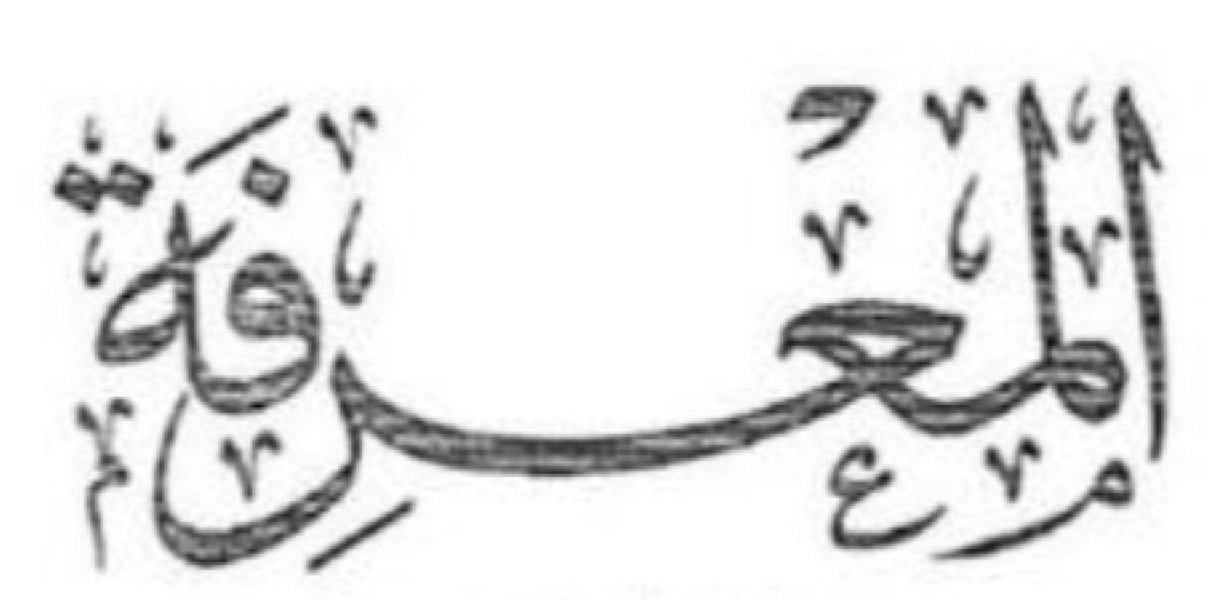
وكان البطالمة والسلوقيون قد تصارعوا من أجل السيطرة على القدس وفلسطين لأمد طويل، لكن هذه البلاد استقرت أخيراً بأيدي السلوقيين حتى احتلال الرومان سنة ٦٣ق.م لبلاد الشام، ومن مزايا العصر السلوقي الهلنستي أعمال التمرد التي قام بها الذين صاروا يعرفون باسم «يود» نسبة إلى مقاطعة إدارية صغيرة اسمها «يوديا» أحدثت في أيام الاخمينيين، هذا ما سوف نتعرض له بشيء من التفصيل في المستقبل، والمهم الإشارة هنا إلى أن أعمال التمرد هذه لم تنته بانتهاء العصر السلوقي بل استمرت في أيام الحكم الروماني، واستشرت حتى أدت إلى دمار القدس، ومقتل سكان فلسطين كلهم تقريباً في سنة ٧٣ق.م[١٨].

---

(١٨) the Messianic Legacy, by michael Baigent, Rechard leigh and Henry lincoln, New york 1989, pp 33- 35.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، تأليف الياس شوفاني- ط. بيروت ١٩٩٦ ص١١٢- ١٢٣. القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، تأليف كارين آرمسترونج- ترجمة عربية، ط عربية. القاهرة ١٩٩٨ ص١٤٥- ٢٢٥. تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتي، ترجمة عربية ط. بيروت ١٩٥٨ج١ ص٢٢٨- ٣٦٢. جبروت آشور الذي كان، تأليف هنري ساغس، ترجمة عربية- ط. دمشق ١٩٩٥ ص١٠٧- ١٦٢. الخطوط الكبرى في تاريخ سورية ونشوء العالم العربي، تأليف أسد الأشقر- ط. بيروت ١٩٨١، ج١ ص٢٠٤- ٢٢٥. تاريخ اليونان، تأليف د. محمد كامل عياد، ج١- ط. دمشق ١٩٨٠ ص ٢٥٢- ٢٩٠. دراسات في العصر الهلنستي للدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى- ط. بيروت ١٩٨٨ ص ١٩٧- ٢١٧. تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني إلى الفتح الروماني للدكتور أسد رستم- ط. بيروت ١٩٦٩ ص١٧- ١٣١. سورية في عصر السلوقيين للدكتور مفيد رائف العابد- ط. دمشق ١٩٩٣ ص١٧- ١٥٢. الدولة السلوقية- تأليف ي بيكران، ترجمة عربية، ط. دمشق ١٩٩٣ ص٤٧- ٩٠.

the Dawnand twilighl of Zoroastiansm, by R C.Zaehner, London 1961 pp 97- 144,, the Ancient Greek Historans, pp 36- 74.



مجلة ثقافية شهرية
تصدرها
وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية



السنة 41 العدد 465 ـ ربيع أول 1423 ـ حزيران « يونيو » 2002

حافظ الأسد
القائد التاريخي للأمة العربية
في العصر الحديث

أ. د. سهيل زكار(*)

من أعلام التاريخ من تكتفي بالكتابة عنه مرة واحدة، حيث تستنفذ كل الذي يمكن قوله، ومنهم من يمكن الكتابة عنه مرة تلو أخرى، في كل عصر وزمان ومكان، والسبب في هذا أن النوع الأول قام بإنجازات لا بأس بها، استحق بناء عليها خلوداً جزئياً، والنوع الآخر أنجز من الأعمال ما استحق عليه الخلود المطلق والشهرة الواسعة، القائمة على التأثير الشامل والدائم، وأعلام النوع الثاني هذا على طبقات، منهم من استحق الخلود لكسبه معركة فاصلة، أو لأنجازه بعض الأعمال غير الاعتيادية، ومنهم من جاءت إنجازاته شاملة لجميع أوجه الحياة، وهذه الفئة قليلة جداً، أفرادها وصلوا إلى مرتبة

(*) أ. د. سهيل زكار: باحث من سورية، أستاذ في قسم التاريخ بجامعة دمشق.

البطل التاريخي، فتربعوا على عرش الزعامة المطلقة، والثقة والمحبة، ذلك أن كل القلاع يمكن خرقها، إلاّ حصن الثقة والمحبة.

ويحتاج الباحث في حياة البطل التاريخي إلى الإلمام بأدق تفاصيل حياته وإنجازاته، وأن يكون قادرًا على فهمها واستيعابهاحتى يتمكن من تقويمها، وهذا محال، ولكن بما أن الكتابة التاريخية تعتمد أصلاً على الرواية والوصف، من الممكن للباحث الإلمام أحيانًا ببعض جوانب حياة البطل التاريخي، وتظل الآفاق أمامه - وأمام سواه - مفتوحة، للكتابة كل يوم، مادام التاريخ خبر ورؤية وتحليل وتركيب.

وينطبق هذا على المعاصرة مادام البطل التاريخي حيًا، لكن بعد اختفائه تثور المشاكل والمصاعب، فهناك من لا يؤمن بوجود الأبطال التاريخيين، ويقولون: إن الشعوب هي البطل الحقيقي للتاريخ، ولايمكن التقليل من دور الشعوب، لكن الشعوب من دون قائد لايمكنها إنجاز شيء فعّال، وتتأتى عظمة البطل التاريخي من معرفته لقضايا شعبه، وإيمانه بعدالتها، وتعمّقه بتاريخ هذه الشعوب، وإدراكه للمحركات الحقيقية لها، والتمسك قبل كل شيء بكرامة شعبه ووحدته وتماسكه.

ومما لاشك فيه أنه وجد بين البشر أفراد ملكوا من الطاقات ماجعلهم يتفوقون على من سواهم من الناس في أيامهم، وبذلك نجحوا دومًا في زعامتهم، وأحدثوا تغييرات كبيرة، وأنجزوا أعمالاً خطيرة تأثر بها معاصروهم والذين جاءوا من بعدهم، وفي التاريخ العربي صدرت عظمة الخلفاء الراشدين عن فرادة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وفي تاريخ الحروب الصليبية حقق صلاح الدين في العقد الأخير من حياته الوصول إلى مرتبة القائد التاريخي، لكن لولا نور الدين لما كان هناك صلاح الدين، ولولا الوحدة التي حققها نور الدين بين الشام ومصر ماكانت هناك حطين ولاتحرير للقدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م.

وترتبط مكانة إنجازات البطل التاريخي بنوعية التحديات التي تواجهه أثناء حياته وضخامتها وخطورتها ، وكنت لأيام خلت أبحث في حياة صلاح الدين، فوجدت أنه واجه أكبر التحديات في مصر إثر موت عمه أسد الدين شيركوه، فقضى على المؤامرات الداخلية، وتصدى للغزو البيزنطي الصليبي، ونجح في تأسيس حكم جديد وجيش حديث، وإدارة ناجحة، ثم كان التحدي الثاني الخطير الذي واجهه إثر وفاة نور الدين، وهنا نجح بسرعة كبيرة لأنه امتلك إمكانات مصر ، وبإمكانات مصر والشام خاض معركة حطين وحرر القدس ومناطق أخرى كثيرة، وجاء التحدي الأعظم في حياته في مواجهة الحملة

الصليبية الثالثة، وعلى رأسها ريتشارد الأول ملك أنكلترا، وأثناء تصديه لهذه الحملة خذله كثير من رجاله، في عكا حيث تخلوا عن عكا للصليبيين وكذلك أهله، فقد سعى كل واحد من أفراد الأسرة الأيوبية إلى نيل ملك خاص به، وضرب أخوه العادل المثل الأسوأ بينهم، حيث تساوم مع ريتشارد من أجل الزواج من أخته وإقامة مملكة صليبية إسلامية في القدس، ورفض صلاح الدين، فتمرد عليه أفراد بيته في يافا، ورفضوا الوقوف معه للدفاع عن القدس، وضغط العادل عليه مراراً حتى يجتمع بريتشارد الأول، فرفض، وأخيراً ورطه بقبول صلح الرملة وإيقاف الحرب، حيث عاد صلاح الدين إلى دمشق فمات فيها بعد عدة أشهر، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، ولم يكن صلاح الدين سعيداً بأسرته، وكذلك لم يسعد بأولاده الستة عشر ذكراً، لأنه أنجبهم من عدة أمهات، وبذلك لم يكن في حياة صلاح الدين سيدة فاضلة واحدة، ولا أسرة متماسكة، وقد انعكس هذا بصورة سلبية جداً على أوضاع المواجهة مع الصليبيين والأوضاع الداخلية في مصر وبلاد الشام، حيث تمزقت دولته إلى ممالك متصارعة فرطت بالقدس مراراً وأعادت تسليمها إلى الصليبيين بثمن رخيص جداً.

ولقد اطلعت بشكل واسع على تاريخ الأمة العربية وتواريخ غيرها من الشعوب قديماً، ووسيطاً، وحديثاً، واهتممت كثيراً بتاريخ بلاد الشام، ولاسيما بتاريخ الحروب الصليبية، حيث لدي موسوعة حول هذه الحروب صدر منها حتى الآن خمسون مجلداً، وستكون - إن شاء الله - في ثمانين، وستكون الأولى من نوعها بأية لغة من اللغات، وذلك على غرار مافعله ابن عساكر حين شجعه نور الدين على كتابة تاريخ دمشق، ثم رعاه صلاح الدين حتى أكمله فجاء بأكثر من سبعين مجلد، وأتيحت أمامي عقد مقارنات كثيرة بين الاحتلال الصليبي لبعض فلسطين مع أجزاء عزيزة من بلاد الشام، والاحتلال الصهيوني الحالي فوجدت أن الصليبيين قد أخفقوا في إنشاء أمة ومجتمع مندمج موحد، وأنهم شكلوا مؤسسة عسكرية طاغية متعنتة ومتجبرة، لكن عندما وقعت معركة حطين جرى تدمير هذه المؤسسة العسكرية، حتى أن صلاح الدين حاصر القدس وحررها بجيش لم يتجاوز تعداده العشرة آلاف مقابل أكثر من مئة ألف صليبي كانوا في المدينة بينهم مايزيد على ستين ألف مقاتل، وطبعاً حين نجح صلاح الدين في معركة حطين امتلك وحده مقاليد السلطة في بلاد الشام ومصر.

ومن خلال المقارنة وجدت فقط في عصرنا الحالي المرحوم الرئيس حافظ الأسد، قد وقف وقفة نورية - صلاحية،

القائد التاريخي للأمة العربية

وكان مدركًا تمام الإدراك لطبيعة الصراع ليس بسبب عبقريته السياسية والعسكرية والإدارية فقط، ولكن لأنه عرف تاريخ أمته تمام المعرفة، وأمن بضرورة الإفادة من دروس التاريخ، وقيل قديمًا: إن الملوك هم أكثر الناس عشقًا لأخبار التاريخ، لكنهم الأقل اتعاظًا بأحداثه، وهذا لم ينطبق على الرئيس الأسد رحمه الله. لأنه كان قائدًا عقائديًّا ارتقى إلى مرتبة القائد التاريخي للأمة العربية في العصر الحديث، وقد عشق التاريخ لأنه آمن بعظمة أمته وبرسالتها الخالدة، وكان بالفعل أكثر الناس اتعاظًا بأحداثه، وعندما سيأتي الوقت ويؤرخ به الإنسان لحرب رمضان التحريرية، يجد أنه كان يريد تحقيق ما تحقق في حطين - التي لم تفارقه صورتها طوال حياته - لكن لسوء الحظ كان يمتلك مقاليد السلطة في دمشق فقط وليس في دمشق والقاهرة كما كان عليه الحال أيام صلاح الدين.

وبعد هذا المدخل يحتاج الباحث في الخلفيات التاريخية لظهور القائد الأسد إلى استعراض مكثف لتاريخ بلاد الشام والوطن العربي، على الأقل منذ أواخر عصر المماليك حتى مابعد انتهاء الاستعمار الفرنسي وغيره من أنواع الحكومات الاستعمارية.

وفي وقفة سريعة في تاريخ بلاد الشام، نجد أن تاريخ هذه البلاد تأثر كثيرًا بالموقع الجغرافي المتميز، وبالتركيب الطبيعي، ولذلك كانت هذه البلاد هي نقطة المركز في صنع التاريخ العربي حضارة وسياسة واجتماعًا، ففي هذه البلاد نشأت الحضارات الأقدم في تاريخ الإنسانية مع النظم والأفكار الفلسفية والدينية، وشكل الوطن العربي دائرة العمق المتفاعل مع هذا المركز، ومن الوطن العربي انتقل هذا التأثير إلى جميع أنحاء العالم، ومن بلاد الشام انتقلت النظم والفلسفات القديمة، وفي بلاد الشام نشأت المسيحيّة وتطورت ومن ثم انتقلت إلى جميع أرجاء الدنيا، وتكرر هذا مع الإسلام العظيم، الذي نشأ أولاً في شبه جزيرة العرب، ومن بلاد الشام انتشر إلى جميع بقاع الأرض.

واعتمادًا على معطيات المكتشفات الأثرية، ولاسيما بعد التطور الذي ألم بعلم الآثار منذ تسعينات القرن الماضي تحقق بشكل مؤكد أن سكان هذه البلاد كانوا منذ الأزل مابرحوا عربًا، لهم عمقهم الإنساني، ومسحتهم العالمية، وقد تحقق هذا التلوين الجميل عن طريق قدوم عناصر بشرية من مختلف الأمم إلى هذه البلاد عبر العصور، وذوبانها في المجتمع العربي الشامي.

وفي الحقيقة امتازت بلاد الشام دومًا بالأصالة العربية وبالعطاء الإنساني، وبالتجربة القومية المنفتحة عالميًّا ،

وأبدعت هذه البلاد الكثير، وتلقت باستمرار تجارب غيرها فأعادت صياغتها، ومزجتها بأصالتها، ونقلتها إلى أمم الأرض، فهي بلاد مصنّعة ومنتجة ومبدعة، للأفكار والرجال، فنور الدين كان من حيث الأصل تركمانيّاً، لكن بلاد الشام صنعت منه بطلها المجاهد العربي الإسلامي، وكذلك كان الحال مع صلاح الدين فيما بعد، ومع بيبرس وغيرهم كثير.

ومثلما أثر الموقع على صنع تاريخ بلاد الشام، وعلى دورها، أسهم التركيب الطبيعي لهذه البلاد في هذا المجال كثيراً، فبلاد الشام إذا ماتجمعناها من الغرب نجد أولاً شريطاً ساحلياً ضيقاً ثم سلسلة من الجبال عالية، يليها وديان الأنهار الداخلية الكبرى، وأوجد هذا عدة أنماط حياتية، امتداداً من النمط الساحلي، إلى النمط الجبلي، فنمط المدن الحرفيّة التجارية والأرياف الزراعية، ثم نمط الحياة البدوية الرعوية المتنقلة، وهذه الأنماط المتنوعة منحت هذه البلاد القدرة على استقبال مختلف أنواع البشر الذين أرغمتهم الظروف على اللجوء إليها، وخير مثال نسوقه في التاريخ الحديث مثل الشركس، والأرمن، والأكراد.

ومن المقرر أن تاريخ بلاد الشام صنعه جميع أهل الشام متعاونين متمازجين اجتماعيّاً وثقافيّاً وحضاريّاً، لأن البادية في هذه البلاد والمناطق الجبلية فيها، لم تشكل ملاذات مغلقة وتحتفظ بأقليات متحجرة، مثلما حدث في بعض مناطق إيران مثلاً، لأنه عبر البادية كانت طرق التواصل مع الشرق والجنوب ومصر، وعبر الجبال كان التواصل المزدوج بين الداخل والساحل وعالم البحر المتوسط، ومع ذلك لايمكن للإنسان أن ينكر أن دول الجوار لوّنت بعض الشيء تاريخ بلاد الشام، ولاسيما من الجوانب السياسية، ذلك أن البلدان الواقعة إلى الشرق كانت قاريّة، استهدفت دوماً الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط، وأسهمت دول الجوار في تمزيق الوحدة السياسية لبلاد الشام، وعاشت بلاد الشام في كثير من الحقب في ظل آلام المتصارع عليه، لكن عندما كانت هذه البلاد تتوحد، كانت بلاد الشام تتسلم القياد وتصنع الإنجازات المحليّة والعربيّة والعالميّة، وتحقق هذا في العصر الأموي، وأيام صلاح الدين وبيبرس وقلاوون، ثم اضطرب الحال في العصر الحديث إلى أن جاء القائد حافظ الأسد فأعاد توحيد الشطر الأكبر من بلاد الشام اجتماعيّاً وسياسيّاً، وتعاون بشكل وحدوي فعال مع الأردن ولبنان فحقق إنجازات تاريخية كبرى، وفي هذا شاهد آخر على عبقريته وعلى مدى معرفته بالتاريخ والإفادة من دروسه.

بودي الاستطراد في هذا المقام أكثر

بالشرح، لكن لهذا مكان آخر، قد يتحقق من خلال إنشاء أكاديمية عليا للعلوم التاريخية والأثرية تتولى مهام التاريخ لبلاد الشام في الإطار المحلي والعربي والإنساني، وتتناول عصور ماقبل التاريخ، ثم العصور التاريخية حتى نهاية الحقبة الكلاسيكية، فعصور الإسلام حتى العصر الحديث، وأخيراً الحقبة المعاصرة، التي أميز ما فيها ماعشناه في ظل القيادة التاريخية للرئيس الأسد، وعلى هذه الأكاديمية الحفاظ على نقاء الهوية العربية، وإزالة زيف الإسرائيليات ودائها المتفشي وطرده إلى غير ما عودة.

وتبين لي من خلال التعامل الطويل مع أحداث قرني الحروب الصليبية، أن بلاد الشام لم تنل الفرصة حتى يتمكن العلماء فيها من استخلاص العبر من دروس هذه الحروب، لأن أهل الشام أرغموا على التصدي لمخاطر الغزو المغولي، وسعوا في تلك الأثناء إلى إنشاء منظمات شعبية ترث النظام العسكري المنهار للمماليك، ومقرر أن شعب دمشق هو الذي انتصر في معركة شقحب ضد جيوش غازان المغولي، وهذا الشعب هو نفسه الذي تصدى لتيمورلنك، وهو الذي أعاد بناء البلاد بعد انحسار آخر الأمواج المغولية العاتية، وكان أهل الشام إثر ذلك قاب قوسين أو أدنى من استلام السلطة، والحلول محل المماليك.

لكن هو القدر، حيث نجح العثمانيون في احتلال بلاد الشام، ثم مصر، وفي معركة مرج دابق انتقمت القسطنطينية التي جلس على عرشها امبراطور عثماني اعتمد على إدارة بيزنطية - لهزيمتها يوم اليرموك - ودار التاريخ دورة رهيبة، وعادت الشام ومصر ومناطق الوطن العربي تدار من القسطنطينية، كما كان الحال قبل حركة الفتوحات العربية الكبرى، ونجح العرب في منح الدولة العثمانية المسحة الحضارية العربية، حيث زال عنها الأثر البيزنطي، وحل الإداريون العرب والعلماء العرب الذين أخذهم العثمانيون إلى القسطنطينية محل البيزنطيين، وفي مطلع القرن الماضي عندما تغلب يهود الدونمة، واستولوا على مقاليد السلطة في القسطنطينية، ونادوا بالتتريك والقومية الطورانية، تصدى أحرار بلاد الشام لهم، فكانت النهضة العربية الحديثة، وصارت بلاد الشام على حافة الانفجار الثوري، ونظر الثوار العرب من حولهم فلم يجدوا: لا معاوية، ولا عبد الملك، ولا الوليد، ولا سيف الدولة، ولا صالح بن مرداس، ووجدوا فقط «شريف مكة العثماني» صاحب مكماهون - وأولاده الذين تلبسوا بالرغبة بالملك، وفق طريقة الأيوبيين الذين فرطوا بالقدس بعد صلاح الدين، لقد أراد كل منهم الملك مهما كان الثمن، على حساب الأب، على حساب الأمة، خيانة وعمالة وطغيان، لابأس بذلك

فالمهم الوصول إلى الملك والبقاء فيه، مع التذرع بحكاية النسب الشريف مع أن الله تعالى خاطب النبي نوح عليه السلام حين التمس منه أنقاذ ابنه بقوله: «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح» ونهى عن الاستغفار «للمشركين ولو كانوا أولي قربى» وكل من يؤجر نفسه للاستعمار والمستعمرين يصير منهم.

وفي ظل هؤلاء الأدعياء، وإثر نجاح مايعرف بالثورة العربية الكبرى، مزقت أشلاء بلاد الشام شر ممزق، فانتزعت منها ولاية الجزيرة بما فيها الموصل، وعانت من الحركات العنصرية مالم تعانه ديار في الدنيا، وإذا سلمنا أن أخطر عنصريات التاريخ الإنساني الحديث وأكثرها ضررا هي: الطورانية، والصهيونية، والنازية، والفاشستية، فأهل الشام عانوا من هذه العنصريات أكثر من أي مجموعة أخرى من بني البشر: اقتطعت الطورانية أنطاكية والاسكندرونة، والرها ونصيبين، وحران وماردين وغير ذلك، واقتطعت الصهيونية فلسطين (بجمع بين الصهاينة والطورانيين عقيدة الدونمة والانحدار من أصل خزري - غزّي واحد) وأهل الشام هم الذين دفعوا ثمن آثار النازية وجرائمها في أوروبا.

وهكذا عاش أهل الشام في ظلام حقبة لا أطول ولا أحلك ولا أمرّ، ومع هذا ازدادوا اصرارًا على الوحدة والتحرير، وأثناء النضال ضد الاستعمار الفرنسي، أسهم الشاميّون في ثورات العراق، وحركات التحرر في مصر والمغرب العربي، وقاتل ثوارهم في الغوطة وجبل الزاوية، وجبال اللاذقية، وروابي فلسطين، وأسماء الشهداء جلّها معروف ومدوّن، وتحقق الاستقلال بفضل النضال الشعبي، لكن لسوء الطالع تسلم القيادة بقايا أسر الإقطاع العثمانية، مع ما عرف باسم «البورجوازية السورية»، واتسم هؤلاء بقصر النظر والضعف والتخاذل، وتصرفوا وفق عقلية السماسرة والمقاولين، ولذلك عشنا الصراع على سوريا، وعصر الانقلابات.

وقامت الوحدة مع مصر، وجاءت نتيجة لزخم شعبي لامثيل له في أرض الشام، لكن لسوء الحظ، لم يكن هناك ما يكافئه في أرض الكنانة، ولذلك تحولت الوحدة إلى حكم فرد وتسلط، وإدارة بوليسية، وأعلام موجه نحو عبادة الفرد، وليس نحو أهداف الجماهير، لأنه كان من شروط الوحدة إلغاء الأحزاب، أو بالحري إلغاء حزب البعث العربي الإشتراكي، الذي قاد نضال الجماهير على أرض الشام.

واستعانت سلطات الوحدة ببقايا البورجوازية السورية، التي استغلت الأخطاء، وتعاملت مع الخارج، فكان الانفصال الذي لم يشارك في صنعه بعثي واحد، وأرادت البورجوازية التحكم مجددًا

بدمشق، وأخفقت من جديد، وحبطت أعمالها، وسقطت يوم الثامن من آذار عام ١٩٦٣م، وسعت الثورة إلى إعادة تحقيق الوحدة، فلم تتوفق بالتغلب على الفردية، وقام عدوان عام ١٩٦٧م، وتتالت الانتكاسات، وتسللت العقليات المناورة، أو التي بلا تجربة أو خبرة، أو إيمان، أو معرفة بتاريخ هذه الأمة، إلى السلطة، وكانت هناك بارقة أمل مع حركة ٢٣شباط، لكن العقلية المناورة عادت إلى التحكم، مع مزيد من الانغلاق، واستيقظت من جديد نعرات بغيضة.

وكنت قد عشت منذ عام ١٩٦٥ في لندن أحضر لشهادة الدكتوراه، ثم عدت أواخر عام ١٩٦٩، حيث شهدت وتعرفت من جديد إلى أوضاع البلاد، وبت في كل يوم أسمع خبراً وإشاعة، وشعرت «أن خلل الرماد وميض نار»، وأن هذا الوميض «يوشك أن يكون له ضراماً».

وصرت أسمع كثيراً اسم «حافظ الأسد»، وتملكني شعور صادق اقتبسته من مشاعر الشعب أن الأمل هنا، وأن صلاح الدين قريب الوصول، وأن الشعب الذي انتظر منذ أيام سيف الدولة، مجيء قائد تاريخي عربي أصيل من بين صفوفه لن ينتظر كثيراً، فلقد دنت ساعة الفرج، وجاء فجر السادس عشر من تشرين، ونجحت حركة التصحيح، وعشت - مثلما عاش كل مواطن - أفراح مابعد التصحيح، وتتبعت أخبار البهجة في كل مدينة زارها القائد الأسد آنذاك، وتسارعت الأحداث، وأدرك الشعب تمام الإدراك أن القائد التاريخي العربي الذي انتظره قرابة العشرة قرون قد خرج من بين صفوفه فارساً يعربيّاً أصيلاً، ترقى به الأعراق إلى زُفر بن الحارث الكلابي، وإلى صالح بن مرداس، وإلى ذات الهمة والبطال، وإلى الشعب العربي الأصيل، وليس إلى المستعربين.

«القائد التاريخي» حكاية طويلة فيها من رعاية الذات، مكارم مواريث آل مرداس، حين تفردوا فأحاطوا العلم والعلماء والشعراء بالرعاية، نعم بنو مرداس هم الذين رعوا المعري وأكرموه، واللقاء بين المعري وصالح بن مرداس صورة حضارية لانظير لها، لذلك لاعجب أن بني مرداس وحدهم في التاريخ العربي، هم الذين منحوا كل شاعر متميز لديهم لقب أمير.

وصلتي مع فلسفة «القائد التاريخي» عميقة: النقطة العلامة فيها سيرة النبي المصطفى (صلعم) وشمائله، وفيها خلفاء النبي والأئمة، وآل البيت وأبطال ورجال قدمتهم أمتي للإنسانية طيلة أكثر من ألف عام، فلقد ظلت الحضارة العربية الاسلامية تعطي البشرية أكثر من ألف عام، وعندما تولى غير العرب قيادة الحضارة أعطوا بني البشر: الاستعمار،

والتلوث، والاستغلال، والتمييز العنصري، والكيل بمعايير مزدوجة لا أخلاقية، والأسلحة النووية، والايدز وغير ذلك من الآثام الكثير، وذلك في مدّة لم تتجاوز القرنين، مع حروب كونية كلها رعب وهول.

والحديث عن القائد التاريخي ممتع، لايدخل في إطار الحديث عن عبادة البطل الفرد، لأن القائد التاريخي وإن كان بطلاً، هو ليس حاكماً فرداً، إنه صاحب رسالة، مثلما الأئمة التاريخيين، الذين صدرت رسالتهم عن رسالة السماء التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه المصطفى، فختم بها بلسان عربي مبين رسائل الأنبياء، قبله صلى الله عليه وسلم منذ آدم عليه السلام.

وترتبط حياة الرسل بالمعجزات، وحياة الأئمة بالكرامات، والكرامة أخت المعجزة، وعلى هذا الأساس يمكن أن أفقه ما حدث في سورية حين زالت الطائفية إلى ما غير عودة، وتحققت وحدة المجتمع . لا على أساس التعايش والتوازن، بل على أساس الاندماج، ولم تعد سورية البلد المصطرع عليه، بل البلد المسهم في الصراع من أجل البناء والوحدة والتحرير، وهكذا تحول الجيش خلال ثلاث سنوات من جيوش إلى جيش عقائدي، عالي التدريب والانضباط، مستوعب للسلاح، إرادة المقاتلين فيه حرة، يشعر كل منهم بالظهير الشعبي، وبمتعة أداء الرسالة، وكانت أولى المحصلات حرب تشرين التحريرية، وحرب الاستنزاف، والتصدي للمؤامرات وصيانة لبنان، ورفض كامب ديفيد، والوقوف ضد الحرب الاستعمارية ٨٢ - ٨٣، حين اجتمعت جيوش وأساطيل الغرب وأمريكا والصهيونية ضدنا.

لقد ناضل هذا الشعب طوال قرون عديدة حتى التقى بقائده التاريخي، ولقد دعا كل واحد من أمتي خلال القرون المديدة حتى يأتي من يجدد له دينه وحياته، وجاءت الاستجابة من رب العزة، والله تعالى وحده قادر على أن يقول للشيء: كن فيكون، أما أساطيل العدوان فعاجزة أمام إرادة الله، ومقرر أن صوت الشعب هو صوت الحق، ولم تجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم قط على ضلالة، وهي قد أجمعت على أن حافظ الأسد كان قائد الجماهير العربية والمسلمة بلا منازع.

قبل الحركة التصحيحة كانت سورية جمهورية مفتقرة إلى سمات الدولة، فقدت في سنوات قلائل دولة، دولة عربية نموذجية، تصلح نواة لدولة الوحدة الكبرى، فسورية جزء من بلاد الشام، وبلاد الشام بعض من الوطن العربي الكبير.

وقبل الاستطراد في الحديث عن بعض منجزات عهد القائد الأسد، أجد من الضروري معاودة الوقوف مجدداً للحديث أكثر عن فلسفة القائد التاريخي:

شغلت ظاهرة القائد التاريخي المؤرخين والفلاسفة، وهناك اجماع على أن شخصيته تشكل استثناء متميزاً، وظاهرة حددت سماتها الجماهير قبل ظهورها، وقبل وصولها إلى السلطة بزمن، وبناء عليه تملكت نفوذها على الجماهير وتأثيرها لأنها أملها ونمطها الذي صاغته من خلال حاجاتها، ولهذا يبقى القائد التاريخي مع الجماهير، لا يبرحها ملتصقاً بها، ومدافعاً عن قضاياها وحامياً لها، ومقرراً أن الدور السلطوي هو غير الدور القيادي الشامل، ففي القيادة التاريخية قضية عظمى ونضال فعّال وجماهير ومواقف، وفي السلطة تنفيذ لتوجيهات القائد، ومع هذا قد تلتقي السلطة مع القيادة وتتحد في بطل واحد، ووقتذاك يكون الإنجاز محولاً وهاماً جداً.

والقادة التاريخيون نُدرة، وإن أطلق كثير من الحكام على أنفسهم لقب القائد، والقائد رجل حكيم مخطط، استراتيجي، فيه مروءة وكرم وشجاعة، ليس فيه ضغينة، يؤثر على نفسه، ويوقف ذاته كلياً على قضايا أمته، فيه بعد انساني، يجمع بين الدماثة والمضاء، لايعرف غير الصعود، يتماشى مع تطورات الأيام، أو بالحري يقود التطورات، يرتقي من ذروة إلى أخرى أعلى حتى لا ينزلق، هو صادق وأمين وصريح، يستوعب الآخرين ويجمع الشتات، ليس سلطوياً بل صاحب رسالة، يتخرج من بين الجماهير، ومن خلال نضالها، ولذلك يظل مرتبطاً بالجماهير، والإجماع الجماهيري هو دستور القائد التاريخي ومرشده.

ومنذ قرون طوال لم تجمع الجماهير في أرض الشام، وفي الوطن العربي إلاّ على القائد التاريخي حافظ الأسد، ولأن الأسد قائد تاريخي جاء نسيج وحده، فيه جميع السمات التي تطلع إليها العربي دوماً في قائده، قال الشاعر لقيط بن يعمر الأيادي لقومه:

فقلدوا أمركم للّه دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعاً
مسّهد النوم تعنيه ثغوركمْ
يؤم منها إلى الأعداء مطلعاً
ماانفك يحلب در الدهر أشطره
يكون متبعاً طوراً ومتبعاً

والقائد العربي هو من:

قوم إذا اشتجر القنا
جعلوا القلوب لها مسالك
اللابسين قلوبهم
فوق الدروع لدفع ذلك

وهو أيضًا من قوم شعارهم:

الموت غايتنا فلا

قصر ولاعنه جماح

وكأنما ورد المنية

عندنا ماء وراح

«وهالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لاينجي من القدر، ولكن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور خير منه في الأعجاز والظهور».

والقائد العربي هو:

حمال ألوية شهاد أندية

قوال محكمة جواب آفاق

وهو أيضًا كما قالت الخنساء:

رفيع العماد طويل النجاد

ساد عشيرته أمردا

وصحيح أن الحديث في هذا الباب غني وممتع، وهو والحق يقال يحتاج إلى إفراده في دراسات خاصة، ولعله يفيدنا الآن ويكفينا أن نتذكر أن القائد الأسد ولد في القرداحة في ليلة القدر من عام ١٩٣٠ من أسرة نضالية عربية أصيلة، ترقى بها الأعراق إلى قبيلة بني كلاب، وقد اهتم والداه بتعليمه، وقرأ القرآن الكريم منذ صغره، ولعله حفظه، والقرداحة في ذرى الجبل الأشم ابنة أجاريت (الجرية- البلدة او المدينة) مثلما كانت قرطاج ابنة صور، فمعنى اسم القرداحة (القرية الحديثة) ومن قرطاج (القرية الحديثة) خرج هانيبال، ومن ابنه أجاريت خرج القائد الكبير حافظ الأسد. وفيها أمضى سنواته الأولى ثم انتقل منها إلى اللاذقية الوارثة لأمجاد أجاريت، وفي اللاذقية التحق بمدرستها الثانوية، وحدثني بعض رفاقه في المدرسة أنه امتلك المؤهلات القيادية، وكان المرجع لهم والملاذ دومًا، وبعد نيله الشهادة الثانوية أراد أن يدرس الطب، فلم يستطع لأسباب مادية، فالتحق بالكلية الجويّة وتخرج ضابطًا طيّارًا.

وكان القائد الأسد من أوائل الذين انتموا إلى حزب البعث العربي الاشتراكي ومن ثم تسلم طوال عمره قيادة رفاقه في المدرسة وفي المراحل اللاحقة، وقد تميز بين الضباط في سلاح الطيران، وتفوق في جميع الدورات التدريبية، وخدم في مصر أيام الوحدة، وأعاد تنظيم الضباط البعثيين هناك. وبعد الانفصال جرى تسريحه من الجيش، ولقد شارك بدور قيادي فعّال في الإعداد لثورة الثامن من آذار، وتمكن يوم الثورة بمفرده من السيطرة على قاعدة الضمير الجوية، وبهذا ضمن للثورة النجاح المؤكد.

وناضل مع رفاقه من خلال الثورة، وسعى دومًا إلى لم الشمل، ورأب الصدوع،

وظل كذلك حتى قاد الحركة التصحيحية المباركة، واستطاع كما أشرنا من قبل خلال سنوات ثلاث من عمر الحركة التصحيحية المجيدة، أن يعيد اللحمة إلى المجتمع وإلى الجيش، وخاض حرب رمضان التحريرية، وقضى على الفتن المدبرة من الخارج لا سيما فتنة الأخوان المسلمين، ثم تدخل لإنقاذ لبنان، وكان في انقاذه للبنان إنقاذاً لسورية.

وامتد عهد القائد الأسد ثلاثة عقود من الزمن، جاءت من حيث التقسيم الدستوري على أربع مراحل:

وتعد المرحلة الدستورية الأولى، او السنوات السبع الأولى من حكم قائدنا التاريخي الرئيس الأسد سنوات عصيبة، ومع ذلك شهدت انجازات لا يمكن للدهر ان يمحوها، فقد بدأت سورية تشهد مخاضاً اجتماعياًجديداً، ودّعت فيه التوازنات الطائفية والإقليمية، أو ما يسميه بعضهم التعايش بين الفئات إلى غير ما رجعة، وخطت نحو الاندماج، وإلى إزالة كل الحواجز، إذا كان قد بقي حواجز، اندماج قوامه الجبهة الوطنية التقدمية، ومجلس الشعب، والتحضير للإدارة المحلية، وبدأت سورية تأخذ المظهر الفعلي للدولة، ولم تعد البلد المتنازع عليه من قبل الجوار وسواهم، ولا البلد المتنازع على السلطة فيه، فبعدما عرف الشعب قائده التاريخي بدأت مسيرة الاستقرار، والإنتاج وما زالت مستمرة، وستبقى بمشيئة الله، هذا بإيجاز على الصعيد الداخلي.

أما على الصعيد العربي: فقد جرت آنذاك محاولات حثيثة لنهضة عربية، ولجمع الشمل العربي والإرادة العربية مجدداً، وتركزت الجهود باتجاه مصر، الشريك التاريخي الدائم لبلاد الشام، وشريك محنة عام ١٩٦٧، واستطاع القائد الأسد أن يقنع الرئيس السادات بضرورة العمل في سبيل القيام بعمل تحريري ضد إسرائيل في أسرع وقت ممكن، بهدف تحرير الأرض والكرامة، ولإزالة أسطورة العدو الصهيوني الذي لايقهر، واحتاج هذا إلى جهود عظيمة جداً، وعمل متواصل في الليل والنهار، لقد احتاج الأمر إلى إعادة توحيد الجيش في سورية وإلى تطويره وإلى التدريب المتواصل، والاستعداد المستمر للمعركة، وإلى تزويده بالأسلحة المتطورة، والقيام بوضع الخطط اللازمة ليوم التحرير، كل ذلك ضمن تكتم كبير، لكسب عامل المفاجأة في اليوم المَوْعِود، وفي خلال سنوات ثلاث، حدثت معجزة توحيد الجيش، وتوحيد المجتمع وأمكن للجيش استيعاب السلاح الجديد، وبات جاهزاً للقيام بمهامه، يتحرك بذكاء وفعاليّة ويغرر بالعدو، ويربكه، وكانت حرب تشرين العظيمة، والحديث عن حرب تشرين مديد،

وعن نتائج تشرين يحلو الحديث، ويكفينا أن نقول: إننا منذ تشرين وإلى اليوم، ونحن نحتفل بالإنجازات، ويقوم العدو بإقامة المناحات لما حدث، هذا العدو الذي لم ينل منذ تشرين طعم الاستقرار، ولم ينعم بالأمن، مع إنه حصل بعد تشرين - كما هو معلوم - على معطيات «كامب ديفيد» وبعد ذلك على أوسلو ثم على وادي عربة، وما لا يحصى من التنازلات، وحاول الانتقام من تشرين في لبنان، وفي أكثر من مكان، إنما بلا استقرار: العنف يزداد في داخل هذا الكيان المصطنع، والزلزال تلو الزلزال يهز أركانه بشكل متواصل، وزارة تسقط تلو الأخرى، ودور يأتي ومعه وجه قيادي جديد، ودور يذهب، ومعه سقوط للوجه القيادي مع اتهامات واختلاسات وفضائح، في حين أن عملية الاستقرار وعملية البناء استمرت لدينا، ففي سورية التي خاضت حرب تشرين للتحرير لا للتحريك استمرت الإنجازات، على الرغم من تخاذل السادات، والانتكاسات التي شهدتها الساحة العربية، من زيارة السادات للقدس إلى كامب ديفيد، إلى ما نحن شهوده، وتحملت سورية تشرين التحرير حرب الاستنزاف، ودخلت إلى لبنان لتصونه من الطائفية، ومن التمزق، ومن التبعية لاسرائيل، وحين كانت سورية تصون لبنان تمكنت من صيانة ذاتها من جرائم العملاء وبقي الخطاب التاريخي الإسلامي للقائد الأسد واضحًا تمام الوضوح، جوهره التمسك بالإسلام الصحيح، والرفض المطلق للمتاجرة بالإسلام والإرهاب باسم الاسلام، والحرص على علاقات داخلية فيما بين المسلمين وغير المسلمين، علاقات كلها ود وتسامح وتعاون وانسجام، وبالوقت ذاته الحرص على إبقاء الجسور ممدودة مع بلدان العالم الإسلامي أجمع، ولاسيما مع كل من باكستان وإيران.

وفي الحقيقة كان هناك تداخل فيما بين الحقبة الدستورية الأولى والثانية، فقد استمرت في الثانية الأزمة اللبنانية، واستعصلت في كثير من الجوانب،ولم تستطع أية قوة من القوى أن تزيل قائدنا التاريخي من موقفه القومي المتوازن، فهو مع لبنان كل لبنان، وليس مع طائفة دون أخرى، فأهل لبنان جزء لا يتجزأ من الشعب العربي في سورية، الذي هو بدوره جزء لايتجزأ من الأمة العربية، وكما أنه لا اعتراف بالطائفية في سورية، لا اعتراف بأمراض الطائفية والإقليمية والعشائرية في لبنان.

وأحبط أخيرًا المشروع الصهيوني في لبنان، وأخفق التحالف الغربي في الحرب الاستعمارية الغربية عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣، وخرج المارينز وحلفاء المارينز مدحورين من لبنان، وسقط اتفاق ١٧ أيار، وكان سقوطه أول ضربة قاتلة لسايكس

القائد التاريخي للأمة العربية

بيكو. وبات لبنان كتلة جهادية بنادقه ضد الصهاينة وأعداء الأمة. وانتقلت هذه الروح الجهادية إلى فلسطين المحتلة، فكانت ثورات أطفال الحجارة ثم قيام حماس وكتائب عز الدين القسام وسواها، واستعد لبنان في الوقت نفسه لخوض تجربة البناء والاستقرار، ولم تتوقف سورية أثناء ذلك كله عن تقديم كل المساعدات، فدائمًا الأخ الكبير يحنو على - الأخ الصغير ويرعاه. وستظل العلاقة فيما بين لبنان وسورية علاقة أخوّية.

وفي أثناء ذلك كله امتلكت القيادة التاريخية للرئيس الأسد وضوح الرؤية تجاه الحرب في محاولة لاغتصاب الكويت، وتشريد شعب هذا البلد الشقيق، ففي هذه الحرب كان تقديم التسويغ لما قامت به اسرائيل من تشريد لشعب فلسطين.

استمرت في سورية مسيرة البناء الشاملة والاستقرار الذي لا نظير له، والتطور الديمقراطي العقلاني المتوازن، والنماء الاقتصادي، فقد بنيت عشرات السدود، وخاضت سورية معركة الأمن المائي بكل نجاح اعتمادًا على الذات، وصارت البلاد تمتلك شبكة استراتيجية من الطرق، وجرى تطوير الجامعات وإحداث جامعات جديدة، وتأمين الكوادر اللازمة، وتضاعف عدد المدارس عدة مرات، وتضاعفت أعداد الطلبة في كل المراحل، وظل التعليم مجانيًا وللجميع، وتطورت الصناعة. وصارت سورية هي البلد العربي الوحيد الذي ينتج من القمح والحبوب ما يؤمن كفايتها ويحقق الأمن الغذائي.

وازدادت أعداد المشافي والمعامل، وشهدت البلاد مسيرة ازدهار اقتصادي واعدة، على الرغم من الحصارات غير المعلنة ضدنا.

كل هذا والجهد مستمر لجمع الشمل العربي، ومواكبة التطورات العالمية، فبين أواخر المرحلة الثالثة وفي المرحلة الرابعة التي عشنا أيامها كلها، كان انهيار الاتحاد السوفييتي، وانتهاء الحرب الباردة، وأعلنت أمريكا عن زعامتها للعالم، وأنها الوريث للامبراطورية البريطانية، التي لم تكن الشمس تغيب عن أطرافها، وذلك مع الامبراطوريات الاستعمارية الغربية الأخرى، ولم تتأثر سورية بانهيار حليفها الاستراتيجي، وأجادت التعامل مع الاستعمار الجديد، الذي أعلن أنه يريد فرض العولمة، وأنه يريد تطبيق مفاهيمه عن الحرية والديمقراطية، لكن بوساطة الصاروخ وطائرات الشبح وأحدث الأسلحة المدمرة.

والمثير للدهشة أن هذه الدولة العظمى سمحت داخليًا لمواطنيها بالتنافس الديمقراطي، لكنها لم تسمح بذلك فيما

بين الدول والشعوب، وتحدثت دومًا عن مصالحها، وتجاهلت تمامًا مصالح الشعوب، وسيطرت على مجلس الأمن وسخرته لأهوائها، ولجأت دومًا إلى القوة المدمرة، واستنزفت طاقات الأمة العربية وأموالها، وصدرت إلينا الإسلام الإرهابي الذي صنعته ثم دمرته في أفغانستان.

واستطاع القائد التاريخي، أن يقلل إلى أبعد الحدود من هذا الأذى الذي لايعرف حدودًا ولا ضوابط، وتمكن من ضبط الأمور، ومن ثم الاستمرار في مسيرة الاستقرار والنماء، وظل ثابتًا في مواقفه تجاه إسرائيل، ولم يتنازل قط، وفي عصر التنازلات أمام إسرائيل والولايات المتحدة، فقط سورية حافظت على الشرف العربي، وعلى كرامة الماضي، وضمان عدالة الحاضر والمستقبل، وهذا الموقف هو الذي ساند - وما يزال يساند - رفض التطبيع مع العدو في كل مكان من الوطن العربي، وبات القائد الأسد وحده الضامن للهوية العربية ولأول مرة في تاريخ العرب الحديث كان هو الزعيم العربي الذي امتلك شرعية الجماهير العربية عن قناعة كاملة، لا عن عاطفة وانفعال.

وفي واقع الأمر عندما نتناول المراحل الدستورية الأربع التي مرت، نجد القائد الأسد قد وصل في نهاية كل مرحلة إلى ذروة شامخة على الصعد العربية والداخلية والإسلامية والعالمية، وهوبحكم مواكبته للتطور وللتقدم لم يركبه الغرور ليخلد إلى النجاحات، بل ثابر على التقدم والعطاء، وهكذا كانت كل ذروة بالنسبة له قاعدة للانطلاق نحو ذروة جديدة، أيضًا متطورة متجددة موائمة دومًا لمقتضيات التطور السياسي والاجتماعي لعالمنا الذي ودع قرنًا عجيبًا في التاريخ، هو القرن الذي شهد ذروة الاستعمار وزواله، وفيه كانت الحرب الكونية الأولى، ثم الثانية، وبعد ذلك الحرب الباردة والتبدل في القوى، وتعقد الصراع ضد إسرائيل، وكنا قد دخلنا في أواخر القرن الماضي إلى عصر المعلوماتية ومن ثم أخذنا طريقنا نحو مرحلة تالية كنّا نتمنى من الله تعالى أن تتلوها مراحل أخرى، وأن يمد الله في عمر قائدنا التاريخي، ويمنحه القوة للاستمرار في حمل الرسالة، لكن إرادة الله كانت أقوى من أمانينا.

من غير الممكن أن نفي في مقال واحد ذكر الإنجازات العملاقة التي نعمنا بها، وبحكم الاختصاص أقول: إن الحاجة قائمة لتوثيق هذا العصر بشكل علمي، وعلى العموم نلاحظ:

لقد نعم الناس خلال العقود الثلاثة الماضية بالاستقرار والأمن، وتطلعوا إلى السلم الاجتماعي الكامل، وإلى النمو الاقتصادي المتواصل، وإلى السلام والوحدة

وإلغاء التخلف، ومواكبة مسيرة العصر، وتطلع الشعب بلهفة إلى الاستمرارية، ومثلما اكتشف يوم التصحيح قائده التاريخي، رأى شروط الاستمرار متوفرة في الباسل، النجل الأكبر للسيد الرئيس، وخلال حقبة قصيرة بات الباسل مالئ الدنيا وشاغل الناس، لقد بات هوية متميزة، وإن كانت متينة الروابط وعميقة الجذور، وقوية الأواصر بالمدرسة التي تخرجت منها.

وبخلاف صلاح الدين نعم القائد الأسد بالزواج من سيدة عربية مؤمنة أصيلة وفاضلة، اتسم أولادها جميعًا بالنجابة، وحسن الخلق، والاستقامة، والتواضع، وقد اتخذوا من أبيهم مثلهم الأعلى، ومقرر أن الذي ينجح في بناء أسرة صحيحة، ينجح في قيادة شعبه. وكان كلما ازداد الباسل تألقًا كلما عظمت أحلام المستقبل، وازدادت الطمأنينة على الوطن وعلى الأولاد، وعلى الرسالة وعلى التحرير، والحضارة، وعلى أمانة الماضي وتطلعات المستقبل، لكن لا مرد لقضاء الله، قضى الباسل شهيدًا، فصنع بشهادته آخر الملاحم من جلجامش، إلى كربلاء وذات الهمة، وعنترة وحمزة البهلوان والملك الظاهر، ومثلما تفجرت المآقي تفجرت الأقلام، وكتبت شعرًا ونثرًا عن الباسل.

وكنت قد شهدت عشية الفاجعة شباب وفتيات جيل الباسل يندفعون بحزن عميق وعفوية مطلقة نحو سفوح قاسيون لتوديع الباسل، وكان الوقت - كما نعلم - شتاءً، البرد فيه شديد ومع هذا شاهدت الفتيان والفتيات يندفعون بملابس خفيفة، وبأحذية وبدون أحذية، أنستهم النازلة أنفسهم.

وشهدت في اليوم التالي - في الطريق إلى القرداحة، أمواجًا من شعبي، جاءت من جبل لبنان ومن كل مكان في وطني، لقد شعرت وقتها أن أمتي عادت فاتحدت، مشاهد لن أنساها، لن أنسى مطلقًا صورة القائد رحمه الله وهو داخل إلى حرم المسجد ليصلي على الباسل، يا لهول تلك الساعة، وفي اليوم التالي صافحته معزيًا، فإذا به هو الذي يعزيني، وفي هذا مصداق لما قلته: غدا الباسل هوية، امتلكها كل مواطن، وفقدانه كان فاجعة لكل مواطن، والقائد التاريخي، وإن كان الأول في الخسارة، لكن ريادته ورسالته رقت لتقديم التعازي لمواطنيه، وهذا ما حصل، وكلنا يذكر حديثه رحمه الله ورسالته إلى مواطنيه.

وما أن قضى الباسل شهيدًا، حتى أخذ الراية الدكتور بشار، فأظهر عبقرية فريدة، وأعدّ نفسه بزمن قياسي لحمل أعباء المسؤولية، وعندما فوجئ العالم بوفاة قائدنا الأسد، بادر كل مواطن إلى بيعته، لذلك لم نشعر بوجود فراغ، نعم لقد

القائد التاريخي للأمة العربية

فجعنا، وحق لنا ذلك، فعلى الأسد لتبك البواكي، ولتتدفق الدموع من دون توقف، ذلك أنه عاش حميداً رشيداً، فلقد كان عظيم الفهم، كثير الحلم، رفيع العماد، واري الزناد، منيع الحريم، سليم الأديم، ولقد كان في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل والمحتاجين عطوفاً، وعن الفحشاء عفيفاً.

أسأل الله الذي فجعنا بفقدان القائد الأسد، وابتلانا بفراقه، أن يغفر له يوم الحشر، وأن يفسح له في القبر، وأن يجعل سبيل الخير سبيل الرئيس الدكتور بشار، ودليل الرشاد دليله، وأن يمنحه التوفيق، وأن يكون عونه في حمل الأعباء، وأن يصونه، ففي صونه الأمن والأمان، وأن يمدّ الله بعمره، ففي ذلك وفاء بعهده بجعل بلاد الشام العاصم من الفتن.



مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

القدس
عاصمة الثقافة العربية
Capital of Arab Culture
al-QUDS
2009

العدد (113) (ربيع الأول) 1430هـ (آذار) 2009 السنة التاسعة والعشرون

بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة

أ. د. سهيل زكّار



١ــ دخل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مدينة القدس في أواخر شهر ربيع الأول (١٧هـ/٦٣٩م). دخلها راجلاً يقود زمام ناقته، وقد ركب عليها غلامه لأنّ نوبته بالرّكوب تواءمت مع ساعة الدّخول، وبعدما تجوّل بين معالم المدينة يقوده البطريرك صفرونيوس، رفض مصادرة أيّة كنيسة أو مكان من أمكنة أهل الذّمة، واختطّ المسجد العمري في القدس، وأمضى صلح المدينة المقدّسة بنفسه[1]. وأوقف قدوم عمر إلى القدس نزيف الدّماء وصان المدينة وأماكنها المقدّسة من الدّمار.

من الجانب العسكري كانت مدينة القدس قبل أن يقدم إليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ساقطة عسكريّاً، ليس لها سلطانٌ شرعي، ذلك أنّ السّلطة في بلاد الشّام آلت بحقّ الفتح إلى العرب المسلمين.

---

(١) فتوح البلدان: ١٤٤ ــ ١٤٥. الأزدي: ٢٥ ــ ٢٦٢. ابن حبيش: ٣٠٧/١ ــ ٣١٢. الأنس الجليل: ٢٥١/١ ــ ٢٥٧. الدّبس: ٦٩/٥ ــ ٧٠. تاريخ سعيد بن البطريق ١٩ ــ ٢٠. The Theophanes.

وقدم عمر إلى القدس ليتسلم السّلطات في القدس رسمياً وفعليّاً، مقتدياً بما فعله النبيّ عليه الصّلاة والسلام يوم فتح مكة، وليؤكد للناس جميعاً على المكانة السامية لبيت المقدس لدى العرب المسلمين، فهي عندهم أولى القبلتين وثالث حرم بالقداسة بعد مكة والمدينة. لكن على الرّغم من المكانة السّامية التي ينظر بها العرب المسلمون إلى القدس، فإن هذه المدينة فقدت مكانتها السّياسية التي حظيت بها قبل الإسلام، وظلّت محافظة على مكانتها الدينيّة، فلقد أبدلت حركة الفتوحات العربيّة لبلاد الشّام الجغرافية السياسية لهذه البلاد. فقبل الإسلام كانت مدن: أنطاكية، وقنسرين والرّها، والقدس، هي المدن الأولى، لكن بعد الفتوح تقدّمت دمشق في الجنوب تقدماً كبيراً، وتراجعت قنسرين تراجعاً كبيراً، وكذلك الرّها وأنطاكية. وتقدّمت حلب لتحتلّ مكانة الوجاهة في الشمال في مقابلة دمشق. فحول حلب ودمشق حيكت أحداث تاريخ بلاد الشام في الإسلام إلى أبعد الحدود.

بدخول عمر بن الخطاب إلى مدينة القدس انتهت حقبة من عدم الاستقرار السياسي والمظالم الدّينية الكنسيّة التي مارسها أباطرة بيزنطة ضد الذين خالفوهم بالمعتقد الكنسي، وتبرهن للنّاس أجمع أن المسلمين أقدر الناس على حماية أماكن العبادات وصيانة المقدّسات، فحرية المعتقد التزم بها المسلمون دون سواهم.

لقد حرم فتح بلاد الشام الإمبراطوريّة البيزنطيّة من مسوّغاتها الدينية في أنّ الإمبراطور البيزنطي هو نائب المسيح على الأرض، وحامي الأماكن المسيحيّة المقدّسة، لا سيما كنيسة القيامة في القدس. وانتزع من بيزنطة أملاكها في آسيا وأفريقية، وأعادها دولة أوربيّة محضة إلى أبعد الحدود، الأمر الذي عنى فتح صفحة جديدة من تاريخ الإمبراطوريّة الرومانية الشرقية وفي علاقات أوربا بالشرق.

وبعد فتح القدس فتح المسلمون الثغور البحريّة التي بقيت مستعصية على السّاحل الشامي مثل: طرابلس، وقيساريّة، وعسقلان[1].

بعدما أكمل العرب فتح بلاد الشام غيّروا تسميتها وتقسيماتها الإداريّة، فباتت البلاد تُعرف باسم بلاد الشّام أو الشّامات كما يسمّيها خليفة بن خيّاط[2]. ولم تعد تُعرف باسم سورية، وصارت حدود بلاد الشام هذه: البحر المتوسّط من الغرب، والبادية الممتدة من عقبة ايلة حتى أعالي الفرات شرقاً، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، وممّا يلي بيزنطة ما بات يُعرف باسم الثّغور.

وكانت بلاد الشام مقسّمة في العصر البيزنطي ما قبل الفتح العربي الإسلامي إلى عدّة مناطق إداريّة هي:

١ ــ سورية الأولى وقد انقسمت إلى قسمين هي:

---

(١) ابن حبيش: ٣١٤/١ ــ ٣٢٨. الأزدي: ٢٧٦ ــ ٢٨٣. فتوح البلدان: ١٤٦.

(٢) تاريخ خليفة: ١٥٧/١.



ــ سورية الأولى ومركزها أنطاكية ومن مدنها الرّئيسة: سلوقية، واللاذقيّة، وجبلة، وحلب.
ــ سورية الثانية أو سورية المجوّفة، ومركزها مدينة أفاميا وتبع لها: حماة، والرّستين، وشيزر.
٢ ــ فينيقيا وقُسّمت بدورها إلى قسمين هما:
ــ فينيقيا الأولى ومركزها صُور والمدن الرئيسة في هذا القسم: عكّا، وصيدا، وبيروت، وطرابلس، وأرواد.
ــ فينيقيا الثانية المواجهة للبنان ومركزها دمشق وضمّت حمص وتدمر.
٣ ــ فلسطين وقد قُسمت إلى:
ــ فلسطين الأولى ومركزها قيساريّة، وكانت تضمّ: القدس، ونابلس، ويافا، وغزّة، وعسقلان.
ــ فلسطين الثانية ومركزها بيسان، ومدنها الرّئيسة جدر [أم قيس حاليّاً]، وطبريّة.
ــ فلسطين الثالثة ومدينتها الرّئيسة البتراء[1].

وقام العرب بإعادة النظر في هذا التقسيم في ضوء تبدّل الجغرافية السياسية لبلاد الشام، فهذه البلاد باتت جزءاً من دولة الخلافة التي مركزها الآن المدينة المنوّرة. ولم تعد تتبع روما الغربيّة أو الشرقية بل تعاديها. لذلك قسّم العرب البلاد أولاً إلى أربعة أجناد هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين. وفي العصر الأموي أيّام يزيد بن معاوية، قسّم جند حمص إلى قسمين هما: جند حمص وجند قنسرين.

وجند دمشق، حاضِرته دمشق، وفيه من الكور بعلبك قاعدة البقاع، وحوران ومدينته بُصرى، والبثنية ومدينتها أذرعات، والجولان ومدينته بانياس، وكورة الشراة ومدينتها أذرح ومناطق أخرى، على رأسها المناطق الساحلية لعرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا. وكانت الغالبيّة لسكان جند دمشق من العرب من قبائل من أصلٍ يماني[2].

وجند حمص كان يضم وسط بلاد الشام مع الشمال. من أهم مدنه حماة وشيزر وأفاميا، وتدمر، ومعرّة النعمان، وحلب، والبارة، وقنسرين وأنطاكية، مع اللاذقية وجبلة وبانياس وأنطرطوس على الساحل.

وكانت تنوخ وطئ تسكن هذه المناطق قبل الفتح وانضاف إليها بعد الفتح القبائل اليمانية التي شاركت في اليرموك وبقيّة المعارك[3].

(1) Palestine Under the Muslims, p.28.

(٢) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه: ١٠٥. كتاب البلدان لليعقوبي: ٣٢٥ ــ ٣٢٧. المسالك والممالك لابن خرداذبه: ٧٧. الأعلاق الخطيرة قسم دمشق: ٤١. معجم البلدان مواد: عرقة، صيدا، بيروت، طرابلس.

(٣) اليعقوبي: ٣٢٤. ابن الفقيه: ١١٠. ابن خرداذبه: ٧٥. فتوح البلدان: ١٣٩.



وجند الأردن وقصبته مدينة طبريّة على شاطئ البحيرة التي حملت الاسم نفسه، ومن مدن هذا الجند في الداخل بيسان، وفحل، وجرش، وفي السّاحل: صور، وعكا[١].

وجند فلسطين وقاعدته مدينة اللد[٢]، ومن مدن هذا الجند: القدس، وعمواس، ونابلس وسبسطيه، وبيت جبرين[٣].

وبات لكلّ جند خراجه ونواة إدارة مستقلة ووالٍ وحامية، فقد تمركزت غالبيّة القوّات التابعة لجند فلسطين في عمواس. وآثر كبار الصحابة سُكنى هذه المدينة لوقوعها على مقربة من بيت المقدس، ولأنها كانت حصينة، ولم يسكنوا في القدس تجنّباً لاغتصاب دور أهلها، أو مضايقتهم بمشاركتهم في دورهم لأنّ المدينة كانت مسوّرة، لكن مع الأيام أخذ أهلها يتحوّلون إلى الإسلام، والمدينة نفسها تصبح ذات سماتٍ إسلامية، لأنه جرى اختطاط المسجد العمري فيها، وقبل الحديث عن اختطاط المسجد العمري، ومنح العهد العمرية، نبقى مع طاعون عمواس، ففي عام ١٨هـ/٦٤٠م، وقع طاعون جارف عُرف باسم طاعون عمواس مات فيه: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشُرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل. ولقد قيل إنّ عدد الذين أماتهم هذا الطّاعون تجاوز الخمسة والعشرين ألفاً[٤].

لقد مات في طاعون عمواس ثلاثة من القادة الأربعة الذين انتدبتهم الخلافة من المدينة لفتح بلاد الشام، وبقي حيّاً عمرو بن العاص فقط، وقد توجّه نحو فتح مصر.

وكان لهذا الأمر دلالاته العظيمة ومؤثراته المستقبلية على أوضاع بلاد الشام. فقد ظلّ حيّاً من قادة اليرموك خالد بن الوليد الذي قدم من العراق مع قوّات خاصة به. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد عزل خالداً وأمر بعودة قوّاته إلى العراق. وكان خالد أيّام طاعون عمواس مقيماً في قنسرين ثم تحول بعد ذلك إلى حمص بلا عملٍ رسمي وبدون تأثير على مجريات الأحداث الشامية.

وبعد طاعون عمواس أمر الخليفة عمر بن الخطّاب بتولية معاوية بن أبي سفيان مكان أخيه يزيد. وهكذا وجد معاوية نفسه سيّداً للموقف في بلاد الشام بلا منافس، الأمر الذي لم تقتصر نتائجه على بلاد الشام بل على ديار الخلافة والإسلام والمسلمين.

ولدى التأريخ لدخول أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب إلى القدس، يجد الباحث نفسه ملزماً بالاعتماد إلى أبعد الحدود على المصادر العربيّة، لأنّ الذي حكاه المؤرّخ البيزنطي ثيوفانس في تاريخه مضطّرب ولا يمكن الإفادة منه، ولا الاعتماد عليه، حيث حكى بأنّ عمر بن الخطاب حاصر

---

(١) البلاذري: ١٢٣. اليعقوبي: ٣٢٧. الأعلاق الخطيرة ــ قسم الأردن: ١٢٣.

(٢) حتى بنى سليمان بن عبد الملك الرّملة فاتخذها قاعدة له. اليعقوبي: ٣٢٨. مادة رملة في معجم البلدان.

(٣) ابن الفقيه: ١٠٢. فتوح البلدان: ١٤٤. اليعقوبي: ٢٣٨. ابن شدّاد: ١٩٩.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣٨٧/٧. الأنس الجليل: ٢٦٦.

القدس لمدة عامين، ثم تسلمها بعد ذلك صُلحاً من صفرونيوس، وأنّ أمير المؤمنين دخل إلى المدينة وهو يلبس ثياباً وسخة مصنوعة من وبر الجمال، وأن صفرونيوس عرض عليه ملابس إسلامية، فاستعارها حتى غسل ثيابه، ثم ردّها إليه، وفي ذلك العام مات صفرونيوس[1].

هذا ووصلت إلينا قصيدة حنين إلى القدس من نظم البطريرك صفرونيوس، ليس فيها أدنى إشارة إلى تسليمه المدينة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ونبحث في الكتابات السّريانيّة أيضاً عن بعض تفاصيل ما حدث، فنجد البطريرك ميخائيل الكبير قد ذكر أنّ صفرونيوس استقبل الخليفة «وتحدّث إليه عن البلاد، فكتب له عهداً على أن لا يُسكن يهودي في القدس» ثمّ حكى أنه عندما «رأى صفرونيوس ثياباً رثّة على عمر، عرض عليه ثياباً ومئزراً، والتمس منه قبولها فأبى، لأنه اعتاد على أن لا يأخذ شيئاً من أحد»[2].

ويبقى البطريرك المصري أفتيشوس المُكنّى بسعيد بن بطريق، أفضل المؤرّخين غير المسلمين، حيث ذكر بأنّ صفرونيوس خرج إلى استقبال الخليفة، «فأعطاه عمر بن الخطّاب أماناً، وكتب لهم كتاباً هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم ــ من عمر بن الخطاب لأهل مدينة إيلياء، إنّهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ألا تُهدم ولا تُسكن، وأشهد شهوداً، وفتح له باب المدينة، فدخل عمر المدينة وأصحابه، فجلس في صحن القيامة، فلمّا حضرته الصلاة قال لصفرونيوس البطرك: أريد أصلّي، فقال له البطرك: يا أمير المؤمنين صلّ موضعك، فقال له عمر: ليس أصلّي هاهنا، فأخرجه البطريرك إلى كنيسة قسطنطين، وطرح له حصيراً في وسط الكنيسة، فقال له عمر: لا ولا هاهنا أصلّي أيضاً»[3].

وليس في المصادر العربية كبير تفاصيل حول دخول أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب إلى القدس[4]. ورواية الأزدي هي أقدم الرّوايات التي وصلتنا حتى الآن، وبالوقت نفسه هي أكثر تفصيلاً، ومنها نعلم أنه عندما وصل الخليفة إلى مشارف القدس، وجدها محاصرةً من قبَل القوّات الإسلامية، وقامت هذه القوّات فضُربت «له قبّة من شعر، وجلس فيها على التراب، ثم قام يصلي، وعلت للمسلمين ضجّة عظيمة بالتهليل والتكبير، فسمع أهل إيلياء، فأشرفوا عليهم لينظروا شأنهم، ونادى واحد منهم: يا معشر العرب ما شأنكم؟ قالوا: إن أمير المؤمنين عمر قد قدِم علينا من مدينة نبيّنا، قال: فرجع فأعلم البطريق، فأطرق إلى الأرض لا يتكلم، فلما كان الغد، وصلى عمر بالناس

---

(1) the ophanes, p 3q.

(٢) تاريخ ميخائيل السّرياني ج٢/٣٢٠.

(٣) تاريخ سعيد بن البطريق ص ١٧.

(٤) انظر تاريخ الطّبري ج٤/٥٦ ــ ٦٥. ابن حبيش ج١/ ٣٠٣ ــ ٣١١.

صلاة الفجرِ، قال لأبي عبيدة: تقدّم إلى القوم، وأعلمهم أني قد أتيت، قال: فخرج أبو عبيدة وصاح بهم، وقال إن صاحبنا أمير المؤمنين قد قدم، فما تصنعون فيما قلتم؟».

وصعد البطريرك ومعه رجالُ الدّين إلى الأسوار، حتى إذا تأكد من وصول أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب «قال لأهل بيت المقدس، انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة»، وعندما خرجوا إليه قال لهم: «ارجعوا إلى بلادكم وذويكم، ولكم الذّمة والعهد»، وبعد ذلك عاد أمير المؤمنين إلى معسكر جنده فبات به ليلته، «ولما كان من الغد قام فدخل بيت المقدس»(١).

وحكى صاحب الأنس الجليل في خبر طويل، قدوم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأنّ وفداً عن أهل القدس قدِم إليه وهو بالجابية، فكتب لهم كتابَ صلح، أورد نصّه، ويُعرف الآن باسم «العهدة العمريّة»(٢)، وعلى هذا هناك شبه إجماع على أنّ صلح القدس قد أُبرِم قبل الدّخول إليها، وهذا هو المرجّح، ونصّ الصلح يشابه نصوص أخرى للصّلح، باستثناء فقرة خاصة جاء فيها: «ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود»، ويتعلق ذكر هذه الفقرة بالذكريات القديمة لما فعله اليهود بالقدس، وبالقريبة جداً بما فعلوه أثناء احتلال الفرس الساسانيين، وضمنت العهدة العمرية الحرية الدينية المطلقة، والحفاظ على الأموال والكنائس، وقضت العهدة بفرض الجزية على أهل الذمة، وعدم جبايتها في ذلك العام من الذين جفلوا من منطقهم ولجأوا إلى مدينة القدس «حتى يُحصد حصادهم».

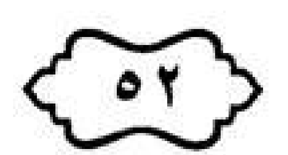
ومكث الخليفة في القدس خمسة أيام، حيث كان قد دخل المدينة في يوم اثنين وغادرها بعد صلاة الجمعة، وفي تلك الأيام كشف عن موقع الصخرة المتعلق بمعراج النبي عليه الصلاة والسلام، واختطّ المسجد العمري، أو الذي شهر أكثر باسم «الأقصى»، والاختطاط هنا لم يكن بناء مسجد، فهذا ما سيكون فيما بعد، بل كان الذي فعله أمير المؤمنين هو أنه «خطّ بها محراباً من جهة الشّرق، وهو موضع مسجده، فقدّم وصلّى هو وأصحابه صلاة الجمعة»(٣)، ويفيد هذا النص الهام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلى بأصحابه في مكان كان شاغراً من البناء، وأطلقوا في هذا الأيام على الموقع الذي اختاره الخليفة واختط به مسجده اسم «بيدر أرونا» أو جبل الهيكل، وهذه حكاية باطلة حسب المعطيات الأثريّة، حيث الرّوايات التوراتية تتحدث عن الملك سليمان وعمارته لهيكل في حوالي عام ألف قبيل الميلاد، وهذا اختراع لأن القدس تأسست بعد المائة الثامنة قبل الميلاد، وأضيف هنا ما ذكره القديس جيروم (٣٤٠ ــ ٤٢٠م) أثناء حديثه عن أعمال الإمبراطورة هيلانة في القدس: «وفي ذلك الوقت لم يكن فوق أرض البيدر هذه هيكلاً، ولا حتى مصلّى، بل بعض

---

(١) فتوح الشّام للأزدي ٢٥٧ ــ ٢٥٩.

(٢) الأنس الجليل ج٢٥٢/١ ــ ٢٥٥.

(٣) فتوح الشام للأزدي ٢٥٩.



المساكن لعوام الناس، وكان الموضع كله من دون أيّ تشريف»[١]، وفي حوالي سنة ٦٧٠م، أي بعد فتح القدس بثلاثة عقود، زار المدينة المقدّسة رحّالة فرنسي اسمه أركولف، فذكر أنّ المسلمين كانوا يتردّدون على مكان قائم إلى الجهة الشرقية من السور، هو «بيت للصلاة مربع الشكل، قد بنوه بشكلٍ بدائي بوساطة ألواح مرفوعة وعوارض فوق بقايا بعض الخرائب، ولقد قيل بأنّ هذا البيت يمكن أن يتّسع لثلاثة آلاف رجلٍ في وقت واحد»[٢]، وبعد أركولف بأمد قصير قام لاهوتي آخر اسمه بيد المبجّل فصنف من عدة كتب مصنّفاً وصف به الأماكن المقدّسة وقد جاء عنده أنه في الجزء الأدنى من المدينة بجوار السّور من جهة الشرق: «هناك الآن بناء مربّع، يبدو أنه قادر على استيعاب ثلاثة آلاف رجل، عليه يتردد المسلمون للصلاة، ولقد بُني بشكلٍ بدائي، وقد رُفع فوق ألواح وعوارض خشبية كبيرة فوق بقايا الخرائب»[٣]، وأعود مجدّداً إلى قصيدة صفرونيوس التي تشوّق بها إلى أماكن القدس المقدّسة، حيث لم يذكر لا بقايا هيكل ولا غير ذلك[٤] مطلقاً.

ويُرجّح أن البيوت التي أشار إليها القدّيس جيروم، قد تعرّضت للدّمار من قبل الفرس، أو لسبب آخر، وبقيت هناك بعض خرائبها العادية، فاستفاد منها المسلمون في الإنشاء البدائي لمسجدهم الأول، وذلك حتى أيام عبد الملك بن مروان ثم ابنه الوليد، حيث كان إنشاءُ قبّة الصّخرة، ثم المسجد العمري، أو الأقصى الموجود حالياً.

هذا ولدى استعراض الرّوايات العربية، ولا سيما المتأخرة منها، حول اختطاط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمسجده، جرى إقحام كعب الأحبار، الذي كان يهودياً من أهل اليمن، وجعلت أمير المؤمنين يستشيره بشأن القبلة، حيث قال له: «أين ترى نجعل المصلّى؟ قال: إلى الصّخرة، فقال: ضاهيت والله يا كعب اليهودية، بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله عليه الصلاة والسلام قبلة مساجدنا صدورها، اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصّخرة، ولكن أُمرنا بالكعبة»[٥]، وفي الحقيقة إنّ إقحام كعب هنا لأمر عجيب، لأنه ليس من المعروف بشكلٍ أكيد تاريخ إسلام كعب، فقد أورد الأزدي، خبر إسلامه بعد فتح القدس، وقال: «إن إسلام كعب الحبر إنما كان في قدوم عمر رضي الله عنه الشام»، وأنه كان من مشجّعيه على التوجّه إلى الشام، لكن لم يرافقه[٦].

---

(١) الموسوعة الشامية ج٢/١٠٦٠ ــ ١٠٦١.

(2) Palestine pilgrims text society, vol. ll, pp 4-5.

(3) lbid, p70.

(4) iety, Vol.xl, pp 28-32, Palestine pilgrims text soc.

(٥) الأنس الجليل ج١/٢٦٦.

(٦) الأزدي ٢٥٩ ــ ٢٦٢.



كما أن هناك روايات أخرى مخالفة حول تاريخ دخوله الإسلام، والمهم هو أنه لم يرافق أمير المؤمنين في رحلته إلى الشام، لانعدام الأسباب، ولأنه لم يكن موضع ثقة، ولأنه كان يمانياً لم يزر القدس قط قبل إسلامه، والعلاقة في فتح القدس إسلامية مسيحية لا شأن له بها، وكان كعب في المدينة حتى اغتيال أمير المؤمنين عمر، ونظراً لحومان الشكوك حوله، هرب خشية المحاسبة إلى الشّام.

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة واسعة جداً لكعب الأحبار، فيها تقريباً كل ما حوته المصادر العربية عنه، وذكرت هذه الترجمة الروايات المختلفة حول سنة إسلامه، ومن ثم قدومه إلى المدينة، وأنه مارس في المدينة «القصّ على الناس»، ولضيق الناس به وشكوكهم، جرى تذكير أمير المؤمنين بحديثٍ نبوي نصّه: «لا يقصّ إلا أمير، أو مأمور، أو محتال» وبناءً عليه قال له عمر رضي الله عنه: «لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض القردة»، وواضح من مواد هذه الترجمة أنه لم يرافق عمر بن الخطاب إلى القدس، بل لحق بدمشق بعد اغتياله، ثم استقرّ بحمص التي مات فيها قبل مقتل عثمان بعام[1].

ومنح التحرير الإسلامي مدينة القدس حقبة من السلام والهدوء والحريّة والتسامح والعمران التي لم تعرفها قط في حياتها المديدة، واستردّت بعد أمد وجيز من تحريرها اسمها الأوّل رسميّاً وشعبياً، كما بانت في كثير من الأحيان تُعرف باسم «بيت المقدس».

وصحيح أن عدداً من الصحابة الكرام الذي شاركوا في فتوحات بلاد الشام، وكانوا حضوراً لعملية فتح القدس من قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، قد سكنوا في بلدة عمواس، لكن عدداً كبيراً زار القدس، حتى من الذين لم يشاركوا في فتحها، وكان ممن زارها من العشرة المبشرين بالجنة: أبو عبيدة عامر بن الجراح، أمين هذه الأمة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وسعد بن أبي وقاص ــ بطل القادسيّة.

ومن أمهات المؤمنين صفيّة بنت حيي.

ومن كبار الصحابة: معاذ بن جبل الأنصاري، وبلال بن رباح مؤذّن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعياض بن غَنْم، وكان من قادة الفتح، وابن عَمٍّ لأبي عبيدة، وخالد بن الوليد، سيف الله المسلول، وأبو ذر الغفاري، وأبو الدّرداء عويمر، وعبادة بن الصّامت، وسلمان الفارسي، وعمرو ابن العاص، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر بن الخطّاب، وواثلة بن الأسقع، مع عدد كبير آخر، ثم استمرّت زياراتها من التابعين عبر العصور[2].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٥، ط بيروت ١٩٩٥ ص١٥٢ ــ ١٧٢.

(٢) الأنس الجليل: ج١/٢٦٠ ــ ٢٦٧، تاريخ القدس للدكتور شفيق محمود ط عمّان ١٩٨٤، ١٢٤ ــ ١٤٣.

٢ ــ لقد نجم عن أحداث الفتنة الكبرى ومقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان نتائج كبيرة، حيث بويع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فكان أن واجه استيلاء عائشة أمّ المؤمنين مع طلحة والزّبير على البصرة، فاضطر إلى مغادرة المدينة إلى العراق حيث خاض معركة الجمل واتخذ من الكوفة حاضرة لدار الخلافة بدلاً عن المدينة المنوّرة، وكانت الكوفة مدينة حديثة التأسيس، ليس لها عراقة المدينة المنوّرة أو دمشق، مجتمعها غير مستقر اجتماعياً، وحين وقعت الفتنة الكبرى، كانت بلاد الحجاز قد أفرغت طاقاتها العسكرية، حيث باتت أهمّ معسكرات قوّات الفتوحات، في: الكوفة، والبصرة، والجابية في الشام، وأنهت معركة الجمل قوّة البصرة وأتت على مكانة القرشيين من غير بني هاشم وبني أمية، واعترفت معظم أمصار دار الإسلام بخلافة الهاشمي، الإمام علي في الكوفة، إلا بلاد الشام بزعامة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية في دمشق الموغلة في القِدم والعراقة، وكان يقود جيشاً منظّماً منذ عشرين عاماً.

وبعد معركة الجمل راسل الإمام علي معاوية ودعاه إلى البيعة. فرفض، وآلت الأمور إلى زحف الإمام علي على رأس قوّاته نحو بلاد الشام، وأعقب ذلك معركة صفّين غير الفاصلة، والاتّفاق على التحكيم، وخروج الخوارج، وأخفق فيما بعد التحكيم، واغتيل الإمام علي من قبل عبد الرّحمن بن ملجم الخارجي، وكان ذلك سنة ٤٠هـ/٦٦١م[١].

وبعد مقتل الإمام علي، بايع أصحابه ابنه الحسن، وجرت مراسلات بين الحسن ومعاوية، أفضت إلى تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وكان ذلك سنة ٤١هـ/٦٦٢م، وسُمّيت هذه السنة بعام الجماعة، وفيها جرت بيعة معاوية بالخلافة، في مدينة القدس[٢]، ولا شكّ أن في اختيار معاوية للقدس مكاناً لبيعته لفتة تقديرية، مع مفهوم شامي للقداسة، فيه تعويض عن قداسة المدينة المنوّرة، وفيه مؤشر على دخول تاريخ الإسلام مرحلة جديدة من حيث الانتشار والسّلطة والسياسة، فبلاد الشام مؤهّلة أكثر من سواها من بلدان دار الإسلام الجديدة، لتكون قاعدة لإيصال الإسلام إلى أطراف الصين شرقاً، وإلى جنوب فرنسا في أوربا، وشهدت بلاد الشام ازدهاراً كبيراً، واهتمّ الأمويون بالعلم والثقافة، ثم إن في بيعة معاوية في القدس، دليل على سرعة كسب المدينة المقدّسة للسمعة الإسلامية، وعلى اهتمام مؤسس الخلافة الأموية بها، ففي العقد الأول من خلافة معاوية ــ

---

(١) صفين لنصر بن مزاحم. تاريخ خليفة بن خيّاط: ج١/٢١٦. مغازي الزّهري ١٥٣ ــ ١٦٠. أنساب الأشراف للبلاذري ج٣/١٤ ــ ٢٦٦، ج٢/٢١ ــ ٢٧. تاريخ الطبري ج٤/٥٥٢ ــ ٢٧٦، ج٥/٥ ــ ٧١. الأخبار الطوال: ١٥٢ ــ ٢٠١. تاريخ اليعقوبي: ج٢/١٨٤ ــ ١٩٣.

(٢) مغازي الزهري ١٦٠، تاريخ خليفة ج١/٢٢٧ ــ ٢٣٤. أنساب الأشراف ج٣/٢٦٧ ــ ٢٩٦. تاريخ الطبري ج٥/٩٤ ــ ١٦٥. تاريخ اليعقوبي ج٢/١٩٤ ــ ٢١٥. الأخبار الطوال ٢٠٢ ــ ٢٢١. مروج الذّهب ج٢/٤١٥ ــ ٤٣٧، ج٣/٤ ــ ١١. الأنس الجليل ج١/٢٧٠. تاريخ القدس ١٩٥.

كما أشرنا من قبل ـ زار الرّحالة آركولف مدينة القدس، وقال بأنّ مسجدها يتسع لثلاثة آلاف مصلّي، وقد يُستخلص من هذا أن هذا المسجد قد بُني من قبل معاوية أثناء ولايته، ولا بد أن بيعته للخلافة كانت فيه، وأن معاوية حافظ على محراب عمر بن الخطّاب، ودامت خلافة معاوية قرابة العقدين من الزمن، حيث خلفه بعد وفاته ابنه يزيد بن معاوية [٦٠ ـ ٦٤هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣م]، وتلطّخت أيام خلافة يزيد القصيرة بالدّم من كل جانب، وإثر وفاته لم يستطع ابنه معاوية الثاني القيام بأعباء الخلافة، كما لم تطل حياته، وشغر منصب الخلافة، فكان أن عُقد مؤتمر الجابية، الذي حضره رؤساء العشائر اليمانيّة مع عدد من أبرز رجالات البيت الأموي، وفي هذا المؤتمر بويع مروان بن الحكم بالخلافة [٦٤ ـ ٦٥هـ/٦٨٤ ـ ٦٨٥م]، وبذلك انتقل الحكم الأموي من البيت السفياني إلى البيت المرواني، ويُعدّ عبد الملك بن مروان [٦٥ ـ ٨٦هـ/٦٨٥ ـ ٧٠٥م] هو المؤسس الثاني للخلافة الأمويّة، وفي خلافة عبد الملك بن مروان لاقت مدينة القدس رعاية لا مثيل لها، واستحوذت على رموزها الإسلامية الدائمة.

فهو حين ولي الخلافة، كان عبد الله بن الزبير مستولياً على مكة، وفيها مقيماً، وعلى العراق ومعظم مناطق المشرق، لذلك مثلما كان مع معاوية بن أبي سفيان جرت بيعة عبد الملك في القدس، وكان ذلك في سنة ٦٥هـ/ ٦٨٥م، وبعد بيعته بسنة «ابتدأ ببناء قبّة الصخرة الشريفة، وعمارة المسجد الأقصى»، وكانت دوافعه إلى ذلك عربية إسلامية، فعبد الملك هو الذي عرّب الإدارة ووحدها في دار الإسلام، ووحّد أركان الاقتصاد، وعرّب النقود، ووضع خطة لتعريب جميع المسلمين ثقافة وعقيدة، فلقد رأى عبد الملك أن مظاهر المدن الشامية الكبرى، ولا سيما دمشق والقدس غير إسلاميّة، فيها كنائس فخمة جداً وتلفت الانتباه، ولذلك أراد أن يُظهر تفوّق الإسلام عقيدة ومظهراً ورموزاً، فكان أن أقدم أولاً على بناء قبّة الصخرة، والمسجد الأقصى، وما لم يكمل في أيامه أكمله ابنه الوليد بن عبد الملك، وأكمل بعضه سليمان بن عبد الملك.

والصخرة هي كتلة غير منتظمة من الصّخر الطبيعي، في وسط منطقة المسجد الأقصى، وهي قمّة ما عُرف باسم جبل موريا، وأبعادها الآن /١٨*١٣م/، وأقصى ارتفاع لها عن الأرضية الحاليّة /١,٥م/، وتحت الصخرة كهف مساحته حوالي /٤,٥م/، وله فتحة في السقف قطرها حوالي المتر[1]، ولا يمكن الرّكون إلى أخبار الإسرائيليات حولها، والمهم أن المسلمين يعتقدون بأن النبي عليه الصلاة والسلام عرج من فوقها نحو السماء، وذكر صاحب الأنس الجليل أن عبد الملك بن مروان حين حضر إلى بيت المقدس، أمر ببناء قبة على الصخرة، فبعث بكتبه إلى عمّاله في الأمصار، لاستشارة المسلمين، وإعلامهم أنه «قد أراد أن يبني قبّة على صخرة بيت المقدس، تقي المسلمين من الحرّ والبرد»، فوردت عليه إجابات الأمصار «نرى رأي أمير المؤمنين موقفاً رشيداً» فجمع

(١) الآثار الإسلامية الأولى لكرزويل ٣٣.



الصنّاع، ووفّر للعمارة المال اللازم، وعهد بالإشراف على العمل إلى رجاء بن حيوة الكندي، وكان عالماً معروفاً بالتقوى والاستقامة، يعاونه يزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان، وكان من أهل القدس، وقد وُلد بها، وكان في بلاد الشام جميع ما أراده عبد الملك لمشروعه من مواد: من أخشاب ورخام، وأحجار، وفسيفساء، وحرفيين ومهندسين على درجة عالية من الأهليّة والخبرة والبراعة، وثابتٌ تاريخياً أن جميع الكنائس في العصر البيزنطي بُنيت بأيدي اختصاصيين محليين مع مواد محلية.

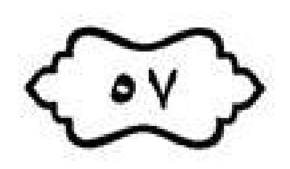
وشهر عبد الملك بن مروان بأنه كان أكثر أهل زمانه علماً وفقهاً، ونباهة، لذلك كان هو الذي صمّم لمشروعه الكبيرة في بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى حيث «وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للصنّاع، فصنعوا له وهو ببيت المقدس القبة الصغيرة التي هي شرقي قبة الصخرة التي يُقال لها قبة السلسلة فأعجبه تكوينها، وأمر ببنائها كهيئتها»، وجعل هذا القبّة «حاصلاً وشحنها بالأموال»، وأمر عبد الملك وكيليه بالسّخاء على مشروعه وأن لا يتقيّدوا بأية قيود، وبعد الفراغ من العمل كتب «رجاء ويزيد إلى عبد الملك بدمشق: قد أتم الله ما أمر به أمير المؤمنين من بناء قبّة صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى، ولم يبق لمتكلّم فيه كلام، وقد بقي ما أمر به أمير المؤمنين من النّفقة عليه، بعد أن فرغ البناء وأحكم، مائة ألف دينار فيصرفها أمير المؤمنين فيما أحب.. فكتب ليهما بأن تسبك وتفرغ على القبة، فسُبكت وأفرغت عليها، فما كان لأحد يقدر أن يتأمّلها مما عليها من الذهب، وهيّأ لها جلالاً من لبود وأدم توضع من فوقها، فإذا كان الشتاء ألبسها لتكنها من الأمطار والرياح والثّلوج»[1].

وصار كهف الصخرة مسجداً صغيراً، عمل له محراب صغير، ارتفاعه /١,٣٧م/، وعرضه /٧٦م/، وليس لهذا المحراب تجويف حينه كما هو معتاد، بل هنا عمودان، ما بينهما مسطّح، وتزيّن العمودين حزوز طولانية في الأسفل، وعرضانية في الأعلى، وفوق العمودين عقد كُتب عليه بالخط الكوفي «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وفوق العقد زينة جميلة وزخرفة بديعة[2].

«وكان رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام قد حفا الصخرة بداربزين، ومن خلف الدّرابزين ستور الدّيباج مُرخاة بين العمد، وكان كل يوم اثنين وخميس يأمران بالزّعفران فيُدقّ أو يطحن، ثم يُجبل من الليل بالمسك، والعنبر والماء وورد الجوري، ويخمّر في الليل»، وكان يجري تخليق الصّخرة حتى يغمروها من الدّاخل، ثمّ يخلقون القبّة، ويأتون بعد ذلك بالمجامر، وقد وضعوا فيها أروع أنواع العود والبخور، وبعد انتشار الرّائحة في المكان كلّه «تشمّر السّتور فيخرج البخور ويفوح من كثرته حتى يبلغ إلى رأس السّوق، فيشمّ الرّيح من يمرّ من هناك، وينقطع البخور من عندهم، ثـمّ يُنادي

(١) الأنس الجليل ج١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) القدس الإسلامية في أعمال ماكس فان برشيم ـ ترجمة عربية ط. دمشق ١٩٩٤ ص٦٩.



منادي في صفّ البزّازين وغيرهم: ألا إن الصّخرة قد فُتحت للنّاس، فمن أراد الصلاة فيها فليأت، فيُقبل النّاس مبادرين إلى الصّلاة في الصّخرة، فأكثر الناس من يدرك من أن يصلّي ركعتين، وأقلهم أربعاً، فمن شمّ رائحته قال: هذا من دخل الصّخرة، ثم تُغسل آثار أقدامهم بالماء، وتُمسح بالآس الأخضر، وتنشف بالمناديل، وتُغلق الأبواب، وعلى كلّ باب عشرة من الحجبة، ولا تُفتح إلا يوم الاثنين ويوم الخميس، ولا يدخلها في غيرهما إلاّ الخدم»، وكان في وسط قبّة الصّخرة سلسلة حلّقوا عليها «درّة ثمينة، وقرني كبش إبراهيم وتاج كسرى»، «وكان الفراغ من عمارة قبّة الصّخرة والمسجد الأقصى في سنة ثلاث وسبعين من الهجرة الشريفة»[1]، وهذا ما يفيد أنّ أعمال البناء استغرقت ثمانية أعوام، وأنها كانت شاملة من الأساسات حتى النهاية.

وكثرت في أيامنا الدراسات حول قبّة الصّخرة، وأجمعت على أنها كانت ذات تصميم فريد ورائد في تاريخ العمارة العربيّة والإسلاميّة، وكان قوام التّصميم جدار خارجي مثمّن الأضلاع تليه دائرة وسطيّة من الأساطين والأعمدة تحيط بالصّخرة التي تتوسّط المبنى، وترتكز عليها قبّة خشبيّة، ويفصل بين التثمينة الخارجيّة ودائرة القبّة الدّاخليّة تثمينة وسطيّة من الدّعائم تعلوها عقود دائريّة مدبّبة، وقد نجم عن التّثمينة الوسطيّة رواقان خارجي وداخلي غُطّيا من الدّاخل بسقف خشبي، وسهّل هذا الشكل ووجود الأروقة للطّواف حول الصّخرة لمن أراد الطّواف للتّعرّف والتّمتّع بالمشاهدة، ومن ثمّ الصّلاة.

والتصميم الذي اعتمده عبد الملك بن مروان، كان فريداً وجديداً في بابه، والقبّة التي أقامها عبد الملك، جعلها من الخشب، قطرها /٢٠,٤٤م/ متموضعة فوق رقبة عالية فيها ستّة عشر نافذة، ومتكزة على أربع سواري، واثني عشر عموداً، على شكل دائرة أحاطت بالصّخرة، وقد قام ثلاثة أعمدة بين طرفي كلّ ساريتين، وغدت الدّائرة المركزيّة التي تشكّلت من ذلك لها ارتفاع يساوي قطرها تقريباً، وقامت دائرة السّواري والأعمدة وسط مثمّن، طول كلّ ضلع من أضلاعه قرابة /٢٠,٦٠م/ وتتألف من ثمانية جدران ارتفاع كل منها /٩,٥٠م/، وذلك باستثناء حاجز السّقف، وارتفاعه /٢,٦م/، وهناك من الخارج سبع مشربيّات في كلّ جانب، وتُعد المشربيّات المجاورة للزّوايا، وعددها ست عشرة، تجاويف صمّاء، ويخترق الجزء العلوي للبقيّة خمسة نوافذ، وهناك باب عرضه /٢,٦م/، وارتفاع /٤,٣م/، في كلّ جانب من جوانب المثمّن الأربعة، التي تُقابل النّقاط الأساسيّة، وبناءً عليه فإنّ النّافذة الوسطى فوق الباب على هذه الجوانب أصغر بكثير من النّوافذ الأخرى.

ويوجد في الرّواق المثمّن الوسيط أربعة وعشرين قوساً محمولة فوق ثماني سواري، وستة عشر عموداً، بين طرفي كلّ ساريتين، وقد ساعد هذا على حمل السّقف الذي جاء منحدراً، وعُملت قبّة

(١) الأنس الجليل ج١ / ٢٧٤ ـ ٣٧٥.



الصّخرة من الخشب، وقد تألفت من طبقتين من الخشب بينهما فراغ، وجرت تغطية السّقف والقبّة من الخارج بألواح من الرّصاص، وجرت العادة على وضع مواد عازلة بين السّقف الخارجي وألواح من الرّصاص، وتألفت هذه من حصر، ثمّ طبقة رقيقة من الطّين الذي فيه قش (بلة)، وكانت الألواح الرّصاصيّة يجري تثبيتها بمسامير، وطبعاً توفّرت حاجّة دائمة إلى تفقد ألواح الرّصاص مع مطلع خريف كلّ عام، كما كان «للبلة» عمر محدّد توجب تبديلها بعده مع تفقد الخشب، ومن المعتقد أن الألواح الرّصاصيّة قد وُضع فوقها ألواح نحاسيّة مذهّبة، واختيار القبّة للسّقف الخارجي له روعته للناظر من الخارج، وهو نظام شاميّ قديم، تبنّاه الإمبراطور جستنيان، في عمارة كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينيّة، أمّا من الدّاخل، فإن المتطلّع إلى مختلف أنواع الزّينة والنّقوش، يتفكّر نحو السّموات، ومن ثمّ يحلق بأفكاره ومشاعره، والحديث عن أنواع الرّخام وأعمال الفسيفساء الزّجاجي والرّسومات النّباتيّة يلاحظ تطوّراً مذهلا بصناعة الفسيفساء فاق ما عرفته في العصر البيزنطي، ذلك أنّ الصّور الكنائسيّة كان لها أشكال الأيقونات، أو بالحري مثّلت صور بعض الأشخاص، ومثّل هذا النّوع أسهل من الصّور النّباتيّة، ولا يحتاج إلى طيوف الألوان نفسها، ويحتاج الحديث المفصّل الواصف لداخل قبّة الصّخرة وخارجها إلى عدّة كتب، ولعلّه يكفي القول «إنّ انسجام التّصميم وثراء الزّخرفة يجعل من قبّة الصّخرة أحد أروع الآثار الإسلاميّة في العالم».

ومن الواضح أنّ عبد الملك بن مروان خاض ببناء قبّة الصّخرة، والمسجد الأقصى ـ الذي سنتحدّث عنه ـ معركة مدروسة تغلّب فيها على عوامل الجذب التي امتلكتها أبنية الكنائس البيزنطيّة، ونجح في معركته، فغدت القدس مدينة عربيّة إسلاميّة، وانحسرت فيها الثّقافة الإغريقية ولغتها حيث ما لبثت جلّ الكنائس أن تبنّت العربيّة، ولا بأس أن نضيف إلى هذه الجوانب الحضاريّة والفنيّة التي سوف تتطوّر مع الوليد بن عبد الملك في بنائه للمسجد الأموي بدمشق، وللمسجد النّبوي في المدينة، وفي إعادة تعمير المسجد الأقصى بالقدس، إن لم نقل بنائه من الأساس[1].

ويُستخلص ممّا ذكره المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم أنّ عبد الملك بن مروان هو الذي بنى المسجد الأقصى، وأنّ طول هذا المسجد ألف ذراع بذراع الملك الهاشمي، وعرضه سبعمائة،

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي البشاري ط ـ ليدن ١٩٠٦/١٦٥ ـ ١٧١. الأنس الجليل ج١/٢٧٢ ـ ٢٧٥. تاريخ القدس لشفيق محمود ٢٠٠ ـ ٢٠٣. القدس الإسلاميّة في أعمال برشيم ٤١ ـ ٨٣. الآثار الإسلامية الأولى ٣٣ ـ ٦١. دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ج١/ ٤٩ ـ ٦٥. الموسوعة الفلسطينية القسم العام، مادة "صخرة". الدّراسات الخاصّة ج٢/٣٢٥ ـ ٣٢٩.

وفي سقوفه من الخشب أربعة آلاف خشبة، وسبعمائة عمود رخام، وعلى السّطح خمسة وأربعون ألف شقفة رصاص...

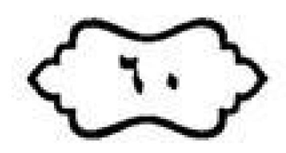
«وكانت وظيفته في كلّ شهر مائة قسط زيت، وفي كلّ سنة ثمانمائة ألف ذراع حصر، وخدّامه مماليك له أقامهم عبد الملك من خمس الأسارى، ولذلك يُسمّون الأخماس لا يخدمه غيرهم، ولهم نوب يحفظونها»[١].

وهذا أيضاً ما رواه القاضي مجير الدّين في الأنس الجليل حيث قال إنّه بعد انتقال الخلافة إلى «الوليد بن عبد الملك انهدم شرقي المسجد» وأنّ الوليد رمّمه، وبعدما تحدّث عن أبواب المسجد روى أنّه كان «فيه من القناديل خمسة آلاف قنديل، وكان يسرج مع القناديل ألفا شمعة في: ليلة الجمعة، وفي ليلة النّصف من رجب، وشعبان، ورمضان، وفي ليلتي العيدين، وفيه من القباب خمس عشرة قبّة سوى قبّة الصخرة، وعلى سطح المسجد من شقف الرّصاص سبعة آلاف شقفة وسبعمائة، ووزن الشّقفة سبعون رطلاً بالشّامي غير الذي على قبّة الصّخرة، وكل ذلك عُمل في أيام عبد الملك بن مروان، ورتّب له من الخدم القوّام ثلاثمائة خادم، اشتريت له من خمس بيت المال... وفيه من الصّهاريج أربعة وعشرون صهريجاً كبار، وفيه من المنابر أربعة»[٢]، وفيما يتعلق بتزويد المسجد بالماء، فقد قال المقدسي: «وفي المسجد عشرون جبّاً متبحّرة»[٣].

وتناول كريزويل موضوع بناء المسجد الأقصى، وقرّر أن الباني هو الوليد، وذلك اعتماداً على ورقتين من أوراق البردي المصريّة، ترقيان إلى أيّام قرّة بن شريك، والي مصر للوليد ابن عبد الملك حيث وردت إشارة «إلى إعالة الصنّاع والعمّال المهرة المستخدمين في مسجد القدس»[٤]، وهذه ليست حجّة قاطعة إذا قبلنا برواية تهدّم جزء من المسجد، وإعادة عمارته من قبل الوليد، لكن إذا اعتمدنا رواية أنّ إعادة البناء الأولى للمسجد كانت في أيّام أبي جعفر المنصور، بعد سقوط الدّولة الأموية، فهذا يفيد أنّ البناء كان في أيّام الوليد، وليس في أيّام أبيه.

وتمتّع المسجد الأقصى من حيث التصميم الأموي بمزايا خاصّة، تختلف عن تصميم مسجد دمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك، فالمسجد الأقصى كان بلا صحن، ولم يتوسّط محرابه

(١) أحسن التقاسيم ١٧١.
(٢) الأنس الجليل ٢٣٧، ٢٨٠ ـ ٢٨١.
(٣) أحسن التقاسيم ١٦٨.
(٤) كريزويل ٦٦.



جدار القبلة، وبلاطات هذا المسجد عموديّة على جدار القبلة وليست موازية له[1]، وهذه السّمات تزيد من ترجيح نسبة عمارة المسجد إلى عبد الملك بن مروان، وأمّا قضيّة المحراب، وكونه في الجهة الشّرقيّة، فمردّها إلى المحافظة على المحراب الذي خطّه أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، ولم يعرف العصر الأموي تعدّد المحاريب، لأنّه لم يعرف تعدّد مذاهب أهل السّنة.

والتّشابه كبير بالنسبة لمواد العمارة والخشب والرّخام، والأعمدة، والفسيفساء، والنّقوش البديعة والزّينة، بين قبّة الصّخرة والمسجد الأقصى، فهذا ما تُبرهن عليه العناصر المتبقية منه والعائدة إلى العصر الأموي، لأنّ تعديلات كبيرة قد طرأت على بناء هذا المسجد وزينته عبر العصور، ويُطلق الآن على المنطقة الحاوية للمسجد الأقصى مع قبّة الصخرة اسم الحرم القدسي، أو الحرم الشّريف، ومساحة هذا الحرم /١٤٠,٩٠٠ متراً مربّعاً/[2].

وحظيت القدس بأعظم عناية من سليمان بن عبد الملك [٩٦ ــ ٩٩هـ/ ٧١٥ ــ ٧١٧م]، الذي كان والي أخيه الوليد على فلسطين «فأحدث مدينة الرّملة وبنى مسجدها، وأتاه نعي الوليد، وكان والي العهد بعده»[3]، وتوجّه سليمان من الرّملة إلى القدس «وأتته الوفود بالبيعة، فلم يُر وفادة كانت أهنأ من الوفادة إليه، فكان يجلس في قبّة في صحن مسجد بيت المقدس، ممّا يلي الصّخرة، ولعلها القبّة المعروفة بقبّة سليمان [بن عبد الملك] عند باب الدّويداريّة، ويبسط البسط بين يدي قبّته، عليها النّمارق والكراسي فيجلس، ويأذن للنّاس فيجلسون على الكراسي والوسائد، وإلى جانبه الأموال وكتّاب الدّواوين، وقد همّ بالإقامة ببيت المقدس، واتّخذها منزلاً، وجمع الأموال والنّاس بها»[4].

وحال بين سليمان وبين اتخاذه القدس عاصمة لدار الخلافة، إرساله حملة كبيرة برّيّة وبحريّة، بقيادة أخيه مسلمةَ بن عبد الملك، لفتح القسطنطينيّة، فاضطّر إلى مغادرة القدس والاستقرار بمرج دابق في شمالي بلاد الشّام ليُشرف بنفسه على أعمال الحملة[5].

ويُلاحظ أنّ الأمويين اهتمّوا أيام دولتهم بالقدس، فبنوا الدّور والقصور فيها، وزادوا من عدد بركها، وأعجبتهم القدس، وفضّلوها على دمشق، لأنّ دمشق كانت موبوءة، كثيفة عدد السّكان، ولم تكن شروط السّكنى في خارجها مريحة، وبالمقابل كانت القدس مدينة متوسّطة

(١) دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ج١/٦٦.

(٢) دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ج١/ ٦٥ ــ ٧٢. تاريخ القدس لشفيق محمود ٢٠٠ ــ ٢١٠. القدس الإسلاميّة في أعمال برشيم ٨٣ ــ ٩٣.

(٣) أنساب الأشراف ج٨/٩٩.

(٤) الأنس الجليل ج١/ ٢٨١ ــ ٢٨٢.

(٥) تاريخ خليفة ج١/ ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٣٢. الطّبري ج٦/ ٥٣٠ ــ ٥٥٣. العيون والحدائق ٢٤ ــ ٣٣. معجم بني أميّة ١٦٤.



الحجم «لا شديدة البرد، وليس بها حرّ، وقلما يقع بها ثلج» وبنيان أهلها «حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعفّ من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها... وفيها كلّ حاذق وطبّيب، وإليها قلب كلّ لبيب، ولا تخلو كلّ يوم من غريب»، فالقدس «بلدة جمعت الدّنيا والآخرة، فمن كان من أبناء الدّنيا، وأراد الآخرة وجد [مسجدها] ومَن كان من أبناء الآخرة، فدعته نفسه إلى نعمة الدّنيا [وجد سوقها]، وأمّا طيب الهواء فإنّه لا سمّ لبردها، ولا أذى لحرّها، وأمّا الحُسن فلا ترى أحسن من بنيانها، ولا أنظف منها، ولا أنزه من مسجدها، وأمّا كثرة الخيرات، فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار، والسّهل، والجبال، والأشياء المتضادة»(١).

وكان سليمان بن عبد الملك استخلف عمر بن عبد العزيز، الذي لم يدم حكمه طويلاً، وبعد عمر بن عبد العزيز، دبّ الخلاف بين أفراد البيت الأموي، وكثرت الاضطرابات، وترافق ذلك مع الإعداد للثورة العبّاسيّة ثمّ تفجيرها وإسقاط الحكم الأموي، وكانت فلسطين مسرحاً لبعض الثورات، لكنّ ذلك لم يؤثّر بشكلٍ مباشر على الأمن والاستقرار بالقدس، وفي ظلّ الدّولة الأمويّة سادت أجواء التسامح الدّينيّ وظلّت القدس لها بطريركها، وصار الآن تنصيب البطريرك، بعد انتخابه من قبل الهيئات الكهنوتيّة، خاضعاً لموافقة الخليفة، وتمنعت القدس في العصر الأموي بالرّخاء والازدهار، وبحريّة الفكر، وفوق هذا كله بانحسار اللغة الإغريقيّة وثقافتها، لحلول العربيّة محلّها، وقد أسهم المسيحيّون السّريان العرب في هذا المجال كثيراً(٢).

المصادر والمراجع:

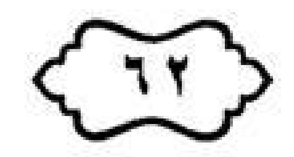
المصادر:

ـ ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي): الكامل في التّاريخ ـ القاهرة ١٣٤٨هـ.
ـ الأزدي (محمّد بن عبد الله): فتوح الشّام ـ القاهرة ١٩٧٠م.
ـ الأزرقي (أبو الوليد محمّد بن عبد الله): أخبار مكّة ـ بيروت ـ مكتبة خيّاط.
ـ ابن إسحاق (محمّد): المغازي والسّيَر ـ بيروت ١٩٧٨م.
ـ الأصفهاني (حمزة بن الحسن): تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ـ بيروت ١٩٦١م.
ـ ابن الأعثم الكوفي (أحمد): كتاب الفتوح ـ بيروت ١٩٩٢م.
ـ الأنطاكي (يحيى بن سعيد): تاريخه ـ طرابلس ١٩٩٠.
ـ البلاذري (أحمد بن يحيى): البلدان أخبارها وفتوحها ـ بيروت ١٩٩٢م.

---

(١) أحسن التقاسيم ١٦٦.

(٢) تاريخ القدس لشفيق محمود ٢١٠ ـ ٢١٤. الموسوعة الفلسطينية ـ الدّراسات الخاصّة ج٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢٣.



ـ أنساب الأشراف ـ بيروت ١٩٩٦م.
ـ البلوي (أبو محمّد عبد الله بن محمّد): سيرة أحمد بن طولون ـ دمشق ١٤٥٨هـ.
ـ ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف): النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة ١٩٢٩م.
ـ ابن الجوزي (عبد الرحمن): تاريخ عمر بن الخطاب ـ القاهرة: من دون تاريخ.
ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ تحقيقي بيروت ١٩٩٥.
ـ ابن حبيش (عبد الرحمن): المغازي ـ بيروت ١٩٩٢م.
ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله): معجم البلدان ـ بيروت ١٩٦٨م.
ـ ابن حوقل (أبو القاسم النّصيبي) صورة الأرض ـ بيروت، دار الحياة.
ـ خسرو (ناصر): سفرنامه ـ بيروت ١٩٧٠م.
ـ ابن خيّاط (خليفة):
١ ـ تاريخ خليفة بن خيّاط ـ دمشق ١٩٦٨م.
٢ ـ طبقات خليفة بن خيّاط ـ دمشق ١٩٦٧م.
ـ دحلان (أحمد بن زيني): الفتوحات الإسلاميّة ـ القاهرة ١٣٥٤هـ.
ـ الدّينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود): الأخبار الطّوال ـ القاهرة ١٩٦٠م.
ـ الزّبيدي (مرتضى): تاج العروس ـ بيروت ١٩٩٤م.
ـ الزّهري (محمّد بن شهاب): المغازي النّبويّة ـ دمشق ١٩٨٠م.
ـ ابن سلام (أبو عبيد القاسم): كتاب الأموال ـ القاهرة (بدون تاريخ).
ـ ابن أبي شبه (عمر): تاريخ المدينة ـ المدينة ١٩٨٣م.
ـ الطّبري (محمد بن جرير): تاريخ الرّسل والملوك ـ القاهرة، دار المعارف.
ـ ابن العديم (كمال الدّين عمر بن أحمد):
١ ـ بغية الطّلب في تاريخ حلب ـ دمشق ١٩٨٨م.
٢ ـ زبدة الحلب ـ تحقيقي ـ دمشق ١٩٩٧م.
ـ ابن عساكر (علي بن الحسن): تاريخ مدينة دمشق. ط. بيروت ١٩٩٥م.
ـ العليمي (مجير الدّين الحنبلي): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ بيروت ١٩٧٣م.
ـ القرشي (يحيى بن آدم): كتاب الخراج ـ القاهرة (بدون تاريخ).
ـ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمّد): الأحكام السّلطانية ـ القاهرة ١٩٦٠م.
ـ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين):
١ ـ التنبيه والإشراف، بيروت ١٩٦٥م.
٢ ـ مروج الذّهب، القاهرة ١٩٥٨م.
ـ المقدسي (محمّد بن أحمد): أحسن التّقاسيم ـ ليدن ١٨٧٧م.
ـ المقريزي (أحمد بن علي):

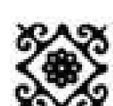
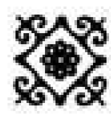
١ ــ المقفى الكبير ــ نسخة مصورّة في مكتبي لما هو موجود في تركيّا وفرنسا وهولندا.
٢ ــ الخطط، القاهرة ١٩٠٦ ــ ١٩٠٨م.
ــ ابن المقفّع (ساويرس): تاريخ بطاركة الكنيسة المصريّة، القاهرة ١٩٥٩م.
ــ المنقري (نصر بن مزاحم): صفّين ــ القاهرة ١٣٦٥هــ.
ــ ابن هشام (أبو محمّد عبد الملك): السّيرة النّبويّة ــ بيروت ١٩٩٢م.
ــ الواقدي (محمّد عمر): المغازي ــ أكسفورد ١٩٦٧م.
ــ اليعقوبي (أحمد بن واضح): تاريخ اليعقوبي ــ بيروت ١٩٦٠م.
ــ أبو يوسف القاضي (يعقوب): كتاب الخراج ــ القاهرة (بدون تاريخ).

المراجع:

أكرم (الجنرال): سيف الله خالد ــ دمشق ١٩٧٨م.
الإمبراطوريّة البيزنطيّة ــ القاهرة ١٩٦٥م.
الباز العريني (السّيّد): الدّولة البيزنطيّة ــ القاهرة ١٩٦٥م.
جامعة الدّول العربيّة: مجلة معهد المخطوطات ــ القاهرة ١٩٥٨م (المجلّد الرّابع ــ الجزء الأوّل).
حميد الله (محمّد): مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة ــ بيروت ــ دار الإرشاد.
خطّاب (محمود شيث): قادة الفتح الإسلامي ــ بيروت ١٩٦٦م.
زكّار (سهيل): الموسوعة الشّاميّة في تاريخ الحروب الصّليبيّة، دمشق ١٩٩٣..

المراجع الأجنبية:

Cambridge Medieval History, vol.iv.
Cambridge ١٩٩٦-٦٧.
Eihard.
The life of Charlemagne, Michigan press ١٩٦٢.
Ostrayosky (d).
History of the Byzantine state. Oxford ١٩٦٨.
Palastine piligrims text society. London ١٨٩٣.
Le stronge (guy) Palestine under the muslim. Beirut ١٩٦٥.
Vasiliev (A) History of the Byzantine Empire. Wisconsin ١٩٦٤.



مشروع لتحقيب التاريخ الإسلامي ومعالجته

أ.د. سهيل زكار



المقدمة:

لقد استبدّ بأعمال التأريخ الحديثة للإسلام والمسلمين أجيال من المستشرقين والمستعربين، الذين امتازوا بشكل عام بكراهية الإسلام، وبالتالي عملوا للنيل من تاريخ المسلمين بمكر شديد وبانعدام للإنصاف والحيادية، وبحثوا دوماً فيما أسموه باسم التناقضات، ومنذ ما يزيد على أربعة عقود من الزمن جرت محاولات لإنهاء التبعية الفكرية، ولإعادة كتابة التاريخ، وتحمس العرب لهذا المشروع، وعقدت ندوات كثيرة حوله فيما بين الكويت، وطرابلس، والإسكندرية، ودمشق، وفي دمشق تأسست منذ عام ١٩٧٧ لجنة قومية للقيام بهذه المهمة، ووضعت مخططاً وتصوراً، لكن حتى الآن لم يتحقق شيء ملموس، لا بل تقزمت الآمال، وبات الآن هناك اكتفاء بكتابة كتاب مرجعي مختصر، مع عقد بعض المؤتمرات.

وانقضى القرن العشرون، ودخلنا في عصر جديد، هو عصر الاتصالات والعولمة وشبكات المعلومات، وباتت معظم مدارس التفسير التاريخي التي أبدعها الغربيون قاصرة،



وأخفق التفسير المادي للتاريخ وكذلك الفردي الرأسمالي، ونحن في عالم من المشاغل والهموم، وانتقل العرب من الدعوة إلى الوحدة العربية إلى تخطيط حدود الكيانات السياسية والترافع إلى المحاكم الدولية والحروب أحياناً، ولقد بتنا الآن أشبه بأمم.

وعلى الرغم من هذا كله أرى أن الحاجة ازدادت من أجل كتابة تاريخ العرب والمسلمين، ذلك أن هذا التاريخ لم يُكتب حتى تعاد كتابته، وهنا لابد لنا من تأمين جيل من الباحثين، وإعادة النظر في تصنيف المصادر، وجمع هذه المصادر، والاتفاق على الاصطلاحات العلمية، واعتماد تحقيب متفق عليه مع التوصل إلى مدرسة ـ أو مدارس ـ عربية إسلامية لتعليل التاريخ وتفسيره، ومعالجة قضاياه ومن ثم كتابته بشكل وحدوي شمولي.

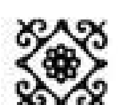
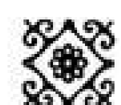
وإنجاز هذا المشروع يُثبت لون الهوية العربية الإسلامية، وصورة هذه الهوية نعطيها لكل عربي ومسلم، ومن ثم ننشرها في الدنيا، فأهل مكة أدرى بشعابها، وآن الأوان أن نوقف استيراد التعريف بماضينا وعقيدتنا من عند سوانا، لاسيما من عند الصليبيين والصهاينة.

وصدوراً عن مواقف الغالبية العظمى من المسلمين أرى أن تاريخ الإسلام والمسلمين مرّ بالحقب التاريخية التالية، وذلك حتى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

١ ـ العصر النبوي.
٢ ـ العصر الراشدي.
٣ ـ العصر الأموي.
٤ ـ العصر العباسي في العراق.
٥ ـ العصر العباسي في مصر.
٦ ـ عصر السلطنة العثمانية.
٧ ـ عصر الاستعمار والتمزق واختفاء المرجعية الشرعية.

ومع هذا التحقيب هناك مساحة مخصصة لكل من: الخلافة الأموية بالأندلس، والخلافة الفاطمية، ودولة الموحدين، وفي إطار الشرعية الكبرى يمكن التعامل مع تواريخ الدول المستقلة أو شبه المستقلة التي ظهرت في دار الإسلام.

وبما أن الإسلام نظر إلى الإنسان نظرة كاملة شاملة، ولأنَّ الإنسان هو صانع الحدث التاريخي وبطل التاريخ الحقيقي، أرى الإقلاع عن البحث في تاريخنا من خلال منظور الحوليات أو منظور الحكام والأسر، بل أخذه بمثابة كتل كبرى، كل كتلة تمثل قطاعاً مهماً سواء أكان سياسياً أم عسكرياً أم حضارياً أم ثقافياً أم عقائدياً.





التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد المزدوج ١٢٥- ١٢٦ - ربيع وصيف١٤٣٣ هـ- ٢٠١٢م- السنة الحادية والثلاثون

ملف العدد:

«دراسات في أدب المعري ونقده»

في هذا العدد:

أبـو العـلاء المعـري مـؤرخاً

□ أ. د. سهيل زكار *

كان أبو العلاء المعري، أحمد بن عبد الله التنوخي (٣٦٣ ـ٤٤٩هـ/ ٩٧٣ـ ١٠٥٧م) - وما يزال - يتمتع منذ حوالي العشرة قرون بشهرة واسعة جداً، وقد حظي هو ومؤلفاته الكثيرة بدراسات واسعة، وكان لرسالته " الغفران " أبعد الآثار العربية والإنسانية، وقد تعامل العلماء طويلاً مع الرسالة من جوانب كثيرة، إلا - حسب معرفتي - الجانب التأريخي.

وكان المعري خير من مثّل الحضارة العربية، بعد انبعاث الشخصية الشامية منذ تأسيس سيف الدولة الحمداني لبلاطه في حلب، فقد كانت بلاد الشام هي التي شهدت أولى النشاطات العربية الحضارية بعد قيام الإسلام، ولكن الثورة العباسية وسقوط الدولة الأموية، والموقف العباسي، المعادي بشكل عام لكل ما هو شامي، وأد إلى أبعد الحدود النشاطات الثقافية الشامية، فقد ماتت مدرسة الأوزاعي الفقهية وجرى تجريح رواة الحديث من الشاميين، ودفنت عبقريات شامية كثيرة حيث قامت، ونجا فقط من أوتي الحظ بالذهاب إلى بغداد، مثل أبي تمام والبحتري ......

ولكن مع بلاط سيف الدولة تهيأت الآن الفرص ليس فقط أمام الشاميين بل حتى لبعض العراقيين والمشارقة لنيل الشهرة مثلما حدث مع المتنبي وأبي علي الفارسي والفارابي، صحيح أن دولة سيف الدولة لم تعمّر طويلاً، ولكن استمرت النهضة من بعده في حلب وتمركزت في معرة النعمان لاسيما في العصر المرداسي، وذلك أن المرداسيين اعتنوا بالشعراء، كما ضمنوا حرية التفكير والتعبير، ويمكن لنا مشاهدة ذلك في أخبار اللقاء المشهور الذي جرى بين صالح بن مرداس ـ مؤسس الدولة ـ وأبي العلاء المعري، وانفرد المرداسيون في الحضارة العربية بأنهم كانوا يمنحون النوابغ في دولتهم لقب أمير مع دار وعطاء مدى الحياة.

❖ أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق.

واهتم عدد كبير من المؤرخين الأوائل بأخبار أبي العلاء وأعتقد أن أفضل من ترجم له وأنصفه كان ابن العديم، مؤرخ حلب وأعظم مؤرخي بلاد الشام عبر العصور. وانتزعت من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم الذي كنت قد نشرته محققاً في دمشق عام ١٩٨٨م ترجمة أبي العلاء، إنما اختزلتها كثيراً لتصلح مقدمة لبحث عن المعري المؤرخ، من خلال كتابه رسالة الغفران.

ترجمة أبي العلاء المعري

(من بغية الطلب لابن العديم بعد الاختصار الكبير)

أحمد بن عبد الله بن سليمان .... أبو العلاء بن أبي محمد التنوخي المعري. قرأ النحو واللغة على أبيه أبي محمد عبد الله بمعرّة النُعمان، ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب، وحدّث عن أبيه وجدّه سليمان بن محمد وأبي الفتح محمد بن الحسن بن روْح، ويحيى بن مِسْعَر (١٥٠ - ظ) أبي زكريا، وأخويه أبي المجد وأبي الهيثم عبد الواحد ابني عبد الله، وأبي الفرج عبد الصمد بن أحمد بن عبد الصمد الفقيه الضرير الحمصي، وأبي بكر محمد بن يوسف الرقي المعروف بابن كراكير، وأبي بكر محمد بن عبد الرحمن ابن عمرو بن عبد الرحيم الرحبي، والقاضي أبي عمرو عثمان بن عبد الله الطَرَسُوسي قاضي معرة النعمان، وجدته أم سلمة بنت الحسن بن إسحق بن بُلْبُل.

ورحل إلى بغداد سنة ثماني وتسعين وثلاثمئة، ودخلها سنة تسع وتسعين وثلاثمئة، وسمع بها أبا الحسن علي بن عيسى الرَبَعي، وأبا أحمد عبد السلام بن الحسين البصري المعروف بالواجكا.

وقرأ عليه ببغداد أبو القاسم التنوخي وابن فورجه، وروى عنه أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، وأقام مدة بالمعرة يقرأ عليه، وأبو المكارم عبد الوارث بن محمد بن عبد المنعم الأبهري وأبو محمد الحسن بن علي بن عمر المعروف بقحف العلم، وابن أخيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد، والشيخ أبو الحسين علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زُريق، وجد جدي أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن أبي جرادة، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبيان، والقاضي أبو الفتح بن أحمد بن أبي الروس (١٥١ - و) السروجي، والخليل بن عبد الجبار بن عبد الله التميمي القُرّائي، وعثمان بن أبي بكرالسفاقسي المغربي، وأبو التمام غالب بن عيسى بن أبي يوسف الأنصاري الأندلسي، وأبو الخطاب العلاء بن حزم الأندلسي، وأبو الحسن علي بن أخيه أبي المجد بن عبد الله بن سليمان، وزيد ابن أخيه أبي الهيثم عبد الواحد، وأبو غالب همّام بن الفضل بن جعفر بن المهذب، وأبو صالح محمد بن المهذب بن علي ابن المهذب، وأبو اليقظان أحمد بن محمد بن أبي الحُوَاري، وأبو العباس أحمد بن خلف المُمتِع، وابن

أخته إبراهيم بن الحسن البليغ، ومحمد بن الخضر المعروف بالسابق ابن أبي مهزول، وأبو الفضل بن صالح المعريون، والقاضي أبو القاسم المحسن بن عمرو التنوخي المعري، وأبو القاسم عبيد الله بن علي بن عبد الله الرَقّي الأديب، وأبو الحسن رشأ بن نظيف بن ما شاء الله، وأبو نصر محمد بن محمد بن هُمَيْماه السَالار، وأبو الحسن الدُلفي الشاعر المصِّيصي، وأبو سعد إسماعيل بن علي السَّمَّان، وأبو الوليد الدَرَبَنْدي، وأبو طاهر محمد بن أحمد بن أبي الصَّفر الأنباري، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني، وأبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسين التبريزي، وأبو المظفر إبراهيم بن أحمد بن الليث الأزدي.

وكتّابه الذين كانوا يكتبون مصنفاته وما يمليه: أبو الحسن علي بن عبيد الله بن أبي هاشم، وابنه أبو الفتح محمد بن علي، وجعفر بن أحمد بن صالح، وأبو إسحق إبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب (١٥١ - ظ) القارئ.

وكان خشن العيش، قنوعاً من الدنيا بملك ورثه من أبيه، والناس فيه مختلفون على مذهبين فمنهم: من يقول أنه كان زنديقاً ملحداً، ويحكون عنه أشياء تدل على كفره، ومنهم من يقول أنه كان على غاية من الدين والزهد، وأنه كان يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة وظلف العيش، وأنه كان مقتنعاً بالقليل، غير راغب في الدنيا، وسأورد من قول كل فريق ما فيه كِفاية ومَقْنع، وقد أفردت كتاباً جامعاً في ذكره، وشرحت فيه أحواله وتبينت وجه الصواب في أمره وسمته ((بدفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعري)) فمن أراد معرفة حقيقة حاله فلينظر في ذلك الكتاب فإن فيه غنية في بيان أمره[1] وتحقيق صحة اعتقاده، وعلو قدره إن شاء الله تعالى ......

قرأت بخط أحمد بن علي بن عبد اللطيف المعري: وولد - يعني أبو العلاء - يوم الجمعة عند غروب الشمس لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمئة.

وقرأت في تاريخ جمعه أبو غالب هَمَّام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري التنوخي قال: سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، فيها ولد الشيخ أبو العلاء أحمد ابن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي، يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول.

وسير إلي قاضي معرة النعمان أبو المعالي أحمد بن مدرك بن سليمان جزءاً بخطه يتضمن أخبار بني سليمان، نقله من نسخة عنده، فقال في ذكر أبي العلاء: ولد يوم الجمعة قبل مغيب الشمس لسبع وعشرين ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمئة، واعتل علة الجدري التي ذهب بصره فيها في جمادى الأولى من سنة سبعٍ وستين وثلاثمئة ....

---

[1] نشرت قطعة من هذا الكتاب أولاً من قبل الشيخ راغب الطباخ في أعلام النبلاء ثم أعيد نشرها في كتاب تعريف القدماء بأخبار أبي العلاء، وقد أشرت في مقدمتي إلى وجود نسخة كاملة من هذا الكتاب.

ورحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين، ودخلها سنة تسعٍ وتسعين، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ولزم منزله عند منصرفه من بغداد مدةً سنة أربعمئة، وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله ولذهاب عينيه، وتوفي بين صلاتي العشاءين ليلة الجمعة الثالث من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمئة، فكان عمره ستاً وثمانين سنة إلا أربعة وعشرين يوماً، ولم يأكل اللحم من عمره خمساً وأربعين سنة، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة، رحمة الله عليه ....

وقرأت فيما سيّره القاضي أبو المعالي أحمد بن مُدرك قاضي المعرة من أخبار بني سليمان قال: ولما قدم من بغداد ـ يعني أبا العلاء ـ عزم على العُزْلة والانقضاب من العالم فكتب إلى أهل معرة النعمان:

بســم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب إلى السَّكَن المقيم بالمعرة شملهم الله بالسعادة، من أحمد بن عبد الله بن سليمان، خصّ به من عرفه ودناه، سَلَّم الله الجماعة ولا أسلمها ولمّ شعثها ولا آلمها.

أما الآن فهذه مناجاتي بعد منصرفي عن العراق، أهل الجَدَل، وموطن بقية السّلف، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت، وودّعت الشبيبة فمضت، وحلبت الدهر أشطره، وخبرت خيره وشره، فوجدت أقوى ما أصنعه أيام الحياة أن اخترت عزلة تجعلني من الناس كبارح الأَرْوى[1] من سانح النعام، وما ألَوت نصيحةً لنفسي، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حيِّزي، فأجمعت على ذلك، واستخرت الله فيه بعد جلائه عن نفر يوثق بخصائلهم، فكلهم رآه حزماً وعدّة إذا تم (١٥٣ - ظ) رشداً، وهو أمر أسري عليه بليل قضى سنة، وخبت به النعامة، ليس بنسج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة، ولكنه غَذِيُّ الحِقَب المتقادمة، وسليل الفكر الطويل، وبادرت إعلامهم ذلك مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتي بسكناه ليلقاني فيه، فيتعذر ذلك عليه، فأكون قد جمعت بين سمجين: سوء الأدب، وسوء القطيعة، وربّ ملوم لا ذنب له.

والمثل السائر خلّ امرأً وما اختار[2]، وما أسمحت القرون الإياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة: نَبذةً كنَبذة فتيق النجوم[3]، وانقضاباً من العالم كانقضاب القابية من القوب[4]، وثباتاً في البلد إن جال أهله

---

[1] الأروى: أنثى الوعل. القاموس.

[2] المثل ((دع امرأً وما اختار)) في أمثال أبي عبيد. ط. دمشق ١٩٨٠: ١١٢.

[3] لعله يريد به الليل وفي القاموس الفتيق: الصبح المشرق.

[4] في القاموس: تخلصت قابة من قوب: أي بيضة من فرخ، يضرب لمن انفصل عن صاحبه.

من خوف الروم، فإن أبى من يُشفق عليّ أو يظهر الشفق إلا النفرة مع السواد كانت نفرة الأعضب[(١)] والأدْمَاء[(٢)].

وأحلف ما سافرت استكثر من النَشَب، ولا أتكثَّر بلقاء الرجال، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن بإقامتي فيه، والجاهل مغالب القدر، فلهيت عما استأثر به الزمان، والله يجعلهم أحلاس الأوطان، لا أحلاس الخيل والركاب ويسبغ عليهم النعمة سُبوغ القَمْراء الطلقة على الظبي الغَرير، ويُحسن جزاء البغداديين فلقد وصفوني بما لا أستحق (١٥٤ - و) وشهدوا لي بالفضيلة على علم وعرضوا علي أموالهم عرض الجد، فصادفوني غير جذل بالصفات ولا هش إلى معروف الأقوام، ورحلت وهم لرحلتي كارهون، وحسبي الله ((وعليه فليتوكل المتوكلون))[(٣)]....

وكان أبو العلاء مفرط الذكاء والحفظ، وأخبرني والدي رحمه الله فيما يأثره عن أسلافه أنه قيل لأبي العلاء: بم بلغت هذه الرتبة في العلم؟ فقال: ما سمعت شيئاً إلا حفظته، وما حفظت شيئاً فنسيته.

وحكى لي أيضاً والدي فيما يأثره عن سلفه قال: سار أبو العلاء من المعرة إلى بغداد، فاتفق عند وصوله إليها موت الشريف أبي أحمد الحسين والد المرتضى والرضي، فدخل إلى عزيته، والناس مجتمعون، فخطا الناس في المجلس، فقال له بعضهم ولم يعرفه: إلى أين يا كلب؟ فقال: الكلب من لم يعرف للكلب كذا وكذا اسماً، ثم جلس في أخريات الناس إلى أن أنشد الشعراء، فقام وأنشد قصيدته الفائية التي أولها (١٥٥ - و)

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف

يرثي بها الشريف المتوفى، فلما سمعها الرضي والمرتضى قاما إليه ورفعا مجلسه إليهما وقالا له: لعلك أبو العلاء المعري؟ فقال: نعم، فأكرماه واحترماه، وطلب أن تعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد، فأدخل إليها وجعل لا يعرض عليه كتاب إلا وهو على خاطره، فعجبوا من حفظه[(٤)] ....

وحكى تلميذه أبو زكريا التبريزي أنه كان قاعداً في مسجده بمعرة النعمان بين يديه يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه، قال: وكنت قد أقمت عنده سنتين ولم أر أحداً من بلدي، فدخل مُغافضة[(٥)] المسجد بعض

---

(١) الأعضب: من لا ناصر له والقصير اليد.

(٢) الأدماء: أي الفقراء.

(٣) سورة يوسف - الآية: ٦٧.

(٤) ويروى أنه دب الخلاف إثر ذلك بينه وبين الشريف المرتضى بسبب المتنبي. انظر الخبر مفصلاً في معجم الأدباء (ط. بيروت ١٩٨٠) ١٢٣/٢ - ١٢٤.

(٥) أي فجأة وعلى حين غرة. القاموس.

جيراننا للصلاة فرأيته وعرفته وتغيرت من الفرح، فقال لي أبو العلاء: ما أصابك، فحكيت له أني رأيت جاراً لي بعد أن لم ألق أحداً من بلدي منذ سنين، فقال لي: قم وكلمه، فقلت: حتى أتمم السَّبَق[١]، فقال: قم أنا أنتظرك، فقمت وكلمته بالأذربيجية شيئاً كثيراً، إلى أن سألت عن كل ما أردت، فلما عدت وقعدت بين يديه قال لي: أي لسان هذا؟ قلت: هذا لسان أهل أذربيجان، فقال: ما عرفت اللسان وما فهمته غير أني حفظت ما قلتماه، ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلناه، فجعل (١٥٧ - و) جاري يتعجب غاية العجب، ويقول: كيف حفظ شيئاً لم يفهمه..........

ومن أعجب ما بلغني من ذكائه ما حدثني به والدي رحمه الله قال: بلغني أنه لما سافر أبو العلاء إلى بغداد وأقام بها المدة التي أقامها، اجتاز في طريقه وهو متوجه بشجرة، وهو راكب على جمل، فقيل له طأطئ رأسك لئلا تلحقك الشجرة، ففعل لك، فلما عاد من بغداد ووصل إلى ذلك الموضع، وكانت الشجرة قد قطعت، طأطأ رأسه (١٥٨ - ظ) فقيل له في ذلك، فقال: ها هنا شجرة، فقال له: ما ها هنا شجرة، فقال: بلى، فحفروا في ذلك الموضع، فوجدوا أصلها، والله أعلم.........

وسمعت والدي يقول: قيل إن أبا العلاء عارض القرآن العزيز، فقيل له: ما هذا إلا مليح إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن، فقال: حتى تصقله الألسن أربعمائة سنة وعند ذلك إنظروا كيف يكون.

وقرأت بخط الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي في كتاب تتبع الكلام فيه على الصرفة[٢]، ونصر فيه مذهب المعتزلة في أن القرآن ليس (١٦٠ - ظ) بمعجز في نفسه، لكن العرب صرفوا عن معارضته، فقال فيه: وقد حمل جماعةً من الأدباء قول أرباب الفصاحة أنه لا يتمكن أحد من المعارضة بعد زمان التحدي على أن نظموا على أسلوب القرآن وأظهر ذلك قوم وأخفاه آخرون ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه: أقسم بخالق الخيل والريح الهابة بليل بين الشَرَط ومطالع سهيل إن الكافر لطويل الويل، وإن العمر لمكفوف الذيل، اتق مدارج السَّيل، وطالع التوبة من قُبَيْل تَنْج وما أخالك بناج.

وقوله: أذلت العائدة أباها، وأضاءت الوَهْدَةَ ورُباها، والله بكرمه احتباها، أولاها الشرف بما حباها، أرسل الشمال وصباها ((ولا يخاف عقباها))[٣].

---

[١] أي ما سبق لي أن بدأت بقراءته.

[٢] صرف الحديث أن يزاد فيه ويحسن من الصرف بالدراهم. القاموس. والمراد هنا أن الله تعالى صرف القوى البشرية عن المعارضة ولذلك عجزوا ولولا صرفه تعالى لهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله. هكذا يزعم.

[٣] سورة الشمس — الآية: ١٥.

وهذا الكلام الذي أورده ابن سنان هو في كتاب ((الفصول والغايات في تمجيد الله تعالى والعظات))[١] وهو كتاب إذا تأمله العاقل المنصف علم أنه بعيد عن المعارضة وهو بمعزل عن التشبه بنظم القرآن العزيز والمناقضة، فإنه كتاب وضعه على حروف المعجم، ففي كل حرف فصول وغايات، فالغاية مثل قوله: نباج، والفصل ما يقدم الغاية، فيذكر فصلاً يتضمن التمجيد أو الموعظة ويختمه بالغاية على الحرف من حروف المعجم، مثل تاج، وراج، وحاج، كالمخمسات والموشحات في الشعر.

وله كتاب آخر كبير نحو ستين مجلداً على هذا الوضع أيضاً سماه ((الأيك (١٦١ - و) والغصون)) وسماه ((الهمزة والردف)) يتضمن أيضاً تمجيد الله تعالى والثناء عليه والمواعظ، ولم ينسبوه فيه إلى معارضة القرآن العزيز، وإنما نسبوه في الفصول والغايات لا غير، وقد كان له جماعة يحسدونه على فضله ومكانته من أبناء زمانه تصدّوا لأذاه، وتتبعوا كلامه وحملوه على غير المقصد الذي قصده كما هو عادة أبناء كل زمان في افتراء الكذب واختلاق البهتان، ووقفت له على كتاب وضعه في الرد على من نسبه إلى معارضة القرآن والجواب عن أبيات استخرجوها من نظمه رموه بسببها بالكفر والطغيان، سمى الكتاب ((بزجر النابح)) ورد فيه على الطاعن في دينه والقادح ....

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقي

..... كان أبو نصر المنازي أحد وزراء نصر الدولة بن مروان بديار بكر، فأرسله إلى مصر رسولاً فوصل إلى المعرة، ودخل إلى أبي العلاء، مسلماً، فتناشدوا وانبسط أحدهما إلى الآخر، فذكر أبو العلاء ما يقاسي من الناس وكلامهم فيه فقال له أبو نصر: ماذا يريدون منك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة! فقال: والآخرة أيضاً والآخرة أيضاً، وأطرق ولم يكلمه إلى أن قام........

ذكر ابن السيد البطليوسي في شرح سقط الزند لأبي العلاء قال: وكان المعري متديناً، كثير الصيام والصدقة، يسمع له بالليل هينمة [٢] لا تفهم، وكان لا يقرع أحد عليه الباب حتى تطلع الشمس، فإذا سمع قرع الباب علم أن الشمس قد طلعت، فقطع تلك الهينمة وأذن في الدخول عليه، وكان لا يرى أكل اللحم، ولا شرب المسكر ولا النكاح، وكان ذا عفة ونزاهة نفسٍ إلا أنه كان مخالفاً لما عليه أهل السُنَّة.

---

[١] طبع في القاهرة ١٩٧٧م بتحقيق محمود حسن زناتي.

[٢] الهينمة: الصوت الخفي. القاموس.

وقول ابن السيد: ((أنه كان مخالفاً لما عليه أهل السنة)) لا أعلم بأي طريق وقعت المخالفة، وقد وصفه بهذه الصفات المحمودة، وكان شافعي المذهب من أهل السنة والجماعة ....

قرأت بخط أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد سليمان أو بخط أبيه أبي محمد عبد الله فإن خطيهما متشابهان، في ورقة وقعت إليّ، ذكر فيها شيئاً من أحوال أبي العلاء، وقال فيها: إن المستنصر بالله صاحب مصر بذل له ما لبيت المال بمعرة النعمان من الحلال، فلم يقبل منه شيئاً ....

قال: وكان رضي الله عنه يرمي من أهل الحسد له بالتعطيل، وتعَمَّل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه، وإيثاراً لتلاف نفسه، فقال رضي الله عنه:

حاول إهواني قوم فما واجهتهم إلا بإهوان
تخَوَّنوني بسعاياتهم فغيروا نية إخواني
لو استطاعوا لوشوا بي إلى المريخ في الشهب وكيوان

......

قال: وكان يدفع الله سبحانه عنه مكائد الأعداء، ويقوم له من المقدمين من ينتخي له، ويذب عنه ....

قرأت بخط ابن سنان الخفاجي في ذكر أبي العلاء بن سليمان أنه ترك أكل اللحم تزهداً، وكان مع ذلك يصوم أكثر زمانه ويفطر على الخل والبقل ويقول: إن في هذا، لخيراً كثيراً....

قال أبو زكريا التبريزي: كان المعري يجري رزقاً على جماعة ممن كان يقرأ عليه، ويتردد لأجل الأدب إليه، ولم يقبل لأحد هدية ولا صلة، وكان له أربعة رجال من الكتاب المجودين في خزانته وجارية يكتبون عنه ما يرتجله ويمليه....

قال أبو زكريا التبريزي: ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري، ولقد اتفق قوم ممن كان يقرأ عليه ووضعوا حروفاً وألفوها كلمات وأضافوا إليها من غريب اللغة ووحشيها كلمات أخرى وسألوه عن الجميع على سبيل الامتحان، فكان كلما وصلوا إلى مما ألفوه ينزعج لها وينكرها ويستعيدها مراراً ثم يقول: دعوا هذه، والألفاظ اللغوية يشرحها ويستشهد عليها حتى انتهت الكلمات، ثم أطرق ساعة مفكراً ورفع رأسه وقال: كأني بكم وقد وضعتم هذه الكلمات لتمتحنوا بها معرفتي وثقتي في روايتي، والله لئن لم تكشفوا لي الحال وتدعوا المحال، وإلا هذا فراق ما بيني وبينكم، فقالوا له: والله الأمر كما قلت، وما عدوت ما قصدناه، فقال: سبحان الله، والله ما أقول إلا ما قالته العرب وما أظن أنها نطقت بشيء ولم أعرفه ....

قرأت بخط أبي الفتح محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير في روزنامج أنشأه لولده الحسن يذكر فيه رحلته إلى الحج من أذربيجان وعبوره بحلب ومعرة النعمان في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وكان رجلاً جليلاً وفاضلاً، وسنذكر ترجمته في موضعها إن شاء الله.

ذكر معرة النعمان ثم قال وَحسَنَتُها وغرّ وديباجتها وعالمها وروايتها وعلاّمتها ونسابتها الشيخ الجليل العالم أبو العلاء أحمد عبد الله بن سليمان المعروف برهين المحبسين، وهو العالم المقصود (١٧٢ - ظ) والبحر من الأدب المورود، والإمام الموجود، والأديب الذي يشهد بفضله الحسود، والزاهد الذي لو أحلّ الدين السجود لوجب له السجود، والفاضل الذي تُنضى إليه الركائب، وتُركب إلى الاقتباس منه الطريق الموعَّر واللاحب[١]، وتهجر لمواصلته المناسب والمُصاحب، وتُطوى إليه البلاد، ويُخالف للاكتحال به الرقاد ويحالف السهاد ليؤخذ منه العلم المحض والسداد، ويستفاد من مجالسته العلم المطلوب والرشاد، يفقد لديه الزيغ والإلحاد والفُضُول في الدين والعناد، الفهم ملء إهابه، والفضل حشو ثيابه، شخص الأدب ماثلاً، ولسان البلاغة قائلاً، جمال الأيام، وزينة خواص الأنام، وفارس الكلام، والمقدم في النثار والنظام، وقد لزم بيته فما يُرى متبرَّزاً، وألف داره وأصبح فيها مُعْتَمداً متعززاً لا يؤنسه عن الوَحشة إلا الدفاتر، ولا يصحبه في الوحدة إلا المحابر، وقد اقتصر من دنياه على الزاوية، وأنس الاعتزال والعافية، وقصر همته على أدب يفيده، وتصنيف يجيده، وقريض ينظمه، ونثر ينثره فيحكمه، ومُتَعَلِّم يفضل عليه، ومسترفد صُعلوك يحسن إليه، فهو عذبٌ لمن شرب، عف المطلب، نقي الساحة من (١٧٣ - و) المآثم، بريء الذمة من الجرائم يرجع إلى نفس أمّارة بالخير، بعيدة من الشر، قد كفّ عن زخرف الدنيا ونضرتها، وغضّ طرفه عن متاعها وزهرتها، ونقّى جيبه فأمن الناس عيبه، قد استوى في النزاهة نهاره وليله، فلم يتدنّس بفاحشة قط ذيله، وعاد لإصلاح المعاد بإعداد الزاد، واعتزل هذه الغدّارة، وأفرج عن المراد.

وله دار حسنة يأويها، ومعاش يكفيه ويمونه، وأولاد أخ باق يخدمونه ويقرؤون بين يديه، ويدرسون عليه، ويكتبون له، ووراق برسمه مستأجر، ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة، وما يفضل عنه يفرقه على أخيه وأولاده واللائذين به الفقراء والقاصدين له من الغرباء، ولا يقبل لأحد دقيقاً ولا جليلاً، فقد استعمل قول النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا أتاه فقال: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال: رجل يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه. قال ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره[٢] وما روي أن عقبة بن عامر قال: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أملك عليك لسانك وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك فقد اتخذ الله تعالى ذكره صاحبا، وترك الناس جانبا.

---

[١] اللاحب: الطريق الواضح. القاموس.

[٢] انظر كنز العمال: ١١/ ٣٠٩٦٨.

فمضيت إليه مسلماً ، وللاستسعاد به مغتنماً ، فرأيت شيخاً (١٧٣ - ظ) حكمت بأنه مولود في طالع الكمال ، وأنه جملة الجمال ، شمس عصره ، وزينة مصره ، وعلم الفضل المطلوب ، وواسطة عقد الأدب المحبوب يزيد على العلماء زيادة النور على الظلام ، والكرام على اللئام ، وينيف عليهم إنافة صفحة الشمس على كرة الأرض ويشآهم [١] كما يشأى السابق يوم الامتحان والعرض.......

كان ظهر بمعرة النعمان منكر في زمن صالح بن مرداس ، فعمد شيوخ البلد إلى إنكار ذلك المنكر ، فأفضى إلى أن قتلوا الضامن بها ، وأهرقوا الخمر ، وخافوا فجمعهم إلى حلب واعتقلهم بها ، وكان (١٤٧ - و) فيهم بعض بني سليمان ، فجاء الجماعة إلى الشيخ أبي العلاء وقالوا له : أن الأمر قد عظم وليس له غيرك ، فسار إلى حلب ليشفع فيهم ، فدخل إلى بين يدي صالح ، ولم يعرفه صالح ، ثم قال له : السلام عليك أيها الأمير.

الأمير أبقاه الله كالسيف القاطع ، لان وسطه ، وخشن جانباه ، وكالنهار الماتع قاظ وسطه ، وطاب جانباه ، ((خذ الأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)) [٢] ، فقال له : أنت أبو العلاء؟ فقال : أنا ذاك ، فرفعه إلى جانبه ، وقضى شغله وأطلق له من كان من المحبسين من أهل المعرة ، فعمل فيه ـ قال لي : قال لي أبي : قال لي جدي : وأنشدنيها لنفسه :

ولما مضى العمر إلا الأقل ... وحان لروحي فراق الجسد
بعثت رسولاً إلى صالح ... وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني هديل الحمام ... وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق ... فكم محنة نفقت ما كسد

وقرأت هذه الحكاية في تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري ، وذكر أن اجتماع أبي العلاء بصالح كان بظاهر معرة النعمان قال : سنة سبع عشرة وأربعمائة فيها : صاحت امرأة في الجامع يوم الجمعة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، فنفر كل من في الجامع إلا القاضي والمشايخ ، وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان أسد الدولة صالح في (١٧٤ - ظ) نواحي صيدا.

---

[١] شآه يشآه إذا سبقه. اللسان.

[٢] سورة الأعراف — الآية : ١٩٩.

ثم قال: سنة ثماني عشرة وأربعمئة فيها: وصل أسد الدولة صالح بن مرداس إلى حلب وأمر باعتقال مشايخ المعرة وأماثلها، فاعتقل سبعون رجلاً في مجلس الحصن سبعين يوماً، وذلك بعد عيد الفطر بأيام، وكان أسد الدولة غير مؤثر لذلك، وإنما غلب تاذرس[١] على رأيه وكان يوهمه أنه يقيم عليهم الهيبة، ولقد بلغنا أنه خاطبه في ذلك فقال له: أقتل المهذب وأبا المجد بسبب ماخور، ما أفعل وقد بلغني أنه دعي لهم في آمدوميافارقين، وقطع عليهم ألف دينار، واستدعى الشيخ أبا العلاء بن عبد الله بن سليمان رحمه الله بظاهر معرة النعمان، فلما حصل عنده في المجلس قال له الشيخ أبو العلاء: مولانا السيد الأجل، أسد الدولة ومقدمها وناصحها، كالنهار الماتع اشتد هجيره وطاب أبراده[٢]، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حداه، ((خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين)) فقال صالح: قد وهبتهم لك أيها الشيخ، ولم يعلم الشيخ أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه، ثم قال الشيخ أبو العلاء بعد ذلك شعرا:

تغيبت في منزلي برهةً ستير العيون فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقل وحم لروحي فراق الجسد (١٧ -ظ)
بعثت شفيعا إلى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

قلت: وبلغني في غير هذه الرواية أنه قال بيتين حين أطلق صالح أهل المعرة:

نجى المعرة من براثن صالح ربٌّ يداوي كل داء معضل
ما كان لي فيها جناح بعوضة الله ألحفهم جناح تفضل [٣]

....

وقرأت بخط أبي الفضل هبة الله بن بطرس الحلبي النصراني المعروف بابن شرارة: لزم أبو العلاء منزله من سنة أربعمئة إلى توفي يوم الجمعة لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول من سنة تسع وأربعين بمعرة النعمان.

---

[١] كان وزيره ومدبر أمره وقد قتل معه في معركة الأقحوانة.
[٢] الأبردان: الظلّ والفَيْء. اللسان.
[٣] انظر كتابي ـ بالإنكليزية ـ إمارة حلب: ٢٤٥، ٢٤٩.

وقرأت في الجزء الذي سيره لي قاضي المعرة أبو المعالي بن سليمان في أخبار بني سليمان أنه توفي رحمه الله وقت صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول من سنة تسع وأربعين وأربعمئة، ودفن في مقابر أهله بمعرة النعمان، وصلى عليه ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان رحمه الله ....

.... وكان مرضه ثلاثة أيام ومات في اليوم الرابع ولم يكن عنده غير بني عمه، فقال لهم في اليوم الثالث: اكتبوا، فتناولوا الدوى والأقلام، فأملى عليهم غير الصواب، فقال القاضي أبو محمد: أحسن الله عزاءكم في الشيخ فإنه ميت، فمات في غداة غد، وإنما أخذ القاضي هذه المعرفة من ابن بطلان، لأن ابن بطلان ـ كان يدخل على أبي العلاء، ويعرف ذكاءه وفضله، فقيل له قبل موته بأيام قلائل: إنه أملى شيئا فغلط فيه، فقال ابن بطلان: مات أبو العلاء، فقيل: وكيف عرفت ذلك، فقال: هذا رجل (١٧٨ - ظ) فطن ذكي ولم تجر عادته بأن يستمر عليه سهو ولا غلط، فلما أخبرتموني بأنه غلط علمت أن عقله قد نقص، وفكره قد انفسد[١]، وآلاته قد اضطربت، فحكمت عليه عند ذلك بالموت والله أعلم.

قرأت بخط بعض البغداديين، قيل: لما مات أبو العلاء المعري سامحه الله وقف على قبره سبعون شاعراً من أهل المعرة، فأنشد كل منهم قصيدة يرثيه بها..........

وزرت قبر أبا العلاء في البرية التي فيها مقابر أهله داخل معرة النعمان، بالقرب من آدر بني سليمان، رحمه الله)).

لقد أورد المعري في رسالة الغفران أخباراً تاريخية كثيرة، تعلق بعضها بفترة ما قبل الإسلام، وبعضها الآخر بالعصور الإسلامية قبل أيامه، وأخيراً ـ وهو الأكثر أهمية ـ ما عاصره من أحداث، وكان أقرب كشاهد عيان لما رواه بحيادية شديدة ملتزمة.

وظهر المعري في الرسالة صاحب عقيدة إسلامية قائمة على العقل الذي يقود إلى اليقين، وقد أظهر في الرسالة ميولا شيعية معتدلة، ليس مسايرة للدولة المرداسية التي كانت شيعية اثني عشرية، ولا للخلافة الفاطمية في القاهرة، التي دانت لها الدولة المرداسية بالطاعة، بل صدوراً عن قناعاته وحباً لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فهو جعل الإمام علياً كرّم الله وجهه، رفيقاً ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم، يتولى تنفيذ أوامره ويوصل الناس إليه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يردّ للإمام علي رضي الله عنه توصية أو شهادة، من ذلك أن علياً ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هذا أعشى

---

[١] كتب ابن العديم في الحاشية: ((صوابه فسد وإنما حكى رحمه الله لفظ ابن بطلان على صورته)) وكان ابن بطلان طبيباً عراقياً قدم إلى حلب وسبق أن نقل ابن العديم عنه في المجلدة الأولى.

قيس قد رُوي مدحه فيك، وشهد أنك نبي مرسل، فقال: هلا جاءني في الدار السابقة؟ فقال علي: قد جاء، ولكن صدته قريش، بحبه للخمر، فشفع لي، فأدخلت الجنة[١].

والمتأمل لهذا المثل يدرك أن المعري كان بعيداً عن التعصب معتدلاً متسامحاً، ولا شك أنه مثّل عصره الشامي خير تمثيل، لكن مما يؤسف له أن هذا الحال انقشع ـ لربما إلى الأبد ـ بعد وفاة المعري بأمد وجيز وحين اجتيحت بلاد الشام من قبل الغُزّ، الذين جاء بعدهم الفرنجة الصليبيون، وهكذا الانتقال من حكم عسكري غريب إلى عسكري محتل حتى فجر الاستقلال!

وشاهد آخر على مكانة الإمام علي رضي الله عنه لدى النبي صلى الله علَيه وسلم، أن ابن القارح الذي من المفترض أنه هو الذي دفع المعري إلى كتابة رسالة الغفران، أراد أن يتشفع بحمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، فأجابه: إني لا أقدر على ما تطلب، ولكني أنفذ معك ـ أي رسول الله ـ إلى ابن أخي علي بن أبي طالب، ليخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، في أمرك[٢].

وهناك مثال آخر واضح حول ميول المعري إلى آل البيت، لدى حديثه عن الأخطل الشاعر، وعلاقة الأخطل المتينة بيزيد بن معاوية، فقد كان راضياً حين استفتاه الأخطل بقوله:

أكلت الدجاج فأفتيتها فهل في الخنانيص من مغمز

وكان يعلوه السرور حين كان يسمع الأخطل يقول متفاخراً بأبي سفيان، وما أنجزه في معركة أحد.

أخالد هاتي خبريني وأعلني حديثك إني لا أسرّ التناجيا
حديث أبي سفيان لما سما بها إلى أحد حتى أقام البواكيا
فلا خلف بين الناس أن محمداً تبوأ رمساً في المدينة ثاويا

وقوله:

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائم كالطير أدعو قبيل الصبح: حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

---

[١] رسالة الغفران، ط، دار صادر، بيروت، ص١٠٩، ١١٠.

[٢] رسالة الغفران، ص١٥٨ـ ١٦١.

وكان المعري قد جعل عدداً من الشعراء من سكان الجنة مع أنهم عاشوا قبل الإسلام، ولكنه جعل بشار بن برد من أهل النار لزندقته، ولمجاهرته باللواطة، ولمدحه إبليس في قوله:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

واتخذ المعري موقفاً معادياً من القرامطة، ولاسيما قرامطة البحرين لاستباحتهم الكعبة وقتلهم الحجاج، واقتلاعهم للحجر الأسود مع ميزاب الكعبة، ذلك أن القرمطي أراد تعطيل الحج واعتقد بأن الحجر الأسود "مغناطيس القلوب" يجذب الحجاج إلى بيت الله الحرام، وكان واحد من القرامطة قتل جماعة من الحجاج وهو يقول: يا كلاب، أليس قال لكم محمد المكي: ومن دخله كان آمناً؟ أي أمن هنا؟.

وكان أبو طاهر الجنابي زعيم قرامطة البحرين وافى الحجاج في مكة يوم التروية من سنة سبع عشرة وثلاثمائة وهو يوم الإثنين لثمان خلون من ذي الحجة، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وقتلوهم حتى في المسجد الحرام والبيت، وقلعوا الحجر الأسود، وأنفذوه إلى هجر، وأخذوا كسوة الكعبة، وباب البيت، وطلع رجل منهم ليقلع الميزاب فسقط فمات، وخرج أمير مكة ابن محلب في جماعة من الأشراف إلى أبي طاهر، وسألوه في أموالهم، فلم يشفعهم، فقاتلوه، فقتلهم جميعاً وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن الناس في المسجد الحرام، حيث قتلوا من غير غُسْلٍ، ولا كفن، ولا صلاة على أحد منهم، ونهب دور أهل مكة[1].

ورواية المعري لها أهمية خاصة حول مسألة الاعتقاد بأن الحجر الأسود هو "مغناطيس القلوب"، ومثلها في الأهمية طبيعة أتباع القرامطة من البداوة والأعراب، ففي ذلك دلالة على طبيعة عمق العقيدة الإسلامية في نفوس سكان مناطق الإحساء والبحرين في القرن الرابع للهجرة[2].

وذكر المعري أيضاً قرامطة اليمن بزعامة علي بن الفضل، الذي استولى على حصن المذيخرة وغيره من حصون اليمن المنيعة، وأعلن عن قيامه عظة لذلك: خوطب برب العزة، وكوتب بها، فكانت له دار إفاضة يجمع إليها نساء البلدة كلها، ويدخل الرجال عليهن ليلاً.

قال من يوثق بخبره: دخلت إليها لأنظر، فسمعت امرأة تقول: يا بني! فقال: يا أمه، نريد أن نمضي أمر ولي الله فينا.

---

[1] سهيل زكار، **الجامع في أخبار القرامطة**، ط، دمشق، ٢٠٠٧م، ص٥٠٣.

[2] **رسالة الغفران**، ص٢٢٧.

وكان يقول: إذا فعلتم هذا لم يتميز مال من مال، ولا ولد من ولد، لتكونوا كنفس واحدة، فغزاه الحسني من صنعاء فهزمه، وتحصن منه في حصن هناك، فأنفذ إليه الحسني طبيباً بمبضع مسموم، ففصده به فقتله [١].

وكان من أقدم من أتى على ذكر القرمطي علي بن الفضل، وعاصره، صاحب سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، الذي كان هو الحسني الذي حارب ابن الفضل وهزمه، والهادي إلى الحق هو الذي نشر المذهب الزيدي في اليمن، ومن سلالاته كانت الأسرة الملكية الأخيرة في اليمن.

وروى صاحب سيرة الهادي أنه عندما صار القرامطة " إلى المذيخرة، أظهر ابن الفضل ـ لعنه الله ـ المجوسية، وأمرهم بنكاح الأمهات والأخوات، وشرب الخمر، وحرّم جميع الحلال، وأحل جميع الحرام، وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومما جاء به من عند الله عزّ وجلّ، وتسمى بربّ العالمين ـ عليه سخط الله، ولعنة اللاعنين ـ وأمر من كان معه أن يسلموا الأموال والحرم، ويخرجوا إليه من جميع ما في أيديهم ...

فإذا كان ليلة الجمعة جمع الرجال فأرسلهم على النساء، فتقع الأم للابن، والأخت مع الأخ، فيفجروا بهن في ليلتهن تلك، فمن امتنع من ذلك قتله، وأباح حرمته لمن كان معه" [٢].

ومن الممكن التشكك بمسألة ادعاء ابن الفضل الربوبية، ولاسيما أننا نجد في نص المعري، الرجل الذي اتصل بأمه قد وصفه " بولي الله "، ويرجح هنا أن ابن الفضل أعلن عن قيامةٍ عظمى تماشياً مع مبادئ العقائد الإسماعيلية [٣]، وجاء إعلانه هذا ممزوجاً مع شيء من العصبية القبلية، في الصراع ما بين العدنانيين والقحطانيين، ذلك أنه أمر جواريه أن يضربن الدفوف على المنبر، ويغنين بشعر قاله، أوله:

خذي الدف يا هذه واضربي ... وغنيّ هزارك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرب
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام فلم نتعب [٤]

---

[١] الجامع في أخبار القرامطة، ص ٢٥٨.
[٢] حول القائم والقيامة، انظر الجامع في أخبار القرامطة، ص ٨٠ ـ ٨٣، ٩٩، ١٠٠.
[٣] الجامع في أخبار القرامطة، ص ٣٤١.
[٤] الجامع في أخبار القرامطة، ص ٣٧٦ ـ ٣٨٢، ٤٦٨.

وأما ما ذكره المعري بأن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين قد تدبر اغتيال ابن الفضل، فمرجحٌ أنه جانب الصواب، وأن قيادة الدعوة الإسماعيلية هي التي فعلت ذلك، ووهم المعري أيضاً حين مزج بين علي بن الفضل، ومنصور اليمن (أبو القاسم النجار المعروف بالصناديقي)، فمنصور اليمن كان من دعاة الإسماعيلية الذين أرسلوا إلى اليمن، وهو إن كان قد جند عليَّ بن الفضل، لكنه اختلف معه وتحاربا.

وذكر المعري أيضاً عدداً عدداً ممن اتهم بالكفر، أو الإلحاد، أو الزندقة[1]، وكان من هؤلاء صالح بن عبد القدوس الذي أعدمه الخليفة العباسي [١٥٨ ـ ١٦٩هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥م] بتهمة الزندقة، وكانت الزندقة قد استشرت أيام هذا الخليفة، فتصدى لها.

وظهر في أيام المهدي ـ كما ذكر المعري ـ في بلاد ما وراء النهر " رجل قصار أعور، عمل له وجهاً من ذهب، وخوطب برب العزة، وعمل لهم قمراً فوق جبل ارتفاعه فراسخ، فأنفذ المهدي إليه، فأحيط به وبقلعته، فحرق كل شيء فيها وجمع كل من في البلد، سقاهم شراباً مسموماً، فماتوا جميعهم، وشرب فلحق بهم، عجّل الله بروحه إلى النار"[2].

وسلف بنا أن أشرنا إلى أن المعري تشكك في عقيدة يزيد بن معاوية، الذي كان الخليفة الأموي الثاني، ومن الأمويين المروانيين تناول الوليد بن يزيد " الذي أقام في الملك سنة وشهرين وأياما "، والوليد بالنسبة للمعري كان كافراً لقوله:

إذا مت يا أم الحنيكل فانكحي ... ولا تأملي بعد الفراق تلاقيا

فإن الذي حدثته من لقائنا ... أحاديث طسم تترك العقل واهيا

ورمى المصحف بالنشاب وخرقه، وقال :

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب خرقني الوليد

وأنفذ إلى مكة بنّاء إلى مجوسياً ليبني على الكعبة مشربة، فمات، قبل ذلك، ويستشف من كلام المعري أن الوليد بن يزيد كان مانوياً، سجد لصورة ماني وقبلها، وأنه كان بموضع حول دمشق يقال له البخراء، فقال :

تلعّب بالنبوة هاشمي ... بلا وحي أتاه ولا كتاب[3]

---

[1] كان المقصود بالزندقة الديانة المانوية، انظر سهيل زكار، كتاب الزندقة، ط، دمشق، ٢٠٠٥م.

[2] رسالة الغفران، ص ٢٢٧.

[3] في الحقيقة البخراء قرب تدمر، وفيها قتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ومائة، ابظر تاريخ خليفة بن خياط، ط، دمشق، ١٩٦٨، ص ٥٤٨ ــ ٥٥١.

وذكر المعري من الملاحدة العباسيين أبا عيسى بن الرشيد القائل:

دهاني شهر الصوم لا كان من شهر ولا صمت شهراً بعده آخر الدهر

ولو كان يعديني الإمام بقدرة على الشهرلا ستعديت دهري على الشهر

عرض له في وقته صرع، فمات ولم يدرك شهراً غيره"[١].

وحديث المعري عن الحسين بن منصور الحلاج ممتع ومهم، وذلك أنه كان متهوراً جسوراً يروم إقلاب الدول، ويدعي فيه أصحاب الإلهية، ويقول بالحلول، ويظهر مذهب الشيعة للملوك، ومذاهب الصوفية للعامة، وفي تضاعيف ذلك يدعي أن الإلهية قد حلت فيه ... وهو يعتقد أن العارف من الله بمنزلة شعاع الشمس، منها بدأ وإليها يعود، ومنها يستمد ضوءه ... وكان في كتبه: إني مُغرق قوم نوح، ومهلك عاد وثمود، وأن الحلاج هاجم المتصوفة بقوله:

أرى جيل التصوف شرّ جيل فقل لهم وأهون بالحلول

أقال الله حين عشقتموه: كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

وحكى المعري: أنه حكم السلطان على الحلاج في آخر سنة تسع وثلاثمئة: "بضربه ألف سوط، وقطع يديه، ثم أحرقه بالنار"[٢].

وحكى المعري: أن أبا جعفر محمد بن علي الشلمغاني، الذي عرف بابن أبي العزاقر، وكان من أهالي منطقة واسط تأثر بالحلاج، وصورته صورة الحلاج، ويدعي عنه قوم أنه إله، وأن الله حل في آدم، ثم في شيث، ثم في واحد واحد من الأنبياء والأوصياء والأئمة، حتى حل في الحسن بن علي العسكري " الإمام الحادي عشر.

كما أتى على ذكر أحمد بن يحيى الرواندي الملحد، الذي كان من أهل مروا الروذ، وكان في بداية حياته " حسن السيرة، جميل المذهب، ثم انسلخ من ذلك كله بأسباب عرضت له، ولأن علمه كان أكثر من عقله "[٣].

---

[١] رسالة الغفران، ص ٢٢٩.

[٢] رسالة الغفران، ص ٢٣١.

[٣] المصدر نفسه، ص ٢٣١، ٢٣٢.

وأن ابن الرومي الشاعر كان يفكر بالانتحار أثناء اشتداد مرضه الأخير الذي مات منه، وروي أن الشاعر أبا تمام كان لا يصلي، وأنه حين عوتب على ذلك قال: " فلو كنت أعلم أن الصلاة تنفعني وتركها يضرني ما تركتها ".

وأشار المعري إلى القضاء على ثورة المازيار، وكذلك ثورة بابك الخرّمي، ومن بعد ذلك اعتقال القائد الأفشين، ومحاكمته، حيث تبين أنه لم يكن مسلماً، بل كان يبطن الكفر، وأنه كان متآمراً مع الأفشين ضد المعتصم العباسي، ولذلك أعدمهما هذا الخليفة، وعبارة المعري هنا مفيدة في أنه اعتمد على تآريخ كثيرة " وأن ضحايا ثورتي بابك والمازيار، كانت ثلاثة آلاف ألف وخمسمئة [١]

وكان الإمام جعفر بن محمد، الذي عرف بالصادق، من أعلى الأئمة مكانة وثقافة وعلماً، فقد كان أستاذاً لكل من الإمام مالك، وأبي حنيفة، وقد عاصر نهاية الدولة الأموية، وبداية العصر العباسي (ت ـ ١٤٨هـ)، ويعتقد أنه في أيامه انقسم الخط الإمامي لدى الشيعة إلى قسمين: سبعي، واثني عشري، والسبعي هو الذي ينتمي إلى إسماعيل بن جعفر، الذي كان قد مات في حياة أبيه، وقام جدل آنذاك حول الإمامة هل هي بالاختيار الإلهي المسبق، أو بنص التعيين، وقال الإسماعيلية بأن الإمامة نور ينتقل من الأصلاب من كل إمام إلى ابنه البكر، وفي خضم هذا الخلاف ظهر في البصرة من يدعي أنه جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ وأنه متصل به، وروحه فيه ومتصلة به.

وبعدما أنهى المعري حديثه حول هذا البصري، قال: ولو استقصيت القول في هذا الفن لطال جداً، ولكن:

لابـد للمـصدور أن ينفـثا ولـلـذي في الـصدر أن يبعـثا

بل لو قلت كل ما أعلمه، أكلت زادي في محبسي [٢]، وليت المعري ذكر كل الذي كان يعرفه من أحداث التاريخ الإسلامي، ومع ذلك في الرسالة الكثير من الأخبار والتعليقات، ومن ذلك:

حديثه عن عبد الله بن ميمون بن القداح، الذي احتل مكانة كبيرة في الدعوة الإسماعيلية، ووجهت إليه المصادر المعادية للإسماعيلية تهماً كثيرة، منها أنه كان يهودياً، وأنه هو الذي أنجب سلسلة الأئمة الفاطميين، فابن ميمون كان عربياً من باهلة " وكان من علية أصحاب جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ وروى عنه شيئاً كثيراً، ثم ارتد بعد ذلك ".

---

[١] رسالة الغفران، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥، تاريخ خليفة، ص ٧٨٦ ـ ٧٨٨.

[٢] رسالة الغفران، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

وتناول ابن ميمون في شعره الإمام الصادق، من ذلك قوله:

قد كنت معروراً به برهة ثم بدا لي خبر يستر

وما حكاه المعري عن عبد الله بن ميمون، يفرض على الباحث إعادة النظر بما نسب إليه في المصادر الإسماعيلية وسواها، وإذا صدقنا أبيات الشعر التي نسبها المعري إليه، يصعب على المؤرخ أن يصدق زمنياً ما نسب إليه من أدوار، لا بل يصعب القول إنه بقي شيعياً، وأنه تخلى عن الصادق لتعيينه موسى الكاظم إماماً من بعده، ذلك أن إمامة الصادق مقررة عند الإسماعيلية، في حين قال ابن ميمون:

مشيت إلى جعفر حقبة فألفيته خادعاً يخلب [١]

كما أنه تناول الشيعة بأجمعهم بقوله:

فلو كان أمركم صادقاً لما ظل مقتولكم يسحب

وعلى الرغم من موقف ابن ميمون هذا قال المعري: " وعلي له سابقة، ومحاسن كثيرة، رائقة، وكذلك جعفر بن محمد ليس شرفه بالثمد " [٢].

ولعل تعليق المعري حول أبي مسلم الخراساني، من أجمل ما قيل بالمؤسس العسكري للدولة العباسية: " والعجب لأبي مسلم .... حطب لنار أكلته، وقتل في طاعة ولاة قتله، وليس بأول من دأب لسواه، وأغواه الطمع فيمن أغواه، وإنما سهر لأم دفر، وتبع سرابا في قفر، فوجد ذنبه غير المغتفر عند صاحب الدولة أبي جعفر " [٣].

ومثلما علق المعري على أبي مسلم الخراساني، ذكر صاحب ثورة الزنج بقوله: " وأما العلوي البصري، فذكر بعض الناس، أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد قيس، ثم من أنمار، وكان اسمه أحمد، فلما خرج تسمى علياً، والكذب كثير جم، كأنه في النظر طود أشم، والصدق لديه كالحصاة توطأ بأقدام عصاة [٤].

---

[١] رسالة الغفران، ص ٣٤٢.

[٢] المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

[٣] المصدر نفسه، ص ٣٠٨.

[٤] رسالة الغفران، ص ٣٠٨.

وكان للمعري اهتمام خاص بالشعراء، ولم يعجبه سلوك ابن هانئ الأندلسي فقال: " وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده، يتوصل به إلى الدنيا الفانية ... وكان لهم في المغرب رجل يعرف بابن هانئ، وكان من شعرائهم المجيدين، فكان في مدح المعز أبي تميم معد، غلواً عظيماً، حتى قال يخاطب صاحب المظلة:

أمديرها من حيث دار لشد ما زاحمت تحت ركابه جبريلا

وقال وقد نزل بموضع يقال له رقادة: [على بعد حوالي العشرة أميال عن القيروان، حيث كانت قصور الأغالبة]:

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح [١]

وعلى الرغم من اتهام المعري لابن هانئ بالغلو، كان ابن هانئ بالفعل متماشياً مع ما كان رائجاً ومأخوذاً به في البلاط الفاطمي، ولاسيما في أوساطه الداخلية، ويؤيد هذا كتابات القاضي النعمان، ولاسيما كتابه " الرسالة المذهبية في الحكمة والتأويل" التي لدي ثلاثة نسخ خطية عنها، وهي لم تنشر بعد.

وكان المعري معجباً بالمتنبي، وبشعره، ومع ذلك فلم يحاول بشكل جاد، أن ينفي عنه دعوة النبوة وأورد بعض الحكايات التي تدلل على معجزاته[٢]

والمواد الإخبارية التي أوردها المعري عن بعض شعراء ما قبل الإسلام مهمة جداً، وقد وزعهم على الجنة والنار، وكانت معايير المعري خاصة به، نابعة من معارفه اللغوية ومن مبادئه الأخلاقية، وعقيدته، فهو كان ضد الزندقة والإلحاد، وقد استنكر الإقدام على الانتحار، واتخذ موقفاً من النبي صلى الله عليه وسلم، كان رائعاً، قام على فهم وإدراك عميق، فقد قالت له قريش: أتباعك من هؤلاء الموالي: كبلال، وعمار، وصهيب، خير من قصي بن كلاب، وعبد مناف، وهاشم، وعبد شمس؟ فقال: نعم، والله لئن كانوا قليلاً ليكثرن، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن، حتى يصيروا نجوماً يهتدى بهم ... فاتبعوني أجعلكم أنساباً، والذي نفسي بيده لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر ".

---

[١] المصدر نفسه، ص ٣١٨.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٨٩ ــ ٢٩١.

واتخذ موقفاً وحدوياً إيجابياً من الصحابة جميعاً ، بأن روى واحد من الصحابة قوله : " لا تسبوا أصحاب محمد ، فإنهم أسلموا من خوف الله ، وأسلم الناس من خوف أسيافهم " (١)

وفي الحقيقة تحتاج رسالة الغفران إلى تحليل كامل للذي حوته من مواد تأريخية ، وهدا الجانب يستحق ـ وعن جدارة ـ أن يكون موضوعاً لرسالة جامعية.



(١) رسالة الغفران ، ص ٢٣٨ـ ٢٣٩.

قائمة المصادر والمراجع:

١. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق د. سهيل زكار، ط، دمشق ١٩٨٨.

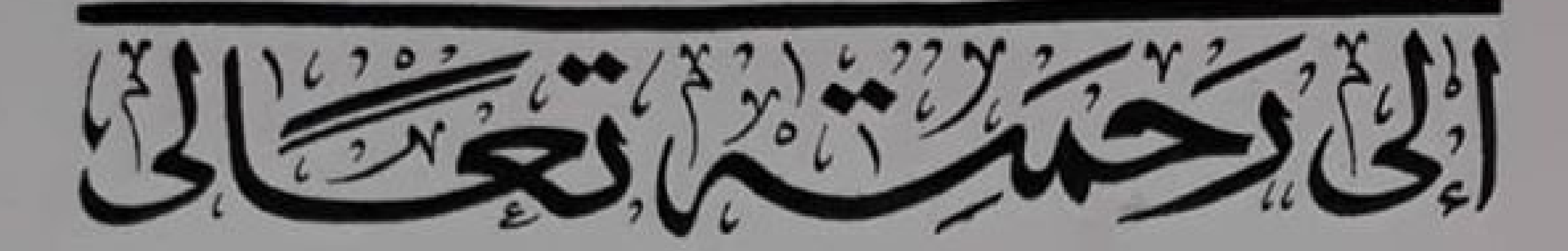
٢. أبو العلاء المعري: رسالة الغفران، ط، دار صادر، بيروت.

٣. سهيل زكار: الجامع في أخبار القرامطة، ط، دمشق، ٢٠٠٧.

٤. سهيل زكار: كتاب الزندقة، ط، دمشق، ٢٠٠٥.

٥. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. سهيل زكار، ط، دمشق، ١٩٦٨.





اتحاد المؤرخين العرب واتحاد الكتاب العرب
جامعة دمشق - جامعة بلاد الشام - آل زكار

ينعون إليكم بالرضا والتسليم لقضاء الله وقدره وفاة فقيدهم الغالي

المرحوم بإذنه تعالى
الأستاذ الدكتور المؤرخ الحاج

سهيل علي صادق زكار

﴿ أبو مصطفى ﴾

ابن الفقيد : الدكتور مصطفى زكار
بنات الفقيد : الدكتورة لمى والدكتورة ربى والدكتورة هبة زكار
زوجة الفقيد : جمانة البربير
صهر الفقيد : الدكتور علاء الاخضر
احفاد الفقيد : روى وزارا زكار ورشا ويارا وتوفيق ومحمد الاخضر
نسيب الفقيد : عبد الحفيظ البربير
أبناء أشقائه : سمير وعلي وصادق ومحمد وفرحان وغزوان ورضوان زكار
أبناء شقيقته : فردوس وفراس وزكريا ورياض زكار
أبناء عمه : محمد حيدر ومثنى والقاضي سعد وطارق وخالد ابناء المرحوم مدحت زكار الدكتور عبد المعين والمهندس عبد الرحمن أبناء المرحوم الدكتور أحمد زكار وهيثم والدكتور بسام وياسر وعصام وحسام ونضال أبناء المرحوم عدنان زكار المهندس مهند والمهندس معن والدكتور معتصم والدكتور معتز أبناء المرحوم عبد الكريم زكار والمهندس محمد والدكتور وائل أبناء المرحوم نعسان زكار والمهندس حسان وحسام أبناء المرحوم سالم زكار

وعموم آل زكار والبربير والأخضر وخليفة وياسين

وقصاب والعيتاني ودعبول والفاروسي والراعي والنشواتي وجيفي بهلول

الذي لبى نداء ربه صباح يوم الاحد الواقع في ٦ رجب ١٤٤١ هـ الموافق ١ آذار ٢٠٢٠ م وسيشيع جثمانه الطاهر من داره الكائنة في المزة فيلات غربية شارع سعد بن ابي وقاص جانب معهد ابن حيان حيث يصلى عليه عقب صلاة ظهر يوم الاثنين الموافق ٢ آذار ٢٠٢٠ م في جامع بلال بن رباح (دوار المطار) ثم يوارى الثرى في مقبرة باب الصغير

للفقيد الرحمة ولكم الأجر والثواب

تقبل التعازي للرجال وللنساء بصالة دار السعادة مزة فيلات غربية

أيام : الثلاثاء ٣ والاربعاء ٤ والخميس ٥ آذار ٢٠٢٠ م

للرجال : من الساعة (٧،٣٠) حتى (٩،٣٠) وللنساء : من الساعة (٢،٣٠) حتى (٤،٣٠)
